مَجلةُ مَجمعِ اللغةِ العربيةِ بالشارقةِ

العدد الثاني عشر - سبتمبر 2024 م

حاكمُ الشَارقة يَفتتِحُ
المعهدَ الثّقافيّ العربيّ في ميلانو

تجربَةُ (القَلْب المقدّس)
في تَعْزيزِ الحوارِ الثّقافيّ

هلِ اللُّغَةُ العربيَّةُ
أعظمُ اللُّغاتِ؟

أفْرادٌ من المُستشْرقين
وانْصافُهم للُغةِ الضَّادِ



نسخة رقمية

فناء جامعة القلب المقدس الكاثوليكية في ميلانو

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ
ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

[فصلت ٤٤]

صدق الله العظيم

سُلطان القاسميّ يَخطُّ أُفقًا جَديدًا للعَربيّة

شاء الله ألّا تبقى اللّغة العربيّة محدودةً بالزّمان والمكان، أو أن تبقى ذكرى في أساطير الجَمال؛ بل شاء لها أن تمخُرَ عُباب الزّمان، وأن تخترق الآفاق حاملةً نور الحضارة وعبق التّراث، متخذةً من قلوب محبّيها حول العالم وطنًا ترسو على موانيه. اليوم، تعيش العربيّة عصرًا جديدًا ترتحل فيه إلى عوالمَ أخرى، إذ لم تعد -كما لم تكن- لغةً محصورةً في حدود الجغرافيا أو مقصورةً على من وُلدوا ناطقين بها؛ بل أصبحت لغةً تستهوي كلّ من يسعى إلى أن يعيش اتصالاً وتواصلاً مع ماضٍ حضاريّ إنسانيّ محمّل بالعلم والقيم والأخلاق، ومع حاضرٍ ومستقبلٍ مفعمٍ بالإمكانات والفرص.

وبقدر ما يشكّل الاهتمام المتزايد باللّغة العربيّة انعكاسًا لأهميّة هذه اللّغة ومكانتها، فإنه يضع على كاهل أهلها مسؤوليّة جسيمة، إذ يتعيّن علينا تقديم هذه اللّغة وثقافتها بصورة تمثّل عمقها وأصالتها، وتتناسب مع التّطلعات والآمال التي يعلّقها عليها كلّ من يتوق إلى استكشافها، وفي هذا السّياق، يأتي افتتاح صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسميّ عضو المجلس الأعلى، حاكم الشّارقة، للمعهد الثقافيّ العربيّ في جامعة القلب المقدّس الكاثوليكيّة بميلانو، ليكون خطوةً رائـدةً في مشروع الشّارقة الثّقافيّ العالميّ الذي يترجم رؤية حكيمة تهدف إلى إعادة إحياء التّراث العربيّ وتقديمه في صورته الجليّة للعالم، وفي هذا العدد تطالعون تفاصيل هذا الافتتاح ومراميه العلميّة.

كما يسلّط هذا العدد الضوء على تجربة جامعة القلب المقدّس في تدريس اللّغة العربيّة، ويتضمّن حوارًا معمّقًا مع رئيس قسم اللّغة العربيّة بكليّة الآداب في الجامعة الدّكتور وائل فاروق، الذي يسرد لنا تجربة الجامعة في تعليم اللّغة العربيّة التي تتجاوز كونها تجربة أكاديميّة، بل هي مغامرة فكريّة تسعى إلى دمج العربيّة بثقلها الحضاريّ في نسيج الفكر العالميّ، وهو ما يعكس إيمانًا عميقًا بقدرة اللّغة العربيّة على أن تكون وسيطًا حضاريًا، تُظهر من خلاله حجم إسهام العرب في التّطور العلميّ والفكريّ للإنسانيّة.

وتتجلّى في هذا العدد، أمام القارئ مجموعة من المقالات والدّراسات التي تسبر أغوار قضايا لغويّة وأدبيّة متنوعة، تستكنه أعماق اللّغةِ العربيّة وعلومها. ومن بين هذه المقالات المتميّزة، يبرز مقال الدّكتور صالح بلعيد بعنوان «هل اللّغة العربيّة أعظمُ اللّغات؟»، حيث يتناول فيه الأسس اللّسانيّة لتصنيف اللّغات، كما يحتضن هذا العدد مقال الأستاذ وفيق مختار، الذي يقدّم فيه عرضًا شائقًا لآراء بعض المستشرقين المنصفين، الذين أدركوا بِحقّ عظمة لغة الضّاد وأثنوا عليها بإنصاف، مسلّطين الضّوء على الجوانب المشرقة التي أسَرت عقولهم وجذبت اهتمامهم. تأتي هذه المقالات إلى جانب مجموعة من الدّراسات البلاغيّة التي تتناول البيان القرآنيّ البديع. ولا يغيب عن هذا العدد تسليط الضّوء على شخصيّات لغويّة عظيمة كان لها أثر بالغ في صون هذه اللّغة وتمكينها، مثل الشّيخ البشير الإبراهيميّ والجرجانِيَّين وغيرهم ممّن شكّلوا أعمدةً راسخةً في بناء اللّغة العربيّة وتاريخها المجيد.

وما دامت اللّغة العربيّة محاطةً بمن يصونها ويُعنى بها، ستظلّ حيّةً نابضةً بالحياة، محفوظة بحفظ الله، لا يغيب نورها عن العالم. فوجود اللّغة هو في الحقيقة وجود للإنسان، وازدهارها هو ازدهار للوجود ذاته. وكما قال الفيلسوف مارتن هايدجر: «إن الفكر مخبّأ داخل اللّغة، واللّغة هي منزل الوجود».

هيئة التّحرير

مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

مجلّة أدبيّة لغويـة تـصدر عن

حـكـومـة الشـــارقـة Government of Sharjah

مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السّنة الثّانية – العدد الثّاني عشر – سبتمبر 2024 م

مجلّة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللـــغـــة الـعـربيــــة وآدابـــهــــا

المراسلات

هاتـف : 400 60 51 6 971+

فاكس : 401 60 51 6 971+

ص.ب : الـشـــارقـــة ، 1973

shj_ala www.alashj.ae

Sharjah.ala info@alashj.ae

مجمع اللغة العربية بالشارقة

امسح الرمز

لزيارة موقع مجمع اللغة العربيةبالشارقة

لمشـاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني

Magazine@alashj.ae



مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة



إنَّ اللّغةَ العربيَةَ وُضِعتْ ألفاظُها. أوّلَ ما وُضِعتْ للدّلالة على مُسمّياتٍ ومعانٍ محدّدة، وهي دلالاتُها الحقيقيّةُ، ثمّ ما لبث المتكلّمون بها أن أعطوا كثيراً من ألفاظها دلالاتٍ أخرَى، ذاتَ صِلةٍ بالمعاني الأصليّة...



يُعدّ الإيقاعُ جزءًا لا يتجزأُ من المعنى، بل إنّه – حسبَ بعض الباحثين– قد يحملُ من الشّحنِ المعنويّة –باعتباره دالًا– ما لا يحملُه المدلولُ نفسُه . ولقد نبّه أربابُ البلاغةِ الحديثة على أثرِ الإيقاعِ في العمليّةِ الحجاجيّة.

المحتويات

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

مَجمَعُ اللّغة العَربيّة بالشّارقة في الصّحف

في مقرّه الجديد الذي افتتح بمكرمة صاحب السمو حاكم الشارقة

مجلس اللّسان العربيّ بموريتانيا يناقش سبل تنسيق العمل وبناء الشراكات في خدمة اللّغة العربية





«مجلّة مجمع اللّغة العربيّة» تضيء على الاستدامة اللّغويّة



أبرزت إطلاق 21 مجلداً جديداً من «المعجم التاريخي» تغطي 4 أحرف

الملف

المعجم التاريخي للعربية..



مناقشة تطوير مهارات المعلمين







مَلَفُّ العَدَد

حاكمُ الشّارِقةِ يَفتَتِحُ المعهدَ الثّقافيّ العربيّ في ميلانو

افتتح صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسميّ عضو المجلس الأعلى حاكم الشّارقة، يوم الجمعة 31 أغسطس 2024 المعهد الثقافي العربي في مدينة ميلانو الإيطالية.

وكان في استقبال سُموّه كلّ من الشّيخة بدور بنت سلطان القاسميّ رئيسة مجلس إدارة هيئة الشارقة للكتاب، والشيخ ماجد المعلا نائب رئيس أول لدائرة الشّؤون الدوليّة في طيران الإمارات، وعبد الله علي السّبوسي سفير دولة الإمارات العربيّة المتحدة في الجمهورية الإيطاليّة، وناصر القحطانيّ سفير دولة الكويت في الجمهوريّة الإيطالية، وأحمد بن ركّاض العامري الرّئيس التنفيذي لهيئة الشّارقة للكتاب، والدكتور عبدالعزيز المسلم رئيس معهد الشارقة للتراث، والدكتور سلطان العميمي رئيس مجلس إدارة اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ومحمد حسن خلف مدير عام هيئة الشّارقة للإذاعة والتلفزيون، وعيسى عبّاس مدير عام هيئة الشّارقة للآثار، وعدد من كبار المسؤولين ورؤساء تحرير الصّحف الإماراتيّة.

بدأت مراسم الافتتاح بالتّوجه إلى القاعة التي جرى فيها حفل الافتتاح، حيث ألقى صاحب السّمو حاكم الشّارقة كلمة بمناسبة افتتاح المعهد العربيّ الثّقافيّ، عبّر فيها عن سعادته بنجاح العلاقة التي



هذا المشروع يُثبت أنّ اللّغة العربيّة هي لغة ربّ العالمين لآدم وهذه اللّغة هي التي وجه بها ربّ العالمين جدّنا آدم ليعمر هذه الأرض، ونحن نأمل أن نعمِّر الأرض ولا نخربها بل نمدّ يدنا للتّعاون في المجالات الإنسانيّة وليس في المجالات التّخريبيّة

تجمع الشارقة بجامعة القلب المقدس الكاثوليكية وإثمارها افتتاح المعهد الثقافي العربي الذي تحتضنه الجامعة في رحابها، لافتًا سموه إلى أن العلاقة مع الجامعة منذ 7 سنوات شهدت زيارة الكثير من الطلبة والطالبات إلى الشارقة لحضور المؤتمرات والأحداث المتنوعة الثقافية والتعليمية وغيرها، وزيارة وفود من الشارقة للجامعة والمشاركة في فعالياتها وتعزيز التعاون معها.

وقد توصَّلَ سموّه بعد بحثه في اللُّغاتِ وأصولِها إلى أنَّ اللُّغة العربيَّة هي اللُّغة نفسها التي خرجت إلى الجزيرَةَ العربيَّة، مُعبِّرًا عن سعادَتِه الغامِرَة بكُلِّ اكتِشافٍ يؤكد أن هنالك كلمات عربية أصيلة قد لا تستعملها الشعوب العربية لقدمها ولكنها موجودةٌ في القواميس،





لافتًا سموه إلى جهود إنجاز المعجم التاريخي للّغة العربيّة الذي سيكون في 125 مجلد، يحتوي كلّ منهم على 750 صفحة، وسيفسر المعجم ما وجد في قاموس اللّغة اللاتينيّة المترجم إلى العربيّة.

واختتم صاحب السّمو حاكم الشارقة كلمته، قائلًا: «أنا الآن في بداية العمل على 5 مجلّدات للقاموس اللاتينيّ، آمل أن يصدر هذا القاموس ليبين فيه القاموس العربيّ إلى اللاتيني وحتّى تبرز الكلمة، وهذا مشروع كبير يثبت أن اللغة العربية هي لغة ربّ العالمين لآدم وهذه اللّغة هي التي وجّه بها رب العالمين جدنا آدم ليعمر هذه الأرض، ونحن نأمل أن نعمر الأرض ولا نخربها بل نمد يدنا للتعاون في المجالات الإنسانيّة وليس في المجالات التخريبية، ونحمي هذه الثقافة أكانت عربية أم ايطالية أم لاتينية أو أي ثقافة نحافظ عليها من العبث، وما يحدث من عبث آلمنا كثيراً فما شاهدناه في المهرجان الذي أقيم في باريس من تشويه لسيدنا المسيح عليه السّلام، ولصورة نحن وغيرنا لا يقبلها، ومن هنا نحتجّ ونعلي صوتنا لا



للعبث لا للعبث لنحمي لغتنا وعقائدنا وثقافتنا، فهذه الخطوات مطلوبة لكلّ إنسان يريد أن يعيش على هذه الأرض في سلام».

وألقت الشّيخة بدور بنت سلطان القاسمي رئيسة مجلس إدارة هيئة الشارقة للكتاب كلمة خلال حفل الافتتاح عبّرت فيها عن سعادتها باللّحظة التاريخية لافتتاح معهد الثقافة العربي في الجامعة الكاثوليكيّة للقلب المقدّس في ميلانو، مؤكدةً أن هذه المناسبة الهامة هي تجسيدٌ عمليٌّ للإرادة الصادقة والرّؤية الدّائمة في تعزيز الحوار الثقافي والتعاون الأدبي بين الشارقة والعالم بأسره، والتواجد هنا اليوم يعني بداية فصلٍ جديدٍ في مسيرة الشارقة الثقافية والأدبية، مسيرةٌ تمضي بها الشارقة لتتخطى الحدود وتعبر القارات براية الأدب الذي طالما جمع القلوب ووحد العقول منذُ الأزل.

وأوضحت الشيخة بدور بنت سلطان القاسميّ أن التزام صاحب السّمو حاكم الشّارقة الثّابت بتعزيز الثّقافة والتّعليم كان وما زال حجر الزاوية في إنجازات الشارقة المميزة في العلم والأدب، والتي جعلت الشارقة محط أنظار العالم لتفوز



بالاعتراف العالمي كمنارة للمعرفة والإبداع والتبادل الثقافي حيث حصدت الشارقة لقب العاصمة الثّقافيّة للعالم العربي عام 1998، وبعد ذلك الإنجاز، وضعت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة عام 2014 على صدر إمارة الشّارقة وسام عاصمة الثّقافة الإسلاميّة تقديراً لها على إسهاماتها المميزة في المجال الثقافي محليًا وعربيًا وإسلامياً. وفي عام 2019، حصدت وسامًا آخرَ من اليونسكو عندما تم اختيارها عاصمةً عالميةً للكتاب، مضيفةً أن افتتاح هذا المعهد هو امتدادٌ لهذه المسيرة، وهو جُزءٌ مهمٌ من استراتيجية هيئة الشارقة للكتاب التي تلعبُ دورًا كبيرًا في تنفيذ الرؤية الثقافية لسموه وإمارة الشارقة عبر بناء الشراكات حول العالم وإقامة العديد من الفعاليات الثقافية العالمية مثل معرض الشارقة الدولي للكتاب ومؤتمر الناشرين وغيرهما مما يُساهمُ في بناء جسورٍ ثقافيةٍ متينةٍ بين الشرق والغرب.

واختتمت الشيخة بدور بنت سلطان القاسمي كلمتَها بالتأكيد على أن رسالة الشّارقة واضحة في تعزيز التعاون الأدبي بين الشرق والغرب، وتسهيل التبادل في عالم النشر والكتاب وتقويته بين الشارقة والعالم، وتشجيع السفراء الثقافيين ودعمهم، وكذلك بناء مجتمع واسع من الشراكات العالمية، بالإضافة إلى تحقيق هدف المعهد في جذب أصوات جديدة واستقطاب أقلام رائدة إلى الساحة الثقافية الحيوية في الإمارات العربية المتحدة وخلق وخَلقِ فُرصِ تبادُلٍ ثقافيٍّ يَنْعَمُ بِثِمارها الجميع.

وألقت الدكتورة إيلينا بيكالي رئيسة جامعة القلب المقدس الكاثوليكية كلمة رحّبت خلالها بصاحب السّمو حاكم الشّارقة والوفد المرافق له في رحاب الجامعة لافتتاح المعهد الثقافيّ العربيّ، مؤكدةً أن المعهد لا يُعدّ مركزًا ثقافيًا وتعليميًا جديدًا فقط، بل مبادرة مهمة وخطوة ستعزز التعاون المثمر الذي أقامته جامعة القلب المقدس الكاثوليكية منذ فترة طويلة مع العالم العربي، ومع إمارة الشارقة خاصّةً.

وتناولت بيكالي خلال كلمتها اهتمام الجامعة بتعليم الثقافة واللّغة العربيّة من خلال جهود ومبادرات عدّة منها: مهرجان اللّغة والثّقافة العربيّة، الذي شهدت دوراته السبع مشاركة العديد من العلماء والمفكرين من جميع أنحاء العالم العربي، بالإضافة إلى تنظيم دورات اللغة العربية التي ينتسب إليها كل عام أكثر من 300 طالب وطالبة.







رسالة الشّارقة واضحة في تعزيز التّعاون الأدبيّ بين الشّرق والغرب، وتسهيل التّبادل في عالم النّشر والكتاب بين الشّارقة والعالم

واختتمت رئيسة جامعة القلب المقدس الكاثوليكية كلمتها بتوجيه الشكر لكل من ساهم في إنجاح مبادرة تأسيس المعهد الثقافي العربي الذي يُعَدّ فرصة ملموسة للحوار بين العالم والثّقافات، مثمنةً دعم واهتمام صاحب السّمو حاكم الشّارقة، وجميع القائمين على المؤسسات الثقافية والتعليمية في إمارة الشارقة.

وتخلّل حفل الافتتاح محاضرة شارك فيها الدّكتور امحمد صافي المستغانمي أمين عام مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة، والدكتور إغناطيوس غوتيريث أستاذ اللّغة والأدب العربيين ورئيس قسم الدّراسات العربيّة والإسلاميّة في جامعة أوتونوما في مدريد، وأدارها الدكتور وائل فاروق أستاذ اللّغة العربيّة وآدابها ودراساتها الثّقافية في "جامعة القلب المقدس الكاثوليكية"، وتناولت محاضرة الدكتور امحمد صافي المستغانمي أمين عام مجمع اللغة العربية بالشارقة دور المعجم التّاريخيّ في صناعة الملكة اللغويّة، بدأها بالحديث حول أهميّة اللّغة فهي لدى كل قوم، وفي كل مجتمع إنسانيّ وسيلة التّواصل، وأداة التفاهم، وهي محل عناية الدّارسين وموضعُ تأمل الباحثين على تعاقب العصور وتتابع الدهور، وتُعدّ اللغة صانعة الفكر، وحاملةُ الهوية، وأداة التّواصل، ووسيلة الإبداع، فاللغة أساس كل إبداع واختراع، وبدون لغة لا توجد كتابة ولا طباعة، ولا إذاعة، ولا حاسوب، وكل وسائل التّواصل الاجتماعي الحديثة لا وجود لها بدون لغة، مشيراً إلى قول سقراط لتلميذه: "تكلّم حتى أراك"، وقول زهير بن أبي سُلمى لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه .... فلم يبق إلا صورةُ اللّحم والدّم.

وقال المستغانمي "إن تعليم اللّغة العربيّة لأبنائها وللنّاطقين بغيرها يمُرّ بظروف صعبةٍ شديدة، ومُشجعة مُحفزة في الوقت نفسه؛ إذ يشهد العالم المعاصر تنافسًا كبيرًا بين





اللغات العالمية، ونهضةً قويةً في ميدان تعليمها والتمكين لها انتشارا وانحسارًا، والواقع المعقد الذي نحياه يكشف عن ضعف لغوي شديد لدى كثير من المتكلمين باللسان العربي، وقد تشاركت عوامل كثيرة في تكوين هذا الضعف، واغتدى كل مهتم بشأن العربية الفُصحى وأضحى، وأصبح وأمسى باحثًا عن سُبُل للعودة بالعربية إلى مجدها التليد، والاهتداء إلى طرائق ناجعة مفيدة لتحبيب أبناء الأجيال المعاصرة فيها، وتمكينهم من حسن التحدث بها وتجويد الكتابة بها".

وأوضح المستغانمي أنّ متعلّم العربيّة لابدّ أن يُدرك أنَّ تعلُّمها لا يقف عند معرفة معاني ألفاظها، وأحوال أوزانها وأبنيتها، وعليه أن يعلم أنّ اكتساب المَلَكة اللغويّة لا يكون إلا إذا امتلك المتعلّم آليات تعلم اللغة، مبتدئًا من معرفة الألفاظ ودلالاتها، مارًّا بحُسن استعمالها وتركيبها، ممارسًا دعاءها واستحضارها في اللحظة التي يريد، مُنتهيًا إلى مراعاة مقامات الكلام وسياقاته وظروفه وملابساته، مؤكدًا أن السبيل الأمثل لتحقيق ذلك هو أن يصل القائمون على التربية والتعليم إلى كيفية تكوين الملكة اللغوية لدى أبناء الجيل.



وأشار أمين عام مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة إلى مجموعة من المقترحات والحلول التي تدعم تعليم وترسيخ اللغة العربيّة الصحيحة منها الانغماس اللغويّ الذي يؤكّد ضرورة العيش في رحاب بيئة سليمة لُغويا، ليُحقق اكتساب ثلاث كفايات: لغوية وثقافية وتواصلية، وضرورة إتقان علوم الآلة المتعلقة باللسان العربي وهي النحو والصرف والإملاء والبلاغة بعلومها الثلاثة (البيان والمعاني والبديع) وعلم العروض، ومفتاح التدرّج في تكوين المَلَكة اللغويّة من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المُعقد، ومن العام إلى الخاص، ومفتاح القراءة الذي يجب أن يمتلكه المتعلم في سن مبكرة، ويُحسن توظيفه، ليتعلم مخارج الحروف وصفاتها، ويُتقن قراءة الكلمات والجمل والفقرات، ويعرف أين يقف، ويتعلم مواضع الفصل والوصل، وغير ذلك من مهارات القراءة السليمة الصحيحة.

وتطرق أمين عام مجمع اللغة العربية بالشارقة إلى مجموعة من الأمثلة في المعجم التاريخي للغة العربية التي تثري الملَكة اللغوية، وتعبر عن خصائص العربية مثل سعة مُعجمها وكثرة مفرداتها مثل المفردات التي تعبر عن ساعات الليل والنهار:







(الشفق/ الغسق/ العتمة/ السدفة/ الفحمة/ الزلة/ الزلفة/ البُهرةُ/ السحر/ الفجر/ الصبح/ الصباح/ الشروق/ البُكور/ الغُدوة/ الضحى/ الهاجرة/ الظهيرة/ الرواح/ العصر/ القصر/ الأصيل/ العشي/ الغروب)، وثـراء الاستعمال في العربية، مثل الجذر (ر ج ع): الذي وجد الباحثون في المعجم التاريخي ٣٤ مدخلاً له.

وتجول سموه في مرافق المعهد، وشهد أولى فعالياته التي تنظمها هيئة الشارقة للكتاب بالتعاون مع جامعة القلب المقدس الكاثوليكية، حيث استهل المعهد أنشطته بسلسلة ورش إبداعية وفنية تتناول جانبًا من التراث الثقافي والفني العربي، مثل ورشة إبداعية للخط العربي.

ويعدُّ المعهد الثّقافيّ العربيّ الأول من نوعه للثقافة العربية في إيطاليا، واضعًا تاريخ مبادرة دولية إماراتية تنطلق من الشارقة في عدد من بلدان العالم، تتضمن إنشاء سلسلة معاهد للثقافة العربية في عواصم المعرفة والإبـداع، بهدف مد جسور التواصل والحوار وتعزيز العلاقات الثقافية بين الحضارة العربية والغربية، وإظهار حجم مساهمة العرب في النتاج العلمي والإبداعي الإنساني.

ويسعى المعهد إلى تسهيل الشراكات بين الناشرين العرب والإيطاليين لترجمة الأعمال العربية إلى اللغة الإيطالية وغيرها من اللغات الأوروبية، إلى جانب إطلاق مجلة أدبية مشتركة باللغتين العربية والإيطالية، تضم أعمالاً لكُتّاب وأدباء عرب وأوروبيين، بالإضافة إلى تطوير منصة رقمية تتيح للأفـراد اكتشاف جوانب الثقافة العربية وكنوز الأدب العربي، ويستهدف المعهد الأجيال الجديدة من الشباب الإيطاليين والباحثين والدارسين للثقافة العربية، وأدباء المهجر، إذ يعتبر أول معهد متخصص في إدارة البرامج والسياسات الثقافية العربية في إيطاليا، حيث سيتولى تنظيم برامج تعلّم اللّغة العربية، ويطلق منحًا لبرامج التّبادل الثقافي، إلى جانب إعداد أنشطة مخصصة للطلاب والشباب والكُتاب الواعدين، كما سيعمل المعهد على توسيع مهرجان اللّغة العربيّة، الذي ترعاه هيئة الشارقة للكتاب في ميلانو، ليشمل أنشطة أكثر تنوعًا مثل قراءات الشّعر وورش العمل اللغويّة والمناقشات الجماعية، ويخصص جانبًا من أنشطته لتنظيم معارض كتب سنويّة وفعاليات أدبية وورش عمل وندوات تفاعليّة بين الثقافة العربيّة والأوروبية.





العربيّة بين الغرب والشّرق:

تجـربة «الـقلـب المقـدّس» في تعْزيز الحوارِ الثّقافيّ



الدّكتور وائـل فـاروق
رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب واللغات الأجنبية
وعضو مجلس إدارة معهد الدراسات العليا في جامعة القلب المقدّس



أصبحت اللغة العربيّة في الآونة الأخيرة محور اهتمام متزايد في أوروبا، حيث بات الإقبال على تعلمها يتجاوز الأهداف الأكاديمية البحتة ليشمل أبعادها الثقافية العميقة، التي تشكل جسرًا حضاريًا يربط العالمين العربي والأوروبي، وتمتد العلاقات التاريخية بين هذين العالمين لقرون طويلة، شهدت خلالها تطورات عدة، أدت إلى تأسيس مراكز بحثية وأقسام للدراسات الشرقية والعربية في الجامعات الأوروبية.

وفي هذا السياق، تأتي جهود قسم اللغة العربية في جامعة القلب المقدس الكاثوليكية ممثلاً بالدكتور وائل فاروق، رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب واللغات الأجنبية وعضو مجلس إدارة معهد الدراسات العليا بالجامعة وذلك بوصفه عنصرًا مهمًا من الحراك الأكاديمي الهادف إلى ترسيخ مكانة اللغة العربية في أوروبا عمومًا، وفي إيطاليا على وجه الخصوص، وذلك عبر تطوير مناهج تعليمية مبتكرة وتفعيل برامج التبادل الثقافي بين الجامعات.



جامعة القلب المقدّس- ميلانو

يحضُر السّؤال عن البداية، كيف كانت بدايات تعليم اللّغة العربيّة في إيطاليا عامةً؟ وهل يمكنك -دكتور وائل- أن تحدثنا عن المراحل التّاريخيّة التي مرّ بها تعليم اللّغة العربيّة لا سيّما في جامعة القلب المقدّس الكاثوليكيّة؟

يعود تاريخ تدريس اللغة العربية في الجامعات الإيطالية إلى القرن الرابع عشر. في البداية، كما كان الحال في بقية أوروبا، كانت دوافع دراسة اللغة العربية في إيطاليا ذات طابع ديني، ولكن هذا لا يمنع وجود دوافع أخرى تجارية وثقافية، في إطار حركة تبادل كثيف ومستمر بين إيطاليا والعالم العربي، كانت المراكز التاريخية التي ولد فيها تدريس اللغة العربية في إيطاليا –حسب الترتيب الزمني، هي: جامعة روما «لا سابينزا» وجامعة نابولي «لورينتال» وجامعة باليرمو في صقلية وكافوسكاري في البندقية.

أما تاريخ تدريس اللغة العربية في الجامعة الكاثوليكية فعمره قصير قياسًا إلى تاريخ الجامعة العريق الذي يتجاوز المئة عام، فمنذ بداية الثمانينيات كانت هناك برامج لتدريس اللغة العربية، ولكنها كانت محدودة جدًا، ومع بداية الألفية الثالثة وازدياد الاهتمام في العالم بشكل عام بالعرب ولغتهم، ارتفع عدد الطلاب الراغبين في دراسة اللغة العربية دون أن يواكب ذلك تطور في مناهج دراسة اللغة أو المحتوى العلمي والثقافي الذي يتم تقديمه

”

يعود تاريخ تدريس اللغة العربية في الجامعات الإيطاليّة إلى القرن الرابع عشر وكانت دوافع دراستها في إيطاليا ذات طابع ديني، ولكن هذا لا يمنع وجود دوافع أخرى تجاريّة وثقافيّة

للطلاب، ناهيك عن الغياب الكبير للبحث العلمي في علوم اللغة العربية، لهذا في عام 2012 تم استدعائي من

جامعة نيويورك حيث كنت أعمل لوضع أسس قسم للغة العربية وقد وفقني الله بفضل تعاون الزملاء ودعم الجامعة لكل المبادرات التي تقدمت بها إلى تحقيق الهدف وإن كان ما تحقق أقل كثيرًا مما نطمح إليه. فقد قمت والزميلة الدكتورة إليزا فيريرو بتأليف خمسة مجلدات تتجاوز الألفي صفحة لتدريس اللغة العربية من أول حروف الأبجدية وحتى دراسة النصوص الأدبية وغيرها من النصوص النوعية، بل إننا خصصنا فصلاً ضافيًا من آخر المجلدات والذي صدر هذا العام لدراسة عربية وسائل التواصل الاجتماعي لنؤهل الطلاب لاستخدام العربية في العصر الرقمي، والعام القادم يكتمل مشروع تأليف هذه السلسلة من الكتب الدراسية بصدور المجلد السادس الذي يدرس فن الترجمة بين العربية والإيطالية، وقد نشرت هذه المجلدات أعرق دور النشر الأكاديمية كما أنها تستخدم في الجامعات الأخرى اعترافًا بما فيها من التزام بالمنهج العلمي الصارم والدقة اللغوية والابتكار في أسلوب طرح الموضوعات ووسائل التدريس.

نجحنا حتّى اليوم في تخريج جيلين من المعلمين الأكفاء الذين يقومون بتدريس اللّغة العربيّة اليوم في الجامعة الكاثوليكيّة وغيرها من جامعات الشّمال الإيطاليّ

وكانت الخطوة الثانية تأهيل المعلمين المتمكنين من اللغة العربية والذين قضوا عامًا أكاديميًا كاملاً على الأقل في التدريب النظري والعملي على أحدث مناهج تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، وقد نجحنا حتى اليوم في تخريج جيلين من المعلمين الأكفاء الذين يقومون بتدريس اللغة العربية اليوم في الجامعة الكاثوليكية وغيرها من جامعات الشمال الإيطالي.

ولم يشغلنا ذلك عن القيام بواجبنا كباحثين، فقد حصلت على درجة الأستاذية من وزارة التعليم والبحث العلمي بعد أن تقدمت بعشرات الأبحاث العلمية المنشورة في مجلات دولية علمية محكمة والكتب المنشورة في دور نشر جامعية عريقة بثلاث لغات هي العربية والإنجليزية والإيطالية.

الخطوة الثالثة والأخيرة كانت تهيئة الشروط المناسبة لدراسة اللغة العربية في بيئة أعجمية وقد بدأناها ببناء مكتبة عربية تضم آلاف العناوين، ولا يفوتني هنا أن أشكر الدعم السخي لهيئة الشارقة للكتاب ومشروع كلمة ورابطة العالم الإسلامي ومكتبة الإسكندرية على هداياهم القيمة من الكتب الورقية والرقمية. ثم قمنا بتنظيم نشاط ثقافي شهري للقراءات الشعرية والأدبية والعروض الفنية نستضيف فيها الكُتّاب والأدباء من العالم






د.امحمد صافي المستغانمي


أ.د ماريا كريستينا جاتي


أ.د. ماريا تيريزا زانولا


د. إيلينا بيكال

العربي ومن المهجر للقاء الطلاب والحديث معهم باللغة العربية. هذا إلى جانب المهرجان الدولي للغة والثقافة العربية والذي شرُفَ وازدان في دوراته الأخيرة بحضور ومشاركة أساتذتي الأجلاء من علماء المعاجم العربية بدعم كريم من سعادة الدكتور امحمد صافي مستغانمي الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة والذي ننتظر مشاركاته المتميزة كل عام.

والحمد لله أصبحت هذه الاحتفالية باللغة العربية الأكبر في أوروبا حيث تجمع إلى جانب الجلسات العلمية الكثير من الأنشطة الثقافية والفنية وقد شارك في الدورة الأخيرة ستون باحثًا وكاتبًا ومبدعًا عربيًا جاؤوا من ستة عشر دولة من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية، ولا يفوتني أن أشكر مرة أخرى هيئة الشارقة للكتاب على شراكة تجاوزت سبع سنوات دفعت هذا الحدث إلى هذه المكانة المرموقة. كما نسهم في مشاريع ثقافية كبرى لخدمة اللغة العربية، وكان آخرها تعاون هيئة الشارقة للكتاب مع الجامعة الكاثوليكية و مكتبة أمبروزيانا العريقة التي تأسست في القرن ١٦ لترميم ورقمنة ٢٥٠٠ مخطوطة عربية نادرة وطرحها للباحثين والمهتمين.

ولاتساع أنشطتنا وتنوعها وكثرتها احتجنا إلى تأسيس المركز الأكاديمي للغة العربية (كارا) والذي ترأسه الدكتورة كريستينا جاتي أستاذ علم اللغة العام وصاحبة مبادرة تطوير الدراسات العربية بالجامعة والتي كرست لها الكثير من الوقت والجهد على مدى خمسة عشر عامًا. ويشرف المركز على كل الأنشطة السابقة إلى جانب دعم النشر العلمي في علوم العربية والترجمة منها وإليها. إلى جانب تشجيع الباحثين

بدأت مرحلة تهيئة الشّروط المناسبة لدراسة اللّغة العربيّة في بيئة أعجميّة ببناء مكتبة عربيّة تضمّ آلاف العناوين وهنا أشكر الدّعم السّخيّ لهيئة الشّارقة للكتاب ومشروع كلمة ورابطة العالم الإسلامي ومكتبة الإسكندرية على هداياهم القيّمة من الكتب الورقية والرقمية.

الأوروبيين على دراسة الأدب والثقافة العربية، وتوفير كل ما يسهل عملهم ويشجعهم على الاستمرار، وقد عقد المعهد عشرات الحلقات العلمية، التي تناولت قضايا الأدب العربي المعاصر، وتطور اللغة العربية ومصطلحاتها، كما يهتم بتطوير مناهج دراسة اللغة العربية وتعلمها، وقد أدى هذا إلى زيادة عدد طلاب الماجستير الذين يدرسون قضايا العربية خاصة في المجال المعجمي، وعلم المصطلحات، وتحقيق المخطوطات.



ما التحدّيات التي واجهها تعليم اللّغة العربيّة في بداياته في إيطاليا، وكيف تغلبتم عليها؟

واجهنا، وما زلنا، الكثير من التحديات الثقافية، فالاضطرابات التي تعاني منها بعض بلدان وطننا العربي، وارتفاع وتيرة الهجرة غيرة الشرعية والصور النمطية المغلوطة عن العرب والإسلام، كل هذا يجعل إقبال الطلاب على دراسة العربية واستمرارهم مرتهناً بالأحداث السياسية والنقاش المجتمعي الذي يدور حولها والذي يكون في الغالب سلبيًا، وقد حاولنا التغلب على هذه التحديات من خلال تقديم نموذج حي مناقض لها، فالرد على الإساءات ومحاولة تصحيح الصور المغلوطة يستنزف الوقت والجهد ولا يحقق النتائج المرجوة، أما طرح نماذج جمالية إيجابية فإنه يجتذب قلوب الناس ويغير أفكارهم بالضرورة، ولعل أكبر دليل على نجاح هذه الاستراتيجية هو حضور ألف شخص من سكان ميلانو الحفل الافتتاحي لمهرجان الثقافة العربية. لذلك أقول لمن تدفعهم الغيرة على الثقافة العربيّة والحَمِيَّة لحقها الذي يتم غمطه، نحن في معركة على قلوب الآخرين ولسنا في معركة ضدها، لا يجب أن نفحمهم فتسْوَدَّ قلوبهم، وإنما علينا أن نجتذب عيونهم بالجميل فتبصر قلوبهم وتضيء.

هناك تحديات ثقافية خاصة بالمجتمع الإيطالي، منها أن أغلبية من يدرسون العربية لا يدرسونها لذاتها أو لاهتمامهم بها وإنما لدعم فرصهم للعمل في مجالات أخرى كالعمل الدبلوماسي، والأماكن في مثل هذا المجال محدودة جدًا فتكون

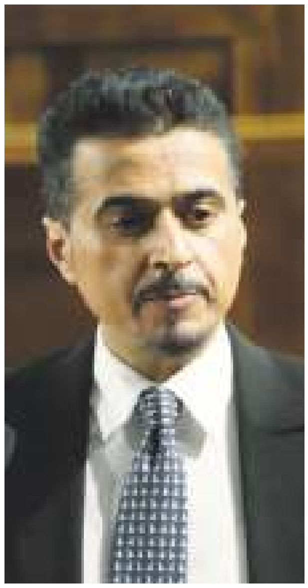




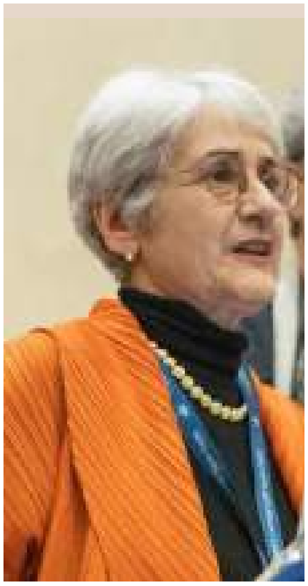
أ.د. جوفانّي جوبر



أ.د. ماريانا ماسا



أحمد بن ركّاض العامري



أ.د. فرانشيسكا كوراو

النتيجة انصراف الغالبيّة العظمى ممن درسوا العربيّة عنها لتعلم شيء مختلف يعزّز فرص دخولهم إلى سوق العمل، وقد حاولنا التغلب على هذا بالتواصل مع عدد من المدارس الثّانوية التي تتمتع بحضور أطفال من أصول العربية لإدراج اللّغة العربيّة كمادة اختيارية، ونرشح لهم خريجي اللّغة العربيّة من جامعتنا، إلى جانب تشجيع الطلاب على الترجمة من العربية وإليها سعيًا لنشرها عند بعض دور النشر الإيطالية بأي مقابل ولو حتى بمقابل رمزي، ولا أدّعي أن جهودنا قد أحدثت أي فارق ولكن قليلها أفضل من عدمه.

بعد جائحة الفيروس التاجي انخفض عدد دارسي اللغات بشكل عام في إيطاليا واللغة العربية بشكل خاص، وقد أدّت القفزة التكنولوجية، وانتماء كل الطلاب الجدد للجيل «زد» -وهو أول جيل رقمي- إلى تراجع الاهتمام بتعلّم اللّغات حيث يسود اعتقاد أنّه لم تعُدْ هناك حاجة لتعلم اللغات بسبب التطور الكبير في برامج الترجمة الآلية، وهو تحد ما زال العلماء يقفون أمامه حائرين.

تحد آخر وهو المنافسة الشديدة مع اللغات الشرقية الأخرى لا سيما اللغة الصينية التي أصبح انتشارها في العالم أحد الأهداف الاستراتيجية القومية للحكومة الصينية، فالصين، وبرؤية بعيدة المدى، تُنفق سنوياً ملايين الدولارات من أجل دعم تدريس اللغة الصينية والتعريف بآدابها، ما وسّع من أُطر تأثير هذه الثقافة في العالم بأسره.

ما الأواصر التاريخية والثقافية التي تجمع بين الثقافة العربيّة ونظيرتها الإيطالية؟ وكيف أثرت هذه الروابط في توجهات الطلبة الإيطاليين نحو تعلم اللّغة العربيّة؟

> **بعد جائحة كورونا انخفض عدد دارسي اللّغات بشكل عامّ في إيطاليا واللّغة العربيّة بشكل خاصّ، وقد أدت القفزة التّكنولوجية، وانتماء كلّ الطّلاب الجدد للجيل «زد» إلى تراجع الاهتمام بتعلم اللّغات حيث يسود اعتقاد أنّه لم تَعُد هناك حاجة لتعلّم اللّغات بسبب التّطوّر الكبير في برامج التّرجمة الآليّة**

إنّ الأواصر التاريخية بين الثقافتين عريقة وعميقة وممتدة من العصور القديمة حتى اليوم، ولم تترك مجالاً من مجالات الحياة وتجلياتها الثقافية إلا وتركت فيه أثرًا، على مستوى اللغة تجد مئات من المفردات انتقلت من العربية إلى الإيطالية والعكس، فقد دخلت كلمات مثل: سكر وكحول ومخزن وصفر وتعريفة وغيرها كثير إلى اللّغة الإيطاليّة، وكلمات حديثة مثل صالة وماكينة وفاتورة، وفي العاميات العربيّة نجد بندورة، وفالصو، وبلكونة، وجمبري، وأنتيكا، وبانيو وغيرها كثير.

على مستوى الآداب كان هناك كثير من التأثير والتأثر بين الثقافتين، فأثر المعري في أعظم أدباء الإيطالية دانتي لا يجحده اليوم أحد، بل إن الشعر العذري العربي -كما تؤكد كثير من الدراسات- هو الأب الشرعي لشعر التروبادور الذي غير الآداب الأوروبية وأسهم في انتقالها للعصر الحديث، كما كان للثقافة اللاتينية أثرها الكبير على الآداب العربية مع حركة الترجمة النشطة في العصر العباسي التي نقلت علوم المنطق والفلسفة وكان الجدل حولها من أسباب ازدهار علوم العربية لا سيما النحو.

> **لا توجد مؤسّسة علميّة أو ثقافيّة خارج العالم العربي بذلت من مصادرها الماديّة والمعنويّة والعلميّة ما تبذله الجامعة الكاثوليكيّة لخلق فضاء للثّقافة العربيّة داخل الجامعة وخارجها.**

هل ينتمي جميع طلبتكم في قسم الدراسات العربيّة إلى خلفية ثقافية واحدة، وكيف تسهم اللّغة العربيّة اليوم في الحوار الثقافي العالمي لا سيّما في المؤسسات العلميّة الكبرى مثل جامعتكم؟

لا تخلو إجابة هذا السؤال من تعقيد، فالعالم الذي نعيش -بسبب التطورات التقنية والديموجرافية- لم تعد الحدود فيه واضحة، فلا يمكنني مثلاً أن أقول إن طلابي من خلفيات ثقافية مختلفة، يجب القول إن طلابي إيطاليون تنحدر نسبة معتبرة منهم من أصول شرق أوسطية وأسيوية، وأفريقية، ولاتينية، في النهاية وكما يقول الكاتب الإيطالي كارلو إميليو جادا «في ميلانو كل شيء موجود .. ميلانو هي خزانة كل احتمالات المستقبل، حيث يمكن لكل فكرة أن تصبح صناعة أو تجارة»!

لا شك أن هذا السياق الذي أسهبتُ في وصفه يؤثر على تدريس اللغة العربية، ليس فقط في مواجهة الصعوبات الصوتية والثقافية التي تتعدد بتعدد الطلاب في قاعة الدرس وإنما بسبب الصعوبات النفسية والحواجز اللامرئية التي لا شك أنّ







تعلم العربية هو أحد معاول هدمها.

كيف تصف تجربتكم في تدريس اللّغة العربيّة وآدابها في جامعة القلب المقدّس الكاثوليكيّة بميلانو؟ وما أبرز المميزات والمشجّعات التي تتصف بها البيئة التعليميّة لديكم في الجامعة؟

هي تجربة رائعة بكل المقاييس، أولاً بسبب المكان، فالجامعة تمتلك هوية ثقافية تحررت من كل معوقات الانسجام الثقافي التي حاولت شرحها في الإجابة على السؤال السابق، كما تحتضن الجامعة تنوعًا ثقافيًا حقيقيًا داخلها، لا تتسامح معه، فالتسامح تهني تحمل عبء قبول الآخر المختلف عنا، ولكنها تحتفل بهذا التنوع وتعطي له المساحة الكاملة ليتفاعل مع بيئتها ويزهر ويثمر فيها.

وفي الواقع لا توجد مؤسسة علمية أو ثقافية خارج العالم العربي بذلت من مصادرها المادية والمعنوية والعلمية ما تبذله الجامعة الكاثوليكية لخلق فضاء للثقافة العربية داخل الجامعة وخارجها لتؤكد الجامعة على دورها كطرف فاعل في محيطها المديني وعلى إسهامها كمؤسسة للعلم والتعليم في مواجهة قضايا الواقع وتحدياته من خلال تقديم حقائق العلم وقيم الحضارة على دواعي الانغلاق على الذات والخوف من الآخر. وأول حقائق العلم والثقافة هو أن التاريخ الإنساني لم يعرف ثقافة أو حضارة استمرت في الحياة والعطاء منعزلة عن محيطها، فتاريخ الحضارات هو تاريخ التلاقح والتمازج بين الثقافات. السبب الثاني زماني، فقد تزامن مع بدئي العمل في الجامعة اهتمام غربي كبير بالعالم العربي، وخطوات جادة للانفتاح عليه.

السبب الثالث والأخير هو طبيعة الشعب الإيطالي الذي تحركّه الرغبة في الاكتشاف والفضول إلى المعرفة ومحبة الجمال مما يجعل أبناءه ينهلون دون ارتواء مما تزخر به ثقافتنا وتراثها من جماليات.





ما المناهج والأساليب التعليميّة التي تتّبعونها في تدريس اللّغة العربيّة للطّلبة الأجانب؟ وكيف تسهم هذه الأساليب في تحفيز الطّلاب على التّعلم؟

نوظف كل المناهج ولا نتبع أي منهج، فالمعلمون قبل دخول قاعات الدرس يتدربون على كل مناهج تدريس العربية قديمها وحديثها مثل منهج «القواعد والترجمة» والذي ينطلق من أن اللّغة أساساً نظام من القواعد التي يمكن استقراؤها من النّصوص اللغويّة وأن تعليم اللّغة نشاط ذهني يشتمل على تعلم القاعدة وتذكرها وربطها بما لدى الطالب من خبرة في لغته الأولى وذلك عن طريق الترجمة. كما يعتبر هذا المنهج أن اللغة الأولى للدارس هي النظام المرجعي في اكتساب مهارات اللغة الثانية. فيكون الطالب كمن أراد أن يرى الآخرين فنظر في المرآة. ومن مزايا هذه الطريقة أنها تناسب الفصول الدراسية المزدحمة بالطلاب، وأنها تصلح لدارسي اللّغة الذين يريدون معرفة المزيد عن اللغة وليس تعلم



اللغة من أجل التواصل. أما عيوبها فهي إغفال مهارات اللغة الأخرى كالتحدث والاستماع. وأنها تقصر وظيفة اللغة على مهارتي القراءة والكتابة مما يجعل الطالب فاقدًا للقدرة على التواصل، وهو ما يجعلها في حالة خصام مستمر مع الثقافة الإنسانية المعاصرة.

وهناك المنهج المباشر الذي يمنع منعًا باتًا استخدام اللغة الأم في صفوف الدراسة، فمتعلم اللغة يمكن أن يتعلم منذ البداية التفكير بوساطة اللغة الهدف (الأجنبية) عن طريق ربط الموضوعات والأشياء والمواقف والأفكار ربطاً مباشراً بما يطابقها أو يماثلها من الكلمات أو المصطلحات، فالطالب يستطيع أن يتعلم أي لغة أجنبية بنفس الطريقة التي يتعلم بها الطفل لغته الأولى. لهذا المنهج مزاياه مثل تقديم اللغة في مواقف حية يستطيع الدارس من خلالها فهم المفردات والتراكيب، وقد أدى رفضه استخدام أي لغة وسيطة في صفوف برامج اللغة إلى تعزيز عملية تعلم اللغة وتقليل آثار ما يسمى بالتداخل اللغوي. ومن عيوبه أنه يجعل الدارس يميل إلى تنمية طلاقته اللغوية دون دقة، وهو ما يجعله يتميز بالارتجالية.

هناك منهج القراءة الذي يرى أن إتقان المتعلم القراءة وفهم ما تحتويه النصوص المقروءة، يُعدان أفضل الوسائل لإتقان بقية مهارات اللغة كالكلام والاستماع والكتابة. لذلك يجب أن تكرس جهود المدرس للمهارة التي يحتاج إليها الطالب والتي يمكن أن يتعلمها بسهولة في حدود بيئته المكانية.

أما المنهج السمعي الشفهي فهو





يتعامل مع اللغة على أنها مهارة تُنْطق والمظهر الكتابي للغة ليس إلا مظهرًا ثانويًا، فاللغة هي ما يمارسه الناطقون باللغة حقيقة، وليس ما ينبغي أن يكون (مثاليًا)، من مزايا هذا المنهج، اهتمامُه بالجانب الاتصالي في اللغة، واهتمامه بثقافات اللغات المستهدفة من خلال تقديم ملامح هذه الثقافات سواء عبر الأفلام أو النصوص المسموعة والمرئية، ومن عيوبه أنه لا يُلبي حاجة كل الدارسين بسبب فصله التام بين مهارات اللغة –الذي ليس له أصل في الواقع– إذ يُعيقُ تأخير مهارَتَي القراءة والكتابة فهمَ الطلّاب لما يسمَعون.

والمنهج الاتصالي الذي يسعى إلى تحقيق الكفاية الاتصالية، وهذه الكفاية تشمل المعرفة بأصول الكلام وأساليبه، ومراعاة طبيعة المخاطبين، مع القدرة على تنويع الــكلام حسب مقتضى الحال، بالإضافة إلى المعرفة بقواعد اللغة ومفرداتها. فهذه الكفاية إذن تعني المعرفة بقواعد اللغة وقوانينها النحوية والصرفية والصوتية، مع القدرة على استعمالها بطريقة صحيحة لغويا مقبولة اجتماعياً. يعتمد المنهج الذي اتبعناه على دراسة نقدية قمنا بها لنظريات تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها من أجل دمج عناصر القوة من كل نظرية في بناء جديد منسجم يجمع بين أصالة المادة التعليمية العربية وعدم اختزال ما يمنح اللغة هويتها وخصوصيتها، وانسيابية ومرونة المنهج التواصلي الذي يركز على الواقع المعيش للغة وينفر من التنظير والتجريد، وقد قمت في سبيل ذلك مثلاً بتوظيف بعض مبادئ علم العروض لتيسير القراءة على الطلاب ورفع حساسيتهم بموسيقيتها وإيقاعها. وقد نجح هذا المنهج في الوصول بالطلاب إلى المستوى المتقدم في 120 ساعة تدريس، كما نجح في تقليل تسرب الطلاب إلى أقل من 10٪ بعد أن كان يصل إلى 60٪، وقد زاد بشكل ملحوظ عدد الطلاب في جامعتنا ووصل قبل جائحة كورونا إلى أكثر من 500 طالب.

نوظّف كلّ المناهج ولا نتّبع أي منهج، فالمعلمون قبل دخول قاعات الدّرس يتدرّبون على كلّ مناهج تدريس العربيّة قديمها وحديثها.



كيف توازنون بين تدريس القواعد اللغويّة وتقديم الجوانب الثقافيّة للّغة العربيّة في مناهجكم الدراسيّة؟

نحن لا نقدم القواعد اللغوية للطلاب إلا من خلال مادة ثقافية، بل إننا نبذل كل جهدنا لشرح القواعد العربية بمنطق ثقافي عربي خالص، أذكر أن أحد الكتب الشهيرة في تعليم العربية في شرحه للجملة الاسمية استخدم هذا المثال: اللغة العربية جميلة. ثم قام بتحليل المثال للطلاب مقدمًا «اللغة العربية» بوصفها مبتدأ خبره جميلة، اتساقًا مع منطق لغة الطلاب الأصلية، ولكننا رأينا أن هذه الطريقة على سهولتها في توصيل المعنى تخرج طلابًا يتحدثون لغاتهم الأصلية بأصوات عربية عاجزين تمامًا عن تذوق جماليات اللغة العربية النابعة من المنطق العربي في البناء والتركيب. لذلك نحرم تحريمًا كاملاً ترجمة مصطلحات النحو العربي

إلى مقابلاتها في اللغات الأخرى، إذ لا يوجد في رأيي لمفهوم «المبتدأ» العربي نظير في اللغات الأخرى، لذلك نحن لا نبسط أبدًا القواعد اللغوية وهي في كتبنا وفي قاعات الدرس نفسها في كتب النحويين القدامى، وإنما نبتكر قدر المستطاع في وسائل وآليات الشرح ونبحث عنها أولاً داخل الثقافة العربية، فعند تدريس الأصوات نصف مخارجها ونرسم مكان المخرج ونسجل الأصوات التي توضحها بجلاء فلا تختلط بغيرها، وعند تدريس القراءة نوظف علم العروض دون تدريسه بالطبع ولكن نأخذ منه طريقته في تقسيم الكلام فيتعلم الطلاب القراءة ويكتسبون إيقاع اللغة في الوقت نفسه، أما النحو فنحن نحيله إلى أشكال هندسية ومعادلات رياضية تحرر الطالب من إكراهات فهمه عبر لغته الأم.

هل ثمّة برامج أو أنشطة خارج المنهج تساعد الطلاب على تحسين مهاراتهم في اللّغة العربيّة؟ وكيف تسهم هذه البرامج في تعزيز تجربة التّعلم والانغماس اللغويّ؟

هناك كثير من الأنشطة التطوعية التي يقوم بها طلابنا لمساعدة المهاجرين الذين لا يعرفون اللغة الإيطالية والمجتمع الإيطالي وهناك يمارسون ما يتعلمونه في قاعات الدرس في الواقع العملي، هذا إلى جانب ورش تنظم بانتظام للخط العربي والكتابة النوعية، إلى جانب برنامج للقراءة يقرأ فيه الطلاب كتابًا عربيًا كاملاً كل فصل دراسي، ولعل أكثر ما أشاد به هؤلاء الأساتذة والمبدعون الكبار الذين تكرموا بالكتابة عن أنشطتنا في الصحف العربية كان تفاعل الطلاب معهم ومناقشتهم لهم. بالطبع هناك معايير تحكم هذه الأنشطة تتمحور حول توفير سياق عربي لدراسة اللغة في بيئة غربية، مواجهة الأحكام المسبقة من خلال منح اللغة وجه إنساني من خلال حضور المبدعين المستمر، فلا يجب دراسة اللغة وكأنها نظام مجرد للتواصل خارج السياق، أما الهدف الأساسي من كل هذا فهو ترسيخ المبدأ الذي كتبت عنه كثيرًا في الصحف الإيطالية، وهو أن التعددية في فضاء المجتمع الإيطالي غير ممكنة دون إدراك التعددية في فضاء الذات والهوية الإيطالية، لذلك من المعايير التي نحرص عليها أن تكون المادة والموضوعات التي نقدمها لطلابنا قادرة على إثارة انتباههم للمكوّن العربي في الحضارة الغربية، وعلى ترسيخ فكرة الحضارة الإنسانية الواحدة ذات المسارب المتعددة.



> **هناك كثير من الأنشطة التّطوعيّة التي يقوم بها طلابنا لمساعدة المهاجرين الذين لا يعرفون اللّغة الإيطاليّة والمجتمع الإيطالي وهناك يمارسون ما يتعلّمونه في قاعات الدّرس في الواقع العمليّ**

كيف تسهم برامج التّبادل الثقافي بين جامعة القلب المقدّس الكاثوليكية والجامعات العربيّة في تحسين مستوى تعليم اللّغة العربيّة وتعلّمها؟

برامج التبادل الثقافي لها دور حاسم لمن يتعلمون العربية في بيئة أجنبية، ولقد حرصنا دائمًا على بناء جسور متينة مع مؤسسات العالم العربي التعليمية والثقافية، مثل جامعة القاهرة التي تستضيف طلابنا للتدريب على الدّراسة والحياة في بيئة عربيّة، وكذلك مكتبة الإسكندرية التي استضافت في فعالياتها عددًا من أساتذة الجامعة وفتحت الباب لطلابنا للمشاركة في أنشطتها، ودار المتوسط للنشر التي دخلت معنا في مشروع مهم جدًا لنشر ترجمات طلاب الماجستير والدكتوراه الجيدة للأدب العربي، وهو أمر نحن في أمس الحاجة إليه لتوسيع المساحة التي يشغلها الأدب العربي في اللغات الأوروبية. والآن هناك تعاون كبير مع الجامعة الأمريكية في القاهرة التي تقدم منحًا دراسية للمتفوقين من طلابنا، وهناك مشروعات للتعاون مع هيئات عدة، فبين الجامعة الكاثوليكية وهيئة الشارقة للكتاب ومجمع اللغة العربية بالشارقة شراكة وصداقة متينة.

هل ثمّة إنتاج معرفيّ باللّغة العربيّة للمستعربين الإيطاليين سواءً في جامعتكم الموقّرة أو غيرها من المؤسسات العلميّة؟ وما أهم الفروع والمجالات التي تجد رواجًا لدى المثقفين المستعربين في جامعة القلب المقدّس وفي إيطاليا عمومًا؟



هناك ظاهرة حميدة في الفترة الأخير في الإنتاج العلمي للمستعربين الإيطاليين وهو إصدار الموسوعات التي تتناول الأدب العربي القديم والمعاصر وأُشيرُ هنا إلى مثالين الأول موسوعة القصة العربية التي أصدرتها المستعربة الكبيرة إيزابيلا كاميرا دافليتو وترجع أهمية هذه الموسوعة إلى أنها تمد جسراً للقصة القصيرة تعبره لأول مرة إلى لغة أوروبية كفن ناضج، مكتمل، له جذور وتاريخ ممتد يتجاوز قرنًا من الزمان، وليس مجرد شذرات محكومة بإطار يضيق أو يتسع لموضوعات اجتماعية أو سياسية تشغل الغرب أو تلهب خيالاته عن الشرق، فالأنطولوجيا تقدّم بانوراما للقصة القصيرة العربية على مستوى الأسلوب الفني والجيل الأدبي ولا تهمل خصوصية البلد العربي الذي يأتي منه الكاتب، فالعالم العربي كما تؤكد دائمًا المؤلفة ليس كتلة مصمتة واحدة وإنما إطار واسع تتناغم داخله الألوان المتعددة لموازيك ثقافي وعرقي وديني، وهو ما جعلها تقسم الأنطولوجيا التي تحتوي على 35 قصة قصيرة حسب التيمة وليس حسب الأجيال، فقد وضعت معا في قسم واحد كُتابا يختلفون تماما من حيث الجيل والجنسية وأسلوب الكتابة، فهي تريد أن تحتوي كل تيمة داخلها ذلك الموازييك وتلك التعددية التي تميز العالم العربي فتختار "قصص تقدم نفس الموضوع بعيون مختلفة، حيث تتجاور الاختلافات والتماثلات" وهي تقوم بذلك لأنهم في الغرب يتحدثون عن العالم العربي كما لو أنه شيءٌ واحدٌ دون اختلافات داخله، وهو ما يجعل من السهل صبه في قالب صورة نمطية، ويمكن مواجهة هذا فقط بمعرفة التعددية الجغرافية والتاريخية والثقافية التي تشكل هذا الموزاييك الضخم من الثقافات والعرقيات داخل العالم العربي.

والمثال الثاني هو موسوعة الشعر العربي للمستعربة فرانشيسكا كراو وهي موسوعة ذات طبيعة بانورامية للشعر العربي منذ العصر الجاهلي وحتى نهاية القرن العشرين، لم تتوقف فيه عند تقديم

تاريخ الشعر العربي وبعض نماذجه المبهرة فقط بل تجاوزت ذلك إلى البحث في تأثيره في الشعر الأوروبي. الكتاب، كما تقول الكاتبة نفسها في الخاتمة، هو «نظرة عامة سريعة على المؤلفات الشعرية ومؤلفيها» والتي، على الرغم من عموميتها، «تُظهر مدى خصوبة وتنوع الإنتاج الشعري العربي في الماضي، كما تظهر أنه ما زال كذلك في الحاضر». الهدف الأول من هذه النظرة العامة والشاملة بامتداد تاريخ الشعر العربي هو مشاركة القارئ الإيطالي دهشة الكاتبة، منذ أن كانت لا تزال في بداية دراستها وهي تحاول تعميق معرفتها بالشعر العربي بلغته الأصلية. وتقول: "لقد اكتشفت إنتاجًا هائلاً ومتنوعًا قادمًا من مساحة جغرافية شاسعة على مدى خمسة عشر قرنًا «حيث التقت وجهًا لوجه، وليس من خلف حجاب الترجمة بقصائد ذات جمال استثنائي "تخاطب قلب البشرية ولا يزيدها مرور الزمن إلا انفتاحًا وعطاءً.»

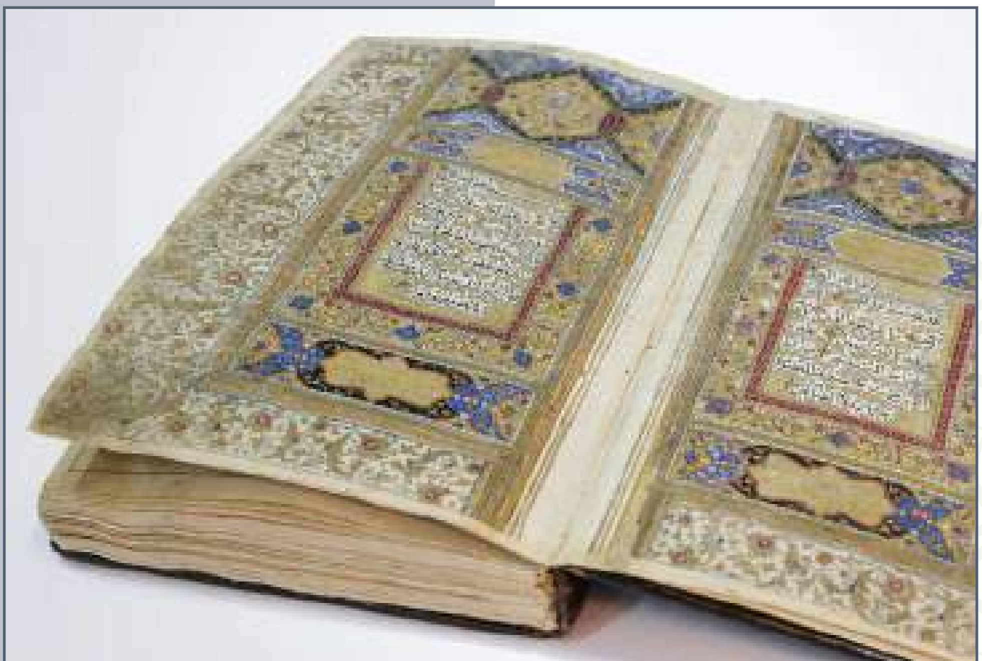
أما الفروع الأخرى في مجال الدراسات العربية كالدراسات النحوية واللغوية فمعظم ما صدر مؤخرًا فيما أعرف ذو طابع مدرسي، ينتسب إلى العلم عبر شكله الخارجي وبنيته التقنية دون أي إبداع أو ابتكار أو تفاعل مع واقع العربية الراهن.

من خلال تجربتكم دكتور وائل، كيف تصف واقع تعليم اللّغة العربيّة اليوم في الجامعات الأوروبيّة وخاصّة في إيطاليا، وكيف ترى مستقبلها؟ وهل تعتقد أن ثمة توجهًا متزايدًا نحو الاهتمام باللّغة العربيّة؟



إذا قارنا واقع تعليم اللغة العربية اليوم بالماضي سنجد أنه أفضل بما لا يقاس، فقد زاد عدد الأقسام التي تفتح برامج لتدريس اللغة العربية؛ فلا توجد جامعة إيطالية كبيرة اليوم لا توفر لطلابها إمكانية تعلم اللغة العربية، على الرغم من أن تخصيص أقسام للغة العربية وثقافتها وآدابها ما زال قاصرًا على عدد قليل من جامعات المدن الكبرى مثل نابولي، وروما، وميلانو، وفينيسيا. أما إذا نظرنا إلى هذا الواقع من ناحية الجودة فسنجد الغالبية الساحقة من هذه الجامعات تتبنى مناهج تقليدية في تدريس اللغة العربية حيث لا تفرق بين تدريس العربية لأبنائها وتدريسها لغير الناطقين بها فتكرس بذلك الصورة النمطية الزائفة عن صعوبة اللغة العربية واستحالة تعلمها. وهو ما يؤدي إلى انصراف عدد كبير من الطلاب بعد فترة وجيزة عن دراسة العربية، كما يؤدي إلى ضعف مستوى من يُنهون البرنامج الدراسي، أو عجزهم عن التواصل على مستوى الحياة اليومية بينما يمكنهم إلقاء ما حفظوه عن ظهر قلب من المعلقات بسهولة ويسر.

> **"إذا قارنا واقع تعليم اللّغة العربيّة اليوم بالماضي سنجد أنه أفضل بما لا يقاس، فقد زاد عدد الأقسام التي تفتح برامج لتدريس اللغة العربيّة؛ فلا توجد جامعة إيطالية كبيرة اليوم لا توفر لطلابها إمكانيّة تعلّم اللّغة العربيّة**



نظراتٌ في البيانِ القرآنيّ

- ظَاهِـرَةُ وَفْرَةِ المصَادِرِ الميميّةِ في سُورةِ البَلَدِ

- المصطلحاتُ الشّرعيّةُ بين الدّلالاتِ اللُّغويّةِ والدّلالاتِ الاصْـطلاحيّـــةِ: اتّفاقًــا وافتــراقًا

- الأصوات والمعاني – نحو نظريّة في نجاعة الاستعمال الصّوتيّ في القرآن الكريم

ظَاهِـرَةُ وَفْــرَةِ المصَــادِرِ الـميميّةِ في سُورةِ البَلَدِ



أ.د جهاد محمد النصيرات
أستاذ التفسير وعلوم القرآن-
الجامعة الأردنية

تعريفُ المصدَرِ الميميِّ:

(المصْدَرُ الميميُّ) مُركّبٌ وصْفيٌّ، وهو نوعٌ من أنواعِ المصادرِ عندَ النُّحاةِ واللُّغويّين، واصطلحَ اللُّغويّون على تعريفِ المصدرِ عُمومًا بقولهم: هو اسمٌ دلَّ على حدثٍ لا غير، غير مقترنٍ بزمانٍ(1)، وعليه فهُمْ يُعرّفون المصدَرَ الميميَّ بقولهم: هو مصدرٌ في أوّله ميمٌ زائدةٌ على الأصلِ(2)، ويتّضحُ من هذا التّعريفِ عدمُ تفريقِ العلماءِ السّابقين بين دلالةِ المصدرِ العاديّ أوِ الصّريحِ، وبين دلالةِ المصدرِ الميميِّ، فكِلاهما يَشتركان في الدّلالةِ على حدثٍ غيرِ مقترنٍ بزمانٍ محدّدٍ. ويُصاغُ المصدرُ الميميُّ منَ الفعلِ الثّلاثيِّ وغيرِ الثلاثيّ على أوزانٍ قياسيّةٍ، فمنَ الفعلِ الثّلاثيِّ يأتي على أوزانِ (مَفْعَل ومَفْعَلة) مثل: مبْلَغ ومسْغَبَة، و(مَفْعِل ومَفْعِلة) مثل: مَرجِع ومَعصِية، و(مَفْعُلة) مثل: مَثُوبة، و(مِفعال) مثل: ميعاد.

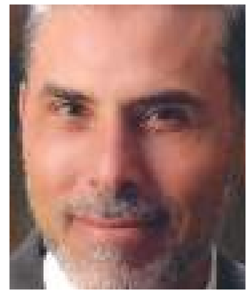
ويأتي من غيرِ الفعلِ الثّلاثيّ على وزنِ اسمِ المفعول، وله عدّةُ أبنيةٍ، منها (مُفْعَلْ) مثل: مُدْخَل، و(مُسْتَفْعَل) مثل: مُستقر ومُستودع، و(مُفَعَّل) مثل: مُمزَّق، و(مُنْفَعَل) مثل: مُنقلب، و(مُفْتَعَل) مثل: مُزْدَجَر، و(مُتَفَعّل) مثل: مُتَقَلَّب، و(مُفْعَلَة) مثل: مُقامة.

ويشتركُ المصدرُ الميميُّ مع بعضِ الأبنيةِ الصّرفيّةِ الأخرى كاسمَي الزّمانِ والمكانِ، واسمِ المفعول، واسمِ الآلة، وصيغةِ المبالغة (مفعال)، فاللّغةُ العربيّةُ تتميّزُ بوفرةٍ غزيرةٍ في صِيغِها الصّرفيّة، ويرافقُ هذه الوفرةَ تداخلٌ شديدٌ في الدّلالةِ، وإنّ الصّيغةَ الواحدةَ قد تكونُ مشتركةً شكلًا بين أكثرَ من صيغةٍ صرفيّةٍ، وفي هذا الحالِ يكونُ الأمرُ متروكًا للسّياقِ في تحديدِ الفرقِ بين معاني هذه الصّيغِ، أي الذي يفصلُ في تحديدِ المرادِ منها هو السّياقُ وما يتبعُه من قرائنَ(3).

دلالاتُ المصدرِ الميميِّ:

باستقراءِ أقوالِ علماءِ اللّغةِ حول دلالةِ المصدرِ الميميِّ، يتّضحُ أنّ المتقدّمين منهم لا يَرون فرقًا بين المصدَرِ الميميِّ والمصدرِ الصّريحِ من جهةِ الدّلالةِ، لذا لم يُفردوه في أبوابٍ مستقلّةٍ في مؤلّفاتهم، فسِيبويه مثلًا لا يرى هناك فرقًا بينهما، حيث يقول: "فإذا أردت المصدرَ بَنَيْتَه على مفعلٍ، وذلك قولك: إنّ في ألف درهم لمضربًا؛ أي لضَربًا، قال الله عز وجل: {يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾} [القيامة: 10] يريد: أين الفرارُ، فإذا أراد المكانَ قال: المفرّ، كما قالوا: المبيتُ حين أرادوا المكانَ؛ لأنّها من بات يبيتُ، وقال الله عز وجل: {وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا} [النبأ: 11]، أي: جعلناه عيشاً(4).

بينما نرى محاولاتٍ لبعضِ المتأخّرين منَ المعاصرين في تقعيدِ فروقٍ دقيقةٍ بين المصدرِ الميميِّ وغيرِه منَ المصادر، ومن ذلك عبّاسُ حسن حيث بيّن أنّ أبنيةَ المصدرِ الميميِّ تؤدّي ما يؤدّيه هذا المصدرُ الأصليُّ على المعنى المجرّدِ ومنَ العمل، لكنّها تفوقُه في قوّة الدّلالة وتأكيدِها (5)، وبيّن فاضلُ السّامرائي بأنّ المصدرَ الميميَّ يحملُ عنصرَ الذّات، ويحملُ معنًى لا يحملُه غيرُه منَ المصادر؛ فقال: «إنّ المصدرَ الميميَّ في الغالب



أ.د. إسماعيل عمايرة



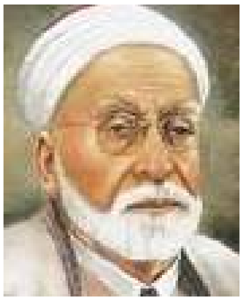
أ.د. فاضل السامرائي



عباس حسن



الشيخ محمد أبو زهرة



الإمام ابن عاشور

يحملُ عنصرَ الذّات بخلاف غيرِ الميميّ فإنّه مجرّدٌ من كلّ شيءٍ، فقوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ } [الحج: 48] لا يُطابقُ إليَّ الصيرورة، فإنّ المصيرَ يحمل معه عنصرًا ماديًّا، وإنّ كلمةَ المنقلبِ في قوله تعالى: {وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} [الشعراء: 227] لا تُطابقُ الانقلابَ في المعنى، فالانقلابُ حدثٌ مجرّدٌ، والمنقلبُ يحملُ عـه ذاتًا، والمساقُ في قوله تعالى:{إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ} [القيامة: 30] يختلفُ عن قولنا: إليه السّوقُ، فإنّ المساقَ معه ذاتٌ تساق بخلاف السّوقِ الذي يدلّ على فعل السّوق مجرّدًا، وكذلك المحيى والحياة، والموتُ والمماتُ والنّومُ والمنامُ، فالمصدرُ غيرُ الميميّ غيرُ ملتبسٍ بشيء آخرَ، أمّا المصدرُ الميميُّ فإنّه متلبسٌ بذات في الغالبِ(6).

ويُضيفُ فرقًا آخرَ بقوله: "فإنّ المصير مثلاً يعني نهاية الأمرِ بخلاف الصّيرورةِ، قال تعالى:{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ} [الحج: ﴿٤٨﴾]، وقال تعالى: {قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ} [إبراهيم: 30] أي مُنتهى أمرِكم، وتقولُ: مصيرُ الخشب رمادٌ، أي نهايةُ أمره، ولا تقول: صيرورةُ الخشب رمادٌ للمعنى نفسِه»(7)، ثمّ يضيفُ فرقًا ثالثًا وهو في قلّة استعمالِ العربِ للمصدر الميميِّ: فالعربُ لا تتوسّعُ في استعمالِ المصادرِ الميميّةِ ما تتوسّعُه في المصادر الأخرى، فإنّها – أي العرب- لا تُوقعُ المصدرَ الميميَّ حالاً في الغالبِ، فهي تقول: جاء سعيًا ولا تقولُ جاء مسعى، وتقولُ: جاء طوعًا، ولا تقول جاء مُطاعًا، فإنّها تفرّقُ بينها في الاستعمال(8).

ومنَ المعاصرين أيضًا الذين بيّنوا دقّةَ دلالةِ

المصدرَ الميميَّ بقولهم: هو مصدرٌ في أوّله ميمٌ زائدةٌ على الأصلِ، ويتّضحُ من هذا التّعريفِ عدمُ تفريقِ العلماءِ السّابقين بين دلالةِ المصدرِ العاديّ أوِ الصّريحِ

(المصْدَرُ الميميُّ) مُركّبٌ وصْفيٌّ، وهو نوعٌ من أنواعِ المصادرِ عندَ النُّحاةِ واللُّغويّين

المصدرِ الميميِّ في تفاسيرِهم وبلاغةِ القرآن في استعمالِه، أبو زهرةَ في معرض تفسيرِه لقوله تعالى: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ} [البقرة: 207] فقال: «ومرضاة مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الرّضا، ولا شكّ أنّ التّعبيرَ بالمصدرِ الميميِّ دون المصدرِ الأصليّ له معنى يُدركُه السّامع بذوْقِه، ولم نجدِ النّحويّين ولا البلاغيّين تعرّضُوا لبيان التّفرقةِ بين المصدرِ الميميِّ وغيرِه، والذي يتبدّى لنا ونظنُّه تفرقةً بينهما، أنّ المصدرَ الميميَّ يصوّرُ المعنَى المصدريَّ واقعًا قائمًا متحقّقًا في الوجود، أمّا المصدرُ غيرُ الميميِّ فيصوّرُ المعنى مجرّدًا، فإذا كانت كلمةُ مقال بمعنى القولِ، فإنّ التّعبيرَ بالقول يصوّرُ معنًى مجرّدًا من غير نظرٍ إلى كونه تحقّقَ وجودُه أو لا، أمّا كلمةُ مقالٍ فتصوّرُ معنًى وُجدَ وتحقّقَ، أو في صورة الموجودِ المتحقّقِ، وعلى ذلك معنى {ابتغاء مرضاة الله} أنّهم يبيعون أنفسَهم طالبين طلبًا مُوثقًا رضا الله –سبحانه– حقيقةً واقعةً مؤكّدةً، ويتصوّرون رضاه –سبحانه– حقيقةً قائمةً قد حلّت بهم، فيشتدُّ طلبُهم وافتداؤهم للحقّ بأموالهم وأنفسِهم».(9)

وهذا المعنى يذكرُه ابنُ عاشور حيث يقول: «المصدرُ الميميُّ أبلغُ من جهة زيادةِ المعنى»(10)

وفي التّمييز بين المصادر كزيادة الميمِ في المصدر الميميِّ لغايةِ تعميقِ المعنى يقول إسماعيل عمايرة: «إنّ تعدّدَ أشكالِ المصادرِ بالحركات والحروف، يرجعُ إلى أنّ اللّغةَ استثمرت أشكالَ المصادرِ المتنوّعةِ لتوظيفِها معنويًا، والأمرُ متروكٌ للسّياق في تحديد الفرق بينها، بمعنى أنّ المصدرَ قدِ اكتسبَ خصوصيّاتٍ معيّنةً تتجاوزُ مجرّدَ الدّلالةِ على الحدث(11)

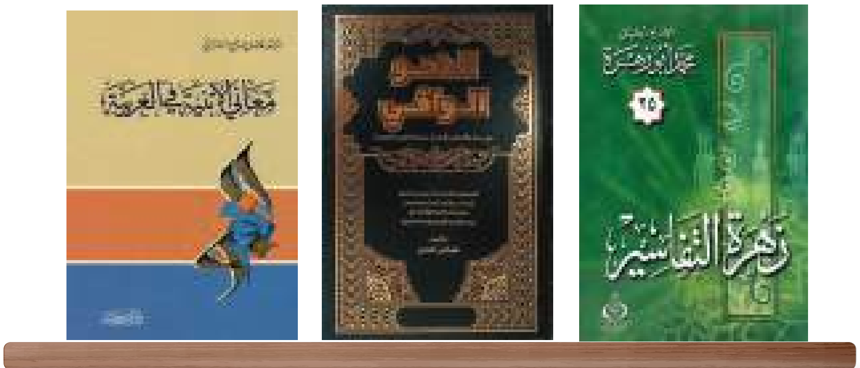
يتّضحُ في نهاية هذا الأمرِ أنّ المصدرّ الميميَّ له دلالةٌ أشملُ وأوسعُ من كونِها دلالةً على الحدثِ فقط، وهذه الدّلالةُ لا يمكنُ تحديدُها وبيانُها بعيدًا عنِ السّياق.

التّناسب البنائيّ لسورة البلد:

سورةُ البلد سورةٌ مكّيّةٌ جاءت في الجزءِ الأخيرِ من أجزاء القرآنِ الكريم، وهناك مجموعةٌ منَ السّورِ المكّيّةِ المحيطةِ بسورة البلدِ سِباقًا ولحاقًا، وغالبُ هذا القسمِ كان يدورُ حول الآياتِ الكونيّةِ، وتأتي السّورةُ بعد سورةِ الفجر، وقبلَ سورةِ الشّمس، فسورةُ البلد واقعةٌ بين أطولِ سورتَين من حيث القسمُ؛ سورةُ الفجر وهي ثاني أطولِ سورةٍ من حيث القسمُ، أقسم سبحانه وتعالى فيها بخمسة أحوال:{ وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤}، وسورة الشّمس، وفيها أطولُ قسمٍ في

سورةُ البلد سورةٌ مكّيّةٌ جاءت في الجزءِ الأخيرِ من أجزاء القرآنِ الكريم، وهناك مجموعةٌ منَ السّورِ المكّيّةِ المحيطةِ بسورة البلدِ سِباقًا ولحاقًا، وغالبُ هذا القسمِ كان يدورُ حول الآياتِ الكونيّةِ





القرآن الكريم، إذ أقسم الله - عزّ وجلّ - فيها بسبعة أحوال، {وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾} فكانت سورةُ البلد واقعةً بين أشرفِ الأوقاتِ (الفجر)، وأشرفِ الآياتِ الكونيةِ (الشمس)، وكأنّ الله -عزّ وجلّ - أراد لهذا البلد أن يكون بين نُورَين؛ نورِ الفجر ونورِ الشّمس. فلا بدّ لهذا التّرتيب إذن من وشائجَ وثيقةٍ تربطُ هذه السّورة بسباقِها ولحاقِها.

فأمّا ارتباطُها بسورة الفجر، فهي تلتقي معها في عُقدٍ متينةٍ، إذ تلتقي معها ابتداءً بالقسم، حيث أقسمتِ الفجرُ بأشرفِ الأزمنةِ، وأقسمت سورةُ البلد بأشرفِ الأمكنةِ.

وتحدّثت سـورةُ الفجر عن طغيانِ بعض الأممِ السّابقةِ كعادٍ وثمودَ وقومِ فرعون، وتحدّثت عن بعض الأمراض الاجتماعيةِ المتجذّرةِ، والتي شاركتْها فيها سورةُ البلد، كطغيانِ الإنسان بأكل مالِ اليتيم، وإهمالِ المسكين وتركه، وحبِّ المال:{كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾}، ثمّ جاءت سورةُ البلد تُعرّضُ بطغيان أهلِ مكّة، الذين لم يعتبروا بسنّةِ الله في الطّاغين منَ الأقوامِ السّابقةِ، وتحثُّهم على فكِّ الرّقابِ وإطعامِ اليتامَى والمساكين، {فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾}.

ويُمكنُنا القولُ بأنّ سورةَ الفجر بيّنت أسبابَ الابتلاءِ والهلاكِ، وسورةَ البلد بيّنت طريقَ النّجاة منه، كما أنّه في سورةِ البلد حضٌّ على تجاوزِ العقبةِ، ولا يكون ذلك إلّا بتزكية النّفسِ الواردةِ في سورة الشّمس، {قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾} كما أنّ هناك صورةً متكاملةً للهداية بين السّورتَين؛ جُزؤها الأوّلُ في سورة البلدِ {وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴿١٠﴾}، حيث نسبَ الهدايةَ إليه -سبحانه وتعالى-؛ لأنّ الإنسان بقِصرِ نظرِه وقلّةِ حيلته، لا يمكنُ له معرفةُ كلِّ أوجهِ الخيرِ والشّرّ، وسورةُ الشّمس بيّنت أنّ الفجورَ والتّقوى تدركُه النّفسُ بإلهام من الله -سبحانه وتعالى- {فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴿٨﴾}، وهناك صورةٌ أخرى متكاملةٌ بين السّورتين، إذ توالتِ الآيـاتُ الكونيّةُ في سورة الشمس: {وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴿٣﴾....} في مقابل الآيـاتِ الأنفسيّةِ في خلقِ الإنسان في سورة البلد: {أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ

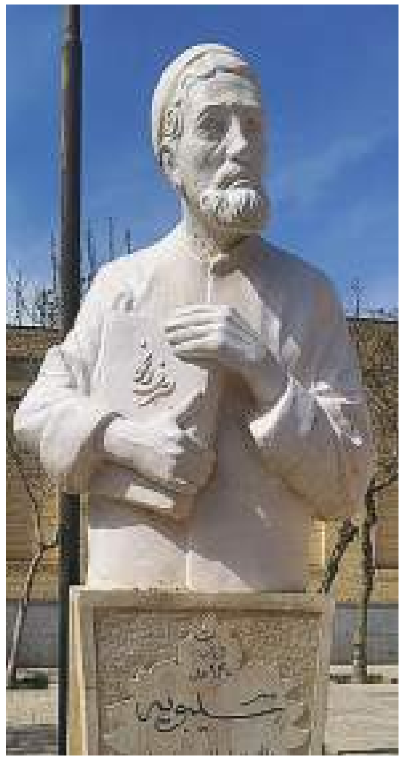
> **تحدّثت سـورةُ الفجر عن طغيانِ بعض الأممِ السّابقةِ كعادٍ وثمودَ وقومِ فرعون، وتحدّثت عن بعض الأمراض الاجتماعيةِ المتجذّرةِ، والتي شاركتْها فيها سورةُ البلد، كطغيانِ الإنسان بأكل مالِ اليتيم، وإهمالِ المسكين وتركِه، وحبِّ المال**

عَيۡنَيۡنِ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴿١٠﴾}، فكأنّ السّورتَين قطعتا عليه كلَّ عُذرٍ يمنعُه من تجاوزِ العقبةِ واقتحامِها، وبهذا يتبيّنُ أنّ سورةَ البلد جُزءٌ ملتحمٌ بسورتَي الفجرِ والشّمسِ.

المحورُ الذي قامت عليه سورةُ البلدِ:

تنقسمُ السّورةُ إلى أربعةِ مقاطعَ؛ المقطعُ الأوّلُ: مجموعةُ القَسَم، وبدأت بأسلوب نفْيِ القسمِ، حيث وردت صِيغةُ لا أقسمُ في ثمانيةِ سُورٍ مكّيّةٍ (12). وهو أسلوبٌ بليغٌ يُراد منه تحقيقُ غرضَين رئيسَين في الوقت ذاتِه، وهما: تأكيدُ حقائقَ غيبيّةٍ وإنسانيّةٍ كبرى. والثّاني: نفيُ تحقّقِ القسمِ للغرضِ المرادِ منه، بمعنى إثباتِ وجودِ موانعَ عند المنكرين لتلك الحقائق قد نصَّ عليها السّياقُ ليُنبّه على خطورتها، وليدفعَ بالمنكرين إلى معرفةِ سببِ بقائِهم في دائرةِ الإنكارِ.

وكذلك يلمحُ النّاظرُ في الآيات التي تبدأُ بصيغةِ «لاأقسم»، أنّها كانت بأشياءَ تحملُ النُّورَ في معانيها، سواء أكان نورًا حقيقيًا أم معنويًّا، إذ إنّ القرآن أقسمَ بمصادرِ النّورِ الحقيقيّ؛ كالنّجومِ والشّفقِ – وهو بقيّةُ حمرةِ الشّمس –، والدّلائلِ الكونيّةِ المبصرةِ بنورِ البصرِ، وقدِ اتّفق المفسّرون أنّ هذا القسمَ يُفيدُ معنَى التّعظيم، لكنّهم اختلفوا في تفسيرِه ووجهةِ تعظيمِه، وتشملُ إقسامَه سبحانه وتعالى بالبلديّةِ والوالديّةِ في هذه السّورة، وكِلاهما يجتمعان في التّعظيمِ والمشقّةِ على حدٍّ سواء، فحياةُ النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم في ذلك البلدِ كانت في مشقّةٍ وعناءٍ، ولكنّ وجودَه صلّى اللّه عليه وسلّم في ذلك البلدِ وبعثتَه فيه أعطتْه مكانتَه الخاصّةَ في قلوبِ المسلمين، وإنّ الوصولَ لذلك البلدِ منَ الزّائرِ والمحرمِ يخالطُه مشاعرُ مختلطةٌ منَ العناء والشّقاءِ


نُصب سيبويه

مع التّعظيمِ له، وكذلك أيضًا علاقةُ الوالديّةِ جميعُها قامت على الشّقاءِ والعناءِ رغم عظيمِ شأنها، وتعظيمِها في نفس الوالد والولدِ، وجاء جوابُ القسم مؤكّدًا ليعلنَ هذا بوضوحٍ في أنّ الإنسانَ خُلقَ وسطَ هذه الكبديّةِ والعناءِ.

ثمّ يليه المقطعُ الثّاني الذي بيّن فيه سبحانه حالَ هذا الإنسانِ الذي يجحدُ هذا كلَّه، ويغلقُ نوافذَ المعرفةِ التي وهبها اللّه تعالى له ليميزَ بين طريقَي الخير والشّرّ ويبدأُ بقوله :{أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴿٥﴾} إلى قوله: {وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴿١٠﴾} ويشكّل هذا المقطعُ شرحًا مفصّلاً لأسباب هذه الكبديّةِ.

ثمّ يليه المقطعُ الثّالثُ والذي بيّن فيه الحقُّ سبحانه وتعالى طرائقَ الخروج من هذه الكبديّةِ من خلال منظومةٍ متكاملةٍ منَ الاعتقاداتِ (الإيمان) والأقوالِ (التّواصي بالصّبر والمرحمة) والأعـمـالِ (الماليّة والأخلاقـيّـة والاجتماعيّة)، حيث بدأ هذا المقطعُ بقوله تعالى:{فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴿١١﴾} إلى قوله:{ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴿١٧﴾}.

ثمّ جاء المقطعُ الأخيرُ وهو مقطعُ الجزاءِ الذي عبّرَ فيه عن جزاءِ الفريقيْن الذيْن أفرزتْهم هذه الكبديّةُ، واعتصرتْهم هذه العقباتُ: أصحابُ الميمنةِ، الذين اجتازوا هذه العقباتِ على اختلاف صنوفِها، ولم تبيّنِ السّورةُ الكريمةُ مآلَهم، سوى أنِ اكتفتْ بوسْمِهم بأنّهم أصحابُ الميمنة؛ لكي تتركَ لخيال القارئ أن يتصوّرَ جزاءَهم، وأمّا الفريقُ الآخرُ وهم أصحابُ المشأمة، فقد بيّنتِ السّورةُ مصيرَهم، وأنّهم في نارٍ مُطبقةٍ عليهم.

ومن هنا فإنّه يمكنُ أن يُقال إنّ المحورَ الذي قامت عليه السّورةُ الكريمةُ يتلخّصُ في تناولِها لأسبابِ الشّقاءِ البشريّ، من تعطيلٍ لأدوات المعرفةِ والانتفاعِ، ولِتناولِها مظاهرَ هذا الشّقاء من اغترارِ الإنسان بنفسِه وظنِّه أنّ بمقدوره أن يفعل ما يريد، ولتناولِها آثارَ هذا الشّقاء عليه في آخرتِه ودنياه، ولِتناولِها علاجَ هذا الشّقاءِ من خلال الأعمالِ التي ذكرتْها السّورةُ الكريمةُ.

ارْتِبَاطُ المصَادِرِ الميميّةِ في السّورةِ الكريمةِ بمَحْورِها العامّ:

وردَ في السّورةِ الكريمةِ ستّةُ مصادرَ وهي (مسغبةٌ، مقربةٌ ، متربةٌ ، المرحمةُ ، الميمنةُ، المشأمةُ) وهي أكثرُ السّورِ احتواءً على هذا المصدر، ونلحظُ أنّ أربعةَ مصادرَ منها جاءت في الآياتِ التي تحثُّ على العمل والبذلِ لليتامَى والمساكين. ومصدرَيْن جاءا في الآياتِ التي تتحدّثُ عن جزاءِ المؤمنين والكافرين، والمصادرُ الميميّةُ الواردةُ في هذه السّورةِ تتعاضدُ معًا في الدّلالةِ على طريق النّجاةِ من هذا الكبدِ، وتجاوزِ العقبةِ التي تحولُ بينَه وبين النُّجاةِ.

أوّلًا: مسغبةٌ: {أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾}

المسغبةُ ليست فقط المجاعةَ، بل هي المجاعةُ التي رافقَها التّعبُ والإنهاكُ. وليست خاصّةً بفرد منَ الأفراد بل هي تعمُّ الجماعةَ، ولذلك أضافَها إلى الزّمان، كأنّ المسغبةَ صارت عَلمًا على تلك الفترةِ منَ الزّمان

هذا المصدرُ مأخوذٌ من الفعل سغِب وسغَب أي جاعَ مع تعبٍ، والمسغبة: المجاعةُ، وقد يُسمّى العطشُ سغَبًا، والمعنى أيّ جوعٍ عامٍّ في مكانِ جوع، وزمانِ جوع. بما أفهمَه الوصفُ والصّيغةُ، وصيغةُ (مسغبة) مشتركٌ صرفيٌّ فتحتملُ أن تكون أيضًا اسمًا للزّمان أوِ المكان (13)، وإضافة {ذي} إلى {مسغبة} تفيدُ اختصاصَ ذلك اليومِ بالمسغبة،كأنّه لا شيءَ في ذلك اليومِ يستحقُّ الالتفاتَ إليه إلا الجوعُ، فوصفُ ذلك اليوم بالمسغبة جاء على سبيل المبالغةِ، فالمسغبةُ ليست فقط المجاعةَ، بل هي المجاعةُ التي رافقَها التّعبُ والإنهاكُ. وليست خاصّةً بفرد منَ الأفراد بل هي تعمُّ الجماعةَ، ولذلك أضافَها إلى الزّمان، كأنّ المسغبةَ صارت عَلمًا على تلك الفترةِ منَ الزّمان، فيتبيّن أنّ المسغبة جوع مع تعب في زمان عمّ فيه الجوع، وامتدّ إلى كلّ أفراد الجماعة، حتى الغنيّ فيهم يخشى على ماله من







النّفاد، إن طالت هذه المسغبة، ولذا عزّ الإنفاق وقلّت المعونة.

فالمصدرُ الميميُّ، استُعملَ للدّلالة على شدّةِ ذلك الجوعِ، الذي بلغ حدَّ الإنهاكِ وعمومَه، وإضافةُ التّاء له زادت في معاني هذه المبالغة كمًّا ونوعًا.

ولـذا فقد جـاءت هذه اللّفظةُ مُتّسقةً تماماً مع موضوعِ السّورةِ ومحورِها، المبنيِّ على مكابدةِ الإنسانِ، فالسّغبُ وجهٌ من وجوه هذه المكابدةِ التي يُعانيها الإنسانُ، والإطعامُ في السّغبِ طريقُ الخروجِ من هذا الكبَدِ أيضًا، والإنفاقُ في هذا الحال لا تنفعُ معه الرّويّةُ والتّمهّلُ، بل يحتاجُ إلى شجاعةِ الإيمان، وجرأةِ الاقتحام؛ لأنّ المالَ يكون وقتَها أعزَّ، والخوفَ منَ النّقص والنّفادِ أكثرَ، ولذا كان الطّريقَ لاقتحامِ العقبةِ، كما أنّه لمّا كان الموضعُ هنا حثًّا على الرّحمة والإحسانِ، فقد آثرتِ السّورةُ لفظَ السّغبِ على لفظة الجوعِ، التي اقترن ورودُها في القرآن بالدّلالةِ على العقوبة والابتلاءِ.

ثانيًا: مقربةٌ: {يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥}

ذكرَ أصحابُ المعجماتِ أنّ: القرابةَ والقُربى الدّنوُّ في النّسبِ، والقربَى في الرّحِم، وقيل: القرابةُ هي عامّةٌ مثل القرابةِ في النّسب، أمّا القُربى فقد تكونُ في النّسب وفي الرّحِم، والمقربةُ هي بينهما، وهي أعمُّ، ويظهر ـ والله أعلم ـ أنّ (مقربة) لفظٌ له خصوصيّةٌ مُتعلّقةٌ بسورة البلدِ، إذ لم يَرِدْ بهذه الصّيغةِ إلّا هنا، إذ وردَ في القرآن بألفاظٍ منها (الأقربِين، ذوِي القربى، الأقربون..).

وهذه الخصوصيّةُ تظهرُ في دلالة المصدرِ الميميِّ على قوّة الحدثِ وتأكيدِه، والقوّةُ التي تظهرُ في هذا المصدرِ هي اتّساعُ القرابةِ، وتكثيرُها لكلِّ ذي قُربى منَ اليتامَى ـ مهما بعُدت هذه القرابة ـ كما أنّ إضافةَ المصدرِ إلى (ذا) تُعطي التّركيبَ ثراءً في الدّلالة، حيث تدلُّ على الثّبوت.

والتّركيبُ برُمّته يتّصلُ بمحورِ السّورةِ الذي يدورُ حول خلْقِ الإنسانِ في كبدٍ، من طرفَي المُطعِم، واليتيمِ المطعَم، إذ إنّ المُطعِمَ لن يستطيعَ التغلّبَ على الكبَدِ الذي سيواجهُه في الدّنيا والآخرةِ، إلّا بأن يُزكّيَ نفسَه ومالَه بالإطعام، وقد أشارت سورةُ البلدِ إلى أنّ عدمَ إنفاقِهم المالَ لم يكن بسببِ البُخل، بدليل قولِه تعالى: {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦} وإنّما بسببِ الكفرِ، ورغبةٌ في منعِ النّاس منَ الإيمان برسالة النّبيِّ الأمينِ من خلال السّيطرةِ عليهم، وإبقائِهم عبيدًا لهم، جائعين لطعامِهم، وأمّا الكبَدُ من طرف اليتيم المُطعَم فيظهرُ في اليُتم، إذ لا يخلو اليُتمُ في الصِّغر من مشقّةٍ وضعفٍ، واتّفق العلماءُ

على أنّ المقربةَ مصدرٌ ميميٌّ على وزن مَفعلة (14)، قال البُقاعي: يُطعم إنسانًا صغيرًا لا أبَ له يُرجَى أو يُخاف، ولا يُرجَى بإطعامِه إلّا التّوددُ لأقاربه للتّكثيرِ بهم، مع أنّه يجمعُ بذلك بين صدقةٍ وصِلةٍ وإن كان غنيًّا(15)، ووُصفَ بكونِه ذا مقربة أي مقربةً منَ المُطعم؛ لأنّ هذا الوصفَ يؤكّدُ إطعامَه؛ لأنّ في كونه يتيمًا إغاثةً له بالإطعام، وفي كونِه ذا مقربةٍ صلةً للرّحِم (16).

ثالثًا: متربةٌ: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾}

مَتربةٌ: من بابِ ترِب، أي أصابَه التّرابُ، بمعنى افتقرَ، من تربَ الرّجلُ إذا خسرَ وافتقرَ، والمتربةُ: الفقرُ، وأتربَ الرّجلُ إذا كثر مالُه واستغنَى(17)، وأتربَ الشّيءَ: وضعَ عليه التّرابَ، فتتربّ أي تلطّخَ بالتّراب، وتتربَ إذا تلوّث بالتّراب، ورجلٌ تَرِبٌ: فقير لازقٌ بالتّراب منَ الحاجة ليس بينه وبين الأرض شيءٌ(18)، وقولُ العرب: تربت يداك: أي صار في يديك التّرابُ، وهو يستعملُ في معنى الفقرِ والخيبةِ.

قال البُقاعيّ في الغاية منَ التعبير بالمصدر الميميّ لمقربةٍ ومتربةٍ: «فالآية منَ الاحتباكِ ذكرُ القُربِ أولاً يدلّ على ضدّه ثانيًا، وذكرُ المتربة ثانيًا يدلّ على ضدّها، وسرُّ ذلك أنّه ذكرَ في اليتيم القُربَ المعطفَ، وفي المسكين الوصفَ المرقّقَ الملطّفَ، فهو لا يقصدُ بإطعامه إلّا سدَّ فاقتِه، ودخل فيه اليتيمُ البعيدُ والفقيرُ من بابِ الأولى وإن كان أجنبيًّا(19).

وأمّا ارتباطُ هذا المصدرِ بوحدةِ

> **اختيارُ المصدرِ الميميِّ (المرحمة) للدّلالة على رحمةِ المؤمنين بعضِهم بعضًا، ليس فقط لقوّةِ الدّلالة واتّساعِها، وإنّما بثباتِهم عليها مدّةَ عُمرِهم، وباختلاف أحوالِهم ورغائبِهم وإن لم توافق ما في قلوبِهم، وتذكيرًا لهم بالرّحم التي بينهم، لتقودَهم نحو التّراحمِ.**

الموضوعِ في السّورة، فيتمثّلُ في الكبَدِ الذي يحملُه تركيبُ {مسكيناً ذا متربة}، فهو تركيبٌ يدلّ على أنّ صاحبَه قد بلغت به الحاجةُ وبلغ به الفقرُ مبلغًا ألصقَه بالتّراب، لذا فهي إحدى الوسائلِ التي يمكنُ من خلالها اقتحامُ العقبة، فاقتحامُ العقبةِ لن يكونَ سهلاً.

رابعًا: المرحمةُ: {ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾}

أصلُ هذه المادّةِ يدلُّ على الرّقّةِ والعطفِ والرّأفة، أمّا المرحمةُ فهي الرّحمةُ التي يتعاملُ بها النّاسُ فيما بينهم، وكأنّ حرفَ الميم يحدُّ هذه المرحمةَ عن أن تكون مُطلقةً، وعن أن تكون ذاتيةً. قال البُقاعيّ: وتواصوا بالمرحمةِ أي الرّحمةِ العظيمةِ بحسب زمانِها ومكانِها بأن يُوطِّنوا أنفسَهم على كلِّ ما يحملُ على الرّحمةِ العظيمةِ التي تُوجبُ لهم الحبَّ في الله والبغضَ فيه(20)، وقد عبّر بالمرحمةِ دون الرّحمةِ للدّلالةِ على كلِّ ما فيه رحمةٌ للعبادِ وحرصٌ على حالِهم ومآلِهم، ورفعِ المظالم والسّعيِ في حوائجِهم، واستنقاذِهم من غضبِ الله، قال الرّازي في التّواصي بالمرحمة: "فيه إشارةٌ إلى الشّفقةِ على خلق الله، بأن يحثَّ بعضُهم بعضًا على أن يرحمَ المظلومَ أوِ الفقيرَ، أو يرحمَ المُقدمَ على منكرٍ فيمنعَه منه، ويدلَّ غيرَه على طريق الحقِّ، ويمنعَه من سلوك طريقِ الشّرّ والباطلِ ما أمكنَه، فكلُّ ذلك داخلٌ في الرّحمةِ(21).

وأمّا ارتباطُ هذا المصدر بالوحدةِ الموضوعيّةِ للسّورةِ فإنّ تعاهدَ المرحمة في كلّ أشكالِ التّعاملِ مع البشرِ أمرٌ شاقٌ؛ ولذلك سُبقت بالتّواصِي بالصّبر، حتى يستعينَ به على التّواصِي بالمرحمة.

فاختيارُ المصدرِ الميميِّ للدّلالة على رحمةِ المؤمنين بعضِهم بعضًا، ليس فقط لقوّةِ الدّلالة واتّساعِها، وإنّما بثباتِهم عليها مدّةَ عُمرهم،

وباختلاف أحوالِهم ورغائبِهم وإن لم توافق ما في قلوبِهم، وتذكيرًا لهم بالرّحمِ التي بينهم، لتقودَهم نحو التّراحمِ، ولمّا كان الثّباتُ أمراً ليس سهلاً، فهو يَستلزمُ الصّبرَ والاستعانةَ بالله، ولذا فالمشقّةُ فيه ظاهرةٌ.

خامسًا: الميمنةُ: {أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨}

الميمنةُ: مصدرٌ ميميٌّ، ويدلُّ على زيادةٍ واستمرارٍ في اليمن، ويرادُ الذين في قوّةٍ ذاتيةٍ في أنفسِهم في سبيلِ الخير مع زيادةٍ وتقابلُه المشأمةُ، ورأى بعضُهم أنّه اسمُ مكانٍ، فمن رأى أنّه مصدرٌ ميميٌّ فيكونُ مأخوذًا منَ اليُمن: البركةِ، ومن يراه اسمَ مكانٍ فهو مأخوذٌ منَ الجهة اليُمنى(22)، وبالنّظرِ إلى السّياقِ، يصعبُ القولُ بأنّه اسمُ مكانٍ بدلالة مقابلتِه بالمشأمةِ، فدلالتُه على حسنِ الجزاء أقوى من دلالتِه على المكانِ، إلّا أنّه أيضًا لا يخلو من كونه يُشعرُ بالمكانيّة، وهكذا في كثيرٍ منَ المصادرِ الميميّةِ، يأتي بعضُها مُشعرًا بالزّمان أوِ المكان، وقد جاء هذا المصدرُ الميميُّ بهذه الصّيغة، للدّلالةِ على قوّة المعاني التي يدلُّ عليها هذا المصدرُ منَ اليُمن والقوّةِ والفلاحِ، مع قوّةِ الدّلالة على مكانٍ رفيعِ الدّرجةِ، بدلالة كلمةِ أصحابٍ، فهم أهلُ المكان أي سُكّانُه، وهم أهلٌ له: أي جديرون به.

> آثرتِ السّورةُ التّعبيرَ بالمصدرِ الميميِّ الذي يدلُّ على معنى المبالغةِ متعدّدةِ الوجوه في الأفعالِ التي دلّت عليها السّورةُ، لتتلاءمَ هذه المبالغةُ مع مشقّة الفعلِ على النّفس

وأمّا ارتباطُ هذا المصدرِ بالوحدةِ الموضوعيّةِ للسّورةِ التي يدور محورُها حول المشقّةِ والكبَد، فهي تتّصلُ بهذا المحور اتّصالاً مباشرًا، إذ لا سبيلَ للخروج من هذه المشقّةِ واقتحامِ هذه العقبةِ إلّا بهذه الأعمالِ التي تجعلُه في مصافِّ أصحابِ الميمنةِ، فالميمنةُ هنا تعني أنّه استطاع اقتحامَ العقبةِ، كما أنّ إيثارَ المصدرِ الميميِّ هنا في الدّلالةِ على الفائزين برضوانِ الله تعالى، يدلُّ على قوّة الخيرِ التي تكمنُ في (اليُمن) الحاضرِ في سلوكيّاتِهم، في تحرير الخلْقِ من عبوديّةِ العبادِ، وإطعامِهم الطّعامَ لليتامَى والمساكين في وقتٍ شحّتْ فيه المواردُ، وعمّ الجوعُ والبلاءُ.

سادسًا: المشأمة: {وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ}

والمشأمةُ كالميمنةِ مصدرٌ كالشّأم، والتّعبيرُ بالمشأمة دون الشّأم؛ لدلالةِ المصدرِ الميميِّ على الزّيادةِ والاستمرار، للزّيادة في المبنَى

---

(01) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (ت: 471هـ)، المفتاح في الصرف، تحقيق: علي توفيق الحَمَد، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى (1407 هـ – 1987م)، ص52 ؛ الخطيب، عبداللطيف محمد، المستقصى في علم التصريف، دار العروبة – الكويت، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2002م، 1/389.
(02) الخطيب، المستقصى في علم التصريف: 1/424.
(03) نهر، هادي، الصرف الوافي، دراسة وصفية تطبيقية في الصرف وبعض المسائل الصوتية، دار الأمل، اربد، ط2، ص113.
(04) سيبويه، عمرو بن عثمان (ت: 180هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408 هـ – 1988 م، عدد الأجزاء: 4، 4/87.
(05) عباس، حسن، النحو الوافي، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، 3/ 213.
(06) السامرائي، فاضل صالح، معاني الأبنية في العربية، مطبوعات جامعة بغداد، الطبعة الاولى، ص 34، 35.
(07) المصدر السابق ص35.
(08) المصدر السابق ص36.
(09) أبو زهرة، محمد بن أحمد، (ت: 1394هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، عدد الأجزاء: 10، 2/647.
(10) ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد، (ت : 1393هـ)، التحرير والتنوير ، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ، عدد الأجزاء : 30، 2/344.

واللّفظ، وورد أنّ في (المشأمة) دلالةً على الموضعِ والمكانِ.

وأهلُ المَشْأَمَة هم أهلُ ناحِيَة الشِّمال، وهي الجِهَةُ الّتي يَتَشَاءم النّاسُ منها أو أهلُ الشُّؤْم، وهم على نقيضِ أهلِ المَيْمَنَة، أي أهلِ ناحِيَة اليمين واليُمنِ.

كما أنّ إضافةَ المصدرِ الميميِّ لكلمة أصحابٍ، يشيرُ إلى أنّ المشأمةَ جزاءٌ يستحقّونه بجدارةٍ.

وقابليةُ المصدرِ الميميِّ لاسمَي الزّمان والمكانِ يجعلُ المعنى أكثرَ اتّساعًا، إذ لا مانعَ من أن تحملَ الميمنةُ والمشأمةُ معنَى اليُمن والشُّؤم ومكانِهما (الجنة والنار) وزمانِهما، ولذلك قال الحملاوي: "إنّ صيغةَ الزّمان والمكانِ والمصدرِ الميميِّ واحدٌ في غير الثّلاثيّ، وكذا في بعض أوزانِ الثّلاثيّ، والتّمييزُ بينهما بالقرائن، فإن لم توجد قرينةٌ فهو صالحٌ للزّمان والمكانِ والمصدرِ (23).

وخلاصةُ الأمرِ أنّ المصادرَ الميميّةَ التي كثرت في سورة البلدِ، السّورةِ التي يدور محورُها حولَ كبَديّة الإنسان، وجاءت ألفاظُها متواءمةً مع محورِها، تحملُ جرسَ المشقّةِ والصّعوبةِ، حتّى الأعمالُ الصّالحةُ عبّرت عنها السّورةُ واحتوتْها في تركيبِ {فلا اقتحم العقبة}، ولذا فقد آثرتِ السّورةُ التّعبيرَ بالمصدرِ الميميِّ الذي يدلُّ على معنى المبالغةِ متعدّدةِ الوجوه في الأفعالِ التي دلّت عليها السّورةُ، لتتلاءمَ هذه المبالغةُ مع مشقّة الفعلِ على النّفس، كما أنّ التّعبيرَ عنِ الجزاء بهذه المصادرِ الميميّةِ دلَّ على عِظَم ذلك الجزاءِ نعيماً كان أو عذابًا، ومن هنا كان الطّريقُ إلى الميمنةِ والمشأمةِ في غايةِ الكبَديّةِ التي يدورُ محورُ السّورةِ حولَها.

> **إنّ المصدرّ الميميَّ له دلالةٌ أشملُ وأوسعُ من كونِها دلالةً على الحدثِ فقط، وهذه الدّلالةُ لا يمكنُ تحديدُها وبيانُها بعيدًا عنِ السّياق**

(11) عمايرة، اسماعيل، التطور التاريخي لأبنية المصادر، أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، الأردن، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 14، عدد 1، 1996م، ص 242.

(12) . الواقعة(75ـ77)، الحاقّة(38 ـ 40)، القيامة(1 ـ 2)، التّكوير(15 ـ 19)، الصّبح(18 ـ 19)، المعارج(40 ـ 41)، الانشقاق(16 ـ 19)، والبلد(1 ـ 3).

(13) . البقاعي، ابراهيم بن عمر، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،1431هـ، 22/ 62.

(14) الزمخشري، الكشاف، 4/ 756؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 5/ 314؛ السمين الحلبي، الدر المصون، 11/ 10؛ الألوسي، روح المعاني، 15/ 354؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 30/ 358؛ صافي، الجدول في إعراب القرآن، 30/ 335.

(15) البقاعي، نظم الدرر، 22/ 62.

(16) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 30/ 358.

(17) الفراهيدي، العين:(ترب)؛ الأزدي، جمهرة اللغة، (ترب).

(18) ابن منظور، لسان العرب، (ترب).

(19) البقاعي، نظم الدرر، 22/ 62.

(20) البقاعي، نظم الدرر، 22/ 62: 66.

(21) الرازي، مفاتيح الغيب، 31/ 170.

(22). ابن عاشور، محمد الطاهر، التّحرير والتّنوير، 30 / 362.

(23).الحملاوي، أحمد بن محمد بن أحمد، شذا العرف في فن الصرف، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 2009م.ص(61)

المصطلحاتُ الشّرعيّةُ بين الدّلالاتِ اللُّغويّةِ والدّلالاتِ الاصْطلاحيّةِ: اتّفاقًا وافتراقًا

الجزء الأول



إنَّ اللّغةَ العربيّةَ وُضِعتْ ألفاظُها ـ أوّلَ ما وُضِعتْ ـ للدّلالةِ على مُسمّياتٍ ومعانٍ محدّدةٍ، وهي دلالاتُها الحقيقيّةُ، ثمَّ ما لبث المتكلّمون بها أن أعطَوا كثيراً من ألفاظها دلالاتٍ أخرَى، ذاتَ صِلةٍ بالمعاني الأصليّةِ، لعلاقة شبهٍ في بعض جوانبِها غالبًا، وهي دلالاتُها المجازيّةُ.

وحينما جاء الوحيُ السّماويُّ إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بِشقَّيه، المتلوِّ وهو القرآنُ الكريمُ وغيرِ المتلوّ وهو السّنةُ النّبويّةُ، خاطبَ النّاسَ باللّغةِ العربيّةِ بحسبِ أساليبِها المعهودةِ في البيانِ، ليكونَ ذلك أوقعَ في نفوسِهم، وأبلغَ في التّحدّي والإعجازِ، فاستعملَ الحقيقةَ والمجازَ بجميع صُورِهما، وزاد أنماطاً في التّعبيرِ والتّصويرِ لم يكونوا يعرفونَها، وهذا من تصريفِ القولِ ليدبّروا آياتِ القرآنِ الكريمِ وتتضلّعَ عقولُهم ونفوسُهم من معاني القرآنِ الكريمِ والسّنةِ النّبويّةِ.



الدّكتورُ خالد حسين الخالد
أستاذ مشارك في الفقه الإسلامي وأصوله، جامعة المدينة عجمان

كما أنَّ القرآنَ الكريمَ، على وجهِ الخُصوص، استعملَ ما يُسمّى بالنّقل اللّغويِّ، أوِ الوضع العُرفيِّ الخاصِّ، حيث يُعطي كثيراً منَ الألفاظِ المعهودةِ في كلام العربِ معانيَ شرعيةً جديدةً، لتصبحَ حقائقَ شرعيّةً دون إلغاء حقائقِها اللّغويّةِ. ومن ذلك على سبيل المثال: الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ والنّفاقُ والكفرُ، والصّلاةُ والزّكاةُ والصّومُ والحجُّ، والحدودُ، والفسقُ، والفتنةُ، وغيرُها. وقدِ استقرّتِ المعاني الشّرعيّةُ الجديدةُ في نفوس المسلمين، حتّى إنّها أصبحتِ المعانيَ المتبادِرةَ لأذهانِهم عند سماعِ ألفاظِها، فأصبحت حقائقَ عُرفيّةً شرعيّةً.

وحينما تفتّقتِ العلومُ المختلفةُ وتوسّعتْ، كعلومِ اللّغةِ العربيّةِ، إلى نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ وغيرِها، وعلومِ الشّريعة، إلى أصولِ الدّين، والفقهِ وأصولِه، وعلومِ القرآن، وعلومِ الحديث؛ صار أهلُ كلِّ علمٍ وفنٍّ يضعون المصطلحاتِ

الخاصّةَ بهم، ليُميّزوها عن غيرها.

والمصطلحاتُ التي وُضعت في العلومِ المختلفةِ قد تأتي متوافقةً مع دلالاتِها اللّغويّةِ الحقيقيّةِ، وقد تبتعدُ عنها كثيراً أو قليلاً، ومن جهة صلتِها بالمصطلحاتِ الشّرعيّةِ في القرآنِ والسّنّة خاصةً، قد تأتي متطابقةً وقد يحدثُ فيها تضييقٌ أو توسيعٌ لمدلولاتها.

إنَّ تطوّرَ دلالاتِ كثيرٍ منَ الألفاظِ في جميع اللّغاتِ خلال العصورِ المختلفةِ أمرٌ طَبَعِيٌّ، وكذلك تحوّلَ كثيرٌ منها إلى مصطلحاتٍ ذاتِ دلالاتٍ خاصّة. ولكنَّ التّمييزَ بين معانيها الحقيقيّةِ وبين ما انتقلت إليه من دلالاتٍ جديدةٍ بتطوُّرِها مع الزّمن أمرٌ مهمٌّ جدًّا، وذلك لمعرفةِ مدَى صحّةِ الاستعمالِ، ولفهمِ النّصوصِ السّابقةِ فهمًا صحيحًا، وهذا من أهَمِّ فوائدِ مشروعِ المعاجمِ التّاريخيّةِ للّغاتِ، ومنها المعجمُ التّاريخيُّ للّغةِ العربيّةِ بالشّارقةِ، حيث يرصدُ تطوّرَ دلالاتِ الألفاظِ على مدى سبعة عشرَ قرنًا أو يزيدُ.

وعليه، لا يصحُّ أن نفهمَ الألفاظَ والمصطلحاتِ السّابقةَ بحسبِ اصطلاحاتنا وأعرافِنا في عصرنا، إلّا إذا كانت باقيةً على معانيها ودلالاتها. فمثلاً، لا يصحُّ أن نفهمَ كلمةَ (المحراب) الواردةَ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[آل عمران:٣٧] وفي قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ* إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾[ص:21-22] أنّها المكانُ النّاتئُ في مقدّمةِ المسجدِ الذي يقفُ فيه الإمامُ للصّلاة، كما تعارفَ عليه النّاسُ في العصورِ المتأخّرةِ. فالمحرابُ الواردُ في الآيةِ يعني مكانَ العبادة كلَّه؛ لأنَّ فيه تُحاربُ وساوسُ الشّيطان. ولا يصحُّ أن نفهمَ من قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾ [يوسف:19]، أنَّ المقصودَ بالسّيارة سيارةٌ كالتي نركبُها في زماننا، إذ كان المقصودُ هو القافلةُ التي مرّت بالجُبِّ الذي كان إخوةُ يوسف قد ألقوه فيه. وهذان مثالان واضحان قريبان يُنْبئان عمّا وراءَهما.

وستقتصرُ دراستُنا على خمسةٍ منَ المصطلحات التي حصلَ تغييرٌ في مدلولاتها، وهي: الفِقْهُ والفِتْنةُ والعُرْفُ والفِسْقُ والحدودُ؛ لإظهارِ نقاطِ الاتّفاق والافتراق بين مدلولاتِها اللُّغويّةِ الأصليّةِ وبين مدلولاتِها الشّرعيّةِ في النّصوصِ القرآنيّةِ والحديثيّةِ وبين مدلولاتها الفقهيّةِ التي استقرّت عليها عندَ الأصوليّين والفقهاء.

وقد قسّمتُ هذه الدّراسةَ على حلقتَين. أكتفي في هذه الحلقةِ بثلاثة مصطلحاتٍ، إضافةً إلى المقدّمةِ، وأدعُ المصطلحَيْن الأخيرَين للحلقةِ الأخرى، إضافةً إلى الخاتمة.

المطلبُ الأوّلُ- الفِقْهُ:

الفقهُ مصطلحٌ كثيرُ التّداوُلِ، وإذا أُطلق كان المقصودُ به الفقهَ الإسلاميَّ خاصّةً. ويُستعملُ في علومٍ أخرى أشهرُها علومُ القانون، فيقال مثلًا: فلانٌ فقيهٌ في القانون المدنيِّ أوِ التّجاريِّ أوِ الجنائيِّ، وللفقه معنًى لُغويٌّ معروفٌ تذكرُه معاجمُ اللّغةِ، كما سيأتي. ولكن ما علاقةُ الدّلالةِ الاصطلاحيّةِ لهذا اللّفظِ بدلالتِه اللّغويّةِ؟ وهل وَسّع الاصطلاحُ منَ الدّلالة اللّغويّةِ أو ضيّقَ؟ وهل كان استعمالُها في القرآن والسّنةِ بالمعنَى الاصطلاحيِّ أو بالمعنى اللّغويِّ؟ هذا ما سنعرفُه في الفروعِ الآتيةِ:



أبو حنيفة

*** الفرعُ الأوّلُ- تعريفُ الفقهِ لغةً واصطلاحًا:**

- الفقهُ لغةً: هو الفهمُ والفِطنةُ مُطلقًا(1)، أو هو فهمُ غرضِ المتكلّمِ من كلامِه(2). ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾ [طه:27-28]، أي ليَفهمُوا مقصودِي من دعوتي. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122]، وقوله: ﴿ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ﴾(3). ونحوُه دعاءُ الرّسول لابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(4).

* الفقهُ اصطلاحًا: له تعريفاتٌ عدّةٌ متقاربةٌ، أقتصرُ على ما استقرَّ عليه بعدَ القرن الرّابع الهجريِّ: هو العلمُ بالأحكام الشّرعيّةِ العمليّةِ المكتسَبُ من أدلتِّها التّفصيليّةِ(5).

* الفرعُ الثّاني- العلاقةُ بين المعنَى اللّغويِّ للفقهِ وبين المعنَى الاصطلاحيِّ:

إنَّ أوّلَ ما يلاحَظُ على المعاني اللّغويّةِ والاصطلاحيّةِ للفقه أنَّ الدّلالةَ اللّغويّةَ أعمُّ، إذْ يصحُّ أن يكونَ الفقهُ في أيِّ مجالٍ من مجالاتِ الحياة، كالطبِّ والهندسةِ واللّغةِ والقانونِ وغيرِها. فيقال: فلانٌ فقيهٌ في اللّغةِ أو في الطبِّ أو أيِّ تخصُّصٍ في الحياة. والدّلالةُ الاصطلاحيّةُ تخصُّ الفقهَ بالعلمِ بالأحكامِ الشّرعيّةِ العمليّةِ.

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الفقهَ بمعناه اللّغويِّ، وهو الفهمُ والفطنةُ لمرادِ المتكلّم، شرطٌ أساسٌ للوصولِ إلى الفقه بمعناه الاصطلاحيِّ، وهو استنباطُ الأحكامِ الشّرعيّةِ من أدلّتِها التّفصيليّةِ، المتمثّلةِ بنصوصِ الكتابِ والسّنةِ.

*** الفرعُ الثّالثُ- المقاربةُ بين استعمالِ الفقهِ في القرآنِ والسّنةِ وبين المعنَى الاصطلاحيِّ له:**

من خلالِ ما سبقَ، يُلاحظُ أنَّ استعمالَ فعلِ الفقهِ في القرآنِ والسّنة كان بالمعنَى اللّغويِّ الحقيقيِّ غالبًا؛ لأنّه كان يقيّدُ بقيدِ (في الدين)، {لِيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ} {يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ}، ولو كان المرادُ الاصطلاحيَّ لما ذُكر القيدُ. وهذا يعني أنَّ الاصطلاحَ المتأخِّرَ غيّرَ في دلالة اللّفظ، فضيّقَها وخصَّها بالعلمِ بالأحكامِ الشّرعيّةِ العمليّةِ.

والمشهورُ عندَ العلماءِ أنّ أوّلَ من عرّفَ الفقهَ اصطلاحًا هو الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله حينما سُئل عنه، قال: "الفقهُ معرفةُ النّفس ما لها وما عليها". وكان هذا التّعريفُ أوّلَ نقلةٍ بين الدّلالة اللّغويّةِ العامّةِ والدّلالةِ الاصطلاحيّةِ الخاصّةِ. وهو مع تخصيصِه الفقهَ بالأحكامِ الدّينيّةِ التي تبيّنُ حقوقَ النّفس الإنسانيّةِ وواجباتِها، فإنَّ فيه عمومًا أيضًا من جهة أخرى؛ لأنّه لا يختصُّ بالأحكامِ العمليّةِ، بل يشملُ كلَّ أحكامِ الدّين والشّريعةِ، من عقائدَ وعباداتٍ وأخلاقٍ ومعاملاتٍ وعقوباتٍ. جاء في البحر الرّائق: "وعَرَّفَهُ الإِمَامُ الأَعْظَمُ بِأَنَّهُ: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ مَا لَهَا ومَا عَلَيْهَا، لَكِنَّهُ يَتَنَاوَلُ الاعْتِقَادِيَاتِ، كَوُجُوبِ الْإِيمَانِ، والْوِجْدَانِيَاتِ، أَيْ الأَخْلَاقَ الْبَاطِنَةَ والمَلَكَاتِ النَّفْسَانِيَّةَ، والعَمَلِيَّاتِ، كالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالبَيْعِ»(6).

وإن كان منَ النّصوصِ ما يُشيرُ إلى المعنَى الاصطلاحيِّ العامِّ، كما في تعريفِ أبي حنيفةَ رحمه الله، فهو قولُه عليه الصّلاةُ والسّلامُ: "نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ"(7). والإشارةُ في الحديث واضحةٌ إلى أنَّ مقالةَ الرّسولِ تحملُ في ثناياها دلالاتٍ لا يستنبطُها إلّا الرّجلُ الفقيهُ، ولكنْ يبقَى الاستعمالُ أقربَ إلى المعنَى اللّغويِّ، والله أعلمُ.

المطلب الثّاني- الفِتْنَةُ:

الفتنةُ في اللّغة فعلُها «فَتَنَ يَفْتِنُ» بمعنى اختبرَ وامتحنَ؛ جاء في اللّسان: «قال الأزهريُّ وغَيْرُهُ: جِماعُ مَعْنَى الفِتْنة: الابْتِلَاءُ والامْتِحانُ والِاخْتِبَارُ، وأَصلُها مأْخوذٌ مِنْ قَوْلِكَ فتَنْتُ الفِضَّةَ والذَّهَبَ إِذا أَذبتَهُما بِالنَّارِ لِتُمَيِّزَ الرَّدِيءَ مِنَ الجيِّد، وفِي الصِّحَاح: إِذا أَدخلتَه النَّارَ لِتَنْظُرَ مَا جَوْدَتُه»(8).

وإذا عُدنا إلى العُرف القرآنيِّ خاصّةً في استعماله لكلمةِ الفتنةِ وأفعالِها، كفتنَ ويفتنُ، رأينا البيانَ الإلهيَّ يستخدمُها في معنيَين رئيسَين، وقدِ استقرأتُ الآياتِ التي وردت فيها كلمةُ الفتنة، فلم أجدْها تخرجُ عن هذين المعنيَين:

المعنَى الأوّلُ: ابتلاءُ الإنسان واختبارُه بنحوٍ عامٍّ بأمورٍ منَ الخير والشّرّ ليظهرَ إيمانُه من عدمِه، أو تعريضُ المؤمنِ خاصّةً لبعضِ الابتلاءات من أجل تنقيتِه وتطهيرِه أو رفعِ درجاتِه، ومن ذلك:

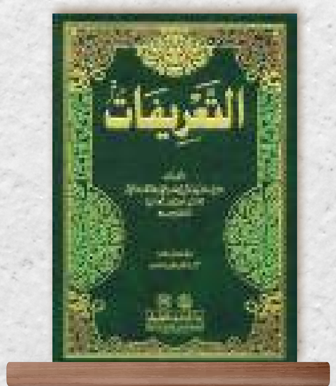
قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[الأنبياء:35].

جاء في تفسيرِ ابنِ كثيرٍ رحمه الله: «وقوله: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} أي: نَخْتَبِرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ تَارَةً، وَبِالنِّعَمِ أُخْرَى، لِنَنْظُرَ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنَطُ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {وَنَبْلُوكُمْ} ، يَقُولُ: نَبْتَلِيكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ»(9).

وقولُه عزّ وجلّ: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[الصافات:49]. فالله سبحانَه يختبرُ النّاسَ عامّةً، والمؤمنين خاصّةً، بأنواعٍ منَ الابتلاء والاختبار، وذلك مصداقُ قوله: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3)}[العنكبوت]

والشّيطانُ يفتنُ بني آدمَ بوسوستِه، ليَصرفَهم عنِ الإيمان، أو عنِ العمل الصّالح، أو ليُوقعَهم في المعاصي، والآياتُ في ذلك كثيرةٌ، منها قولُه تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا} [الأعراف:27]

وفي مُعظمِ كتبِ السّنةِ كتابٌ أو بابٌ في





الفِتَن، وتعني كلَّ ما سيقعُ بعد وفاةِ الرّسولِ صلى الله عليه وسلم من أمورٍ عظيمةٍ شديدةٍ على المؤمنين، كأنّها اختبارٌ صعبٌ لهم، ليظهرَ إيمانُ المؤمنين وصبرُهم. وقد حثّنا الرّسولُ صلى الله عليه وسلم أن نُكثرَ منَ الاستعاذة منَ الفتن ما ظهرَ منها وما بطنَ، لكي ننجُوَ حين وقوعِها.

المعنى الثاني: تعذيبُ المؤمن أو تهديدُه حتى يرجعَ عن دينِه، ومن ذلك قولُه تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة:193]. حيث إنّ المشركين والكفّار كانوا يحاولون بكلِّ الوسائلِ منْعَ وصولِ الإيمان إلى أتباعِهم، وإذا آمن أحدٌ منهم هدّدوه أو عذّبوه ليرجعَ عن دينِه، وهذه هي الفتنةُ في الدّين. ولذلك كان من أهمِّ دواعِي الجهادِ والقتالِ في الإسلام ردعُ الكفّار أو الأعداءِ عن فتنةِ المؤمنين من خلال التّهديدِ والتّعذيبِ.

وكذلك قوله تعالى في حق المنافقين وتخلّفِهم عن غزوة تبوك: {لَوْخَرَجُوا فِيكُمْ مَازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ][التوبة:47]. فكانت إحدى أُمنياتِ المنافقين أن يقعَ المؤمنون تحت فتنةِ الكفّارِ ويرجعُوا عن دينِهم.

ومن هذا المعنى قولُه تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ] [الأنفال:28]. فالأولادُ والأموالُ، وجوداً أو عدمًا، كثرةً أو قلّةً، هي من أهمِّ مجالاتِ الاختبارِ للإنسانِ.

ولعلَّ منه قولَ الرّسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حينما بلغَه أنّه يُطيلُ في القراءة في الصّلاة، حين يؤمُّ أهلَ حيِّه، حتى يتعبَ مَن وراءَه: «أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ. أَوْ: فَاتِنٌ فَاتِنٌ فَاتِنٌ؟ فَلَوْلَا قَرَأْتَ {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}؟»(10). فإنَّ التّشديدَ على النّاسِ في أمورِ العباداتِ قد يفتنُ بعضَهم، فيصرفُه عنِ العبادة كلّيّةً.

وقد عرّفَ الجُرجانيُّ الفتنةَ بأنّها: «ما يتبيّنُ به حالُ الإنسان منَ الخير والشّرّ»، وأوضحَ ذلك بقوله: "يُقال: فتنتُ الذّهبَ بالنّار إذا أحرقتَه بها لتعلمَ أنّه خالصٌ أو مَشوبٌ»(11). وهو تعريفٌ دقيقٌ ينطبقُ على المعنَى الثّاني للفتنةِ بالمصطلحِ القرآنيِّ، ويدخلُ فيه المعنَى الأوّلُ بالجملة.

ولا شكَّ أنّ المعنَى الأوّلَ للفتنةِ ذو صلةٍ قويّةٍ بالمعنى الثّاني؛ لأنّ تعرّضَ المؤمن للابتلاء بنوعٍ من أنواعِه فيه تهديدٌ داخليٌّ لنفسِه، هل سيثبتُ على الإيمان أو سينحرفُ عنه؟

ولكنّنا إذا تتبّعْنا الاستعمالاتِ الشّائعةَ لكلمةِ الفتنةِ المتعارَفِ عليها عند مُعظمِ النّاس، خواصِّهم وعوامِّهم، وجدناها لا تخرجُ عنِ المفهومَين الآتيَين:

الأوّل: إيقاعُ الخلافِ والنّزاعِ بين طرفَين فأكثرَ، ومن ذلك إيقاعُ الفتنِ بين المسلمين، والاقتتالِ بينهم. **الثّاني:** الوقوعُ في حبائلِ الشّهواتِ الجنسيّةِ المحرّمةِ، فيقال: امرأةٌ فاتنةٌ، وافتتن فلانٌ بفلانةٍ.

وهذان المعنَيان مُغايران للمعنَيين القرآنيَين السّابقَين، ولكن بينهما صلاتٌ بعيدةٌ أو غيرُ مباشرةٍ؛ فإثارةُ الخلافِ بين طرفَين، وإشعالُ الحربِ بينهما، لا شكَّ أنّها من فتنةِ الشّياطين، شياطينِ الإنس والجنِّ، الذين {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام:112]، ويشتركُ فيها الأعداءُ والمنافقون ويُورون نارَها. وكذلك ما تفعلُه النّساءُ الفاسقاتُ ومن يدبّرُ لهنّ، من إغراءِ الرّجالِ بالفاحشةِ، لا شكّ أنّه فتنةٌ للصّالحين، فيُثبتوا على صلاحِهم أو ينحرفُوا عنِ الصّراط المستقيم. وبالجملةِ، نجدُ تضييقًا لمعنَيَي الفتنةِ بالمصطلحِ القرآنيِّ، اللّذين جاءا عامَّين واسعَين، فقصرَهما الاستعمالُ العرفيُّ على بعضِ تطبيقاتِهما أو آثارِهما.

والكاتبُ لا يرى بأسًا بالتّطوّرِ الدّلاليِّ للكلماتِ والمصطلحاتِ، بل هو أمرٌ طَبَعِيٌّ، ولكنَّ المهمَّ المحافظةُ على المعاني والدّلالاتِ القرآنيّةِ، ونشرُها وبيانُها للنّاس، كي لا يحدثَ اللّبسُ والتّشويشُ.

المطلبُ الثّالث- العُـرْفُ:

*** الفرعُ الأوّلُ- حقيقةُ العُرفِ في اللّغة:**

(العُرف) اسمٌ جذرُهُ (ع ر ف). يقول ابنُ فارسٍ في هذا الجذر: «الْعَيْنُ وَالرَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى

تَتَابُع الشَّيْءِ مُتَّصِلاً بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، ومنه عُرْفُ الْفَرَسِ الذي يتَتَابَعُ الشَّعْرُ فيه. والآخرُ يدلُّ على السّكونِ والطّمأنينةِ وهو المعرفةُ والعرفان، وهذا أمرٌ معروفٌ، وهي تدلُّ على السّكون إليه؛ لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا تَوَحَّشَ مِنْهُ وَنَبَا عَنْهُ»(12).

وهناك معنَيان آخران لم يذكرْهما ابنُ فارس، وجاءا عندَ غيرِه، أحدُهما الظّهورُ والوضوحُ، سواء أكان في المحسوساتِ كعَرف الرَّمْل والجبل، واعْـرَوْرَفَ البحرُ ارتفعت أمواجُه(13). وممّا يعزّزُ معنَى الظّهورِ والوضوحِ للعُرف، أنّ أهلَ اللّغةِ العربيّةِ اتّفقوا على أنّ معنى (العَرْف) بفتح العين هو الرّائحةُ التي تظهرُ من صاحبِها، فتلفتُ النّظرَ إلى الإنسان أوِ الشّيءِ الذي تصدرُ عنه، فيظهرُ للرّائي ويتّضحُ. وقد فسّرَ بعضُ المفسّرين قوله تعالى:{وَيُدْخِلُهُم الجنةَ عرّفها لهم} [محمد:6] بمعنى زيّنَها وطيّبَها للمؤمنين استعدادًا لاستقبالِهم، وقد يكونُ {عرّفها لهم} بمعنى وصَفَها لهم وشوّقَهم إليها، فيكونُ منَ التّعريف والمعرفةِ(14).

والمعنَى الآخرُ الجودُ والكرمُ وعملُ الخيرِ للنّاس، قال صاحبُ القاموس: «والعُرْف، بالضم: الجودُ، واسمٌ لما تبذلُه وتُعطيه، وموجُ البحر، وضِدُّ النُّكْر، واسمٌ منَ الاعتراف»(15).

والعُرفُ بمعنى الجودِ والإحسانِ هو المعنى الرّاجحُ المقصودُ بالعُرفِ الذي طلبَ الله تعالى من رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يأمرَ به في الآية الكريمة: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:199]، وسيأتي مزيدٌ منَ التّعليل والتّحليلِ في الفرع الثّالثِ. وهو ما يُفهمُ من قول الشّاعرِ الحُطَيْئَة:

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازيَه
لا يذهبُ العُرْفُ بين اللهِ والنّاسِ

الفرعُ الثّاني- معاني العُـرْفِ في اصطلاحِ الأصوليّين والفقهاءِ:

إنّ أكثرَ منِ اعتنى بتعريف (العرف) اصطلاحًا همُ المتأخّرون من علماءِ الحنفية، ثمّ منَ المالكيّةِ والحنابلةِ؛ لأنّنا لا نجدُ في كُتبِ الأصولِ والفقهِ حتى أواخرِ القرن السّادسِ الهجريِّ تعريفًا له، بعد البحثِ والتّدقيق.

وسأُورد أشهرَ التّعريفات لمتأخّري الأصوليّين والفقهاءِ، ثمّ أُوردُ أشهرَ التّعريفاتِ المعاصرةِ.

لعلَّ أقدمَ من عرّفَه منَ الحنفية الأصوليُّ الفقيهُ الحافظُ النّسفيُّ، (ت:710هـ)، بقوله: «والعُرفُ ما استقرَّ في النّفوسِ من جهة شهاداتِ العقولِ، وتلقّته الطّباعُ السّليمةُ بالقَبول»(16).

هذا، ومعظمُ التّعريفاتِ الاصطلاحيّةِ للعُرف حتى عصرِنا الحاضرِ مرجعُها إلى تعريف النّسفيّ الآنفِ الذّكر، إمّا أن تختارَه بعيْنِه، وإمّا أن تعدّلَ فيه شيئًا يسيرًا، مع ما فيه منَ الغُموضِ.

وابنُ عابدين (ت:1252هـ)، الفقيهُ الحنفيُّ الدّمشقيُّ الشّهيرُ، صاحبُ أوّلِ بحثٍ مُستقلٍّ في العُرف في رسالتِه المشهورةِ (نشر العَرْف في بناءِ بعضِ الأحكام على العُرْف)، أورد أهمَّ التّعريفاتِ عندَ الحنفيّةِ، ومنها تعريفُ سراجِ الدّين الهندي (ت:773هـ): «العادةُ عبارةٌ عمّا يستقرُّ في النّفوسِ منَ الأمورِ المتكرّرةِ المعقولةِ عند الطّباعِ السّليمةِ»(17).

ثمّ جاء الأستاذُ أحمدُ فهمي أبو سنّة (ت:1424هـ/2003م)، صاحبُ أوّلِ رسالةِ دكتوراه في الأزهر سنة (1942م)، واكتفَى بالتَّعريف الذي وضعَه النَّسفيُّ في مُستصفاه، وقام بشرحِه(18).

وجاء بعده الشّيخُ مصطفى الزّرقا،

---

(1) انظر: القاموس المحيط، والمصباح المنير، مادة (فقه).
(2) التعريفات، السيد الشريف الجَرْجاني الحنفي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1: 1421هـ-2000-م، ص170.
(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري برقم (71) ومسلم برقم (1037).
(4)أخرجه البخاري برقم (143)(1/ 41).وفي رواية عند أحمد بلفظ: «اللهم فَقِّهْه في الدِّين، وعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ». «مسند أحمد، برقم (2397)».
(5) منهاج الوصول للبيضاوي، مع شرحه نهاية السول للأسنوي، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، ط1 (1420هـ=1999م)، ص11. وانظر: التوضيح على التنقيح لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود، مع شرحه التلويح على التوضيح للقاضي سعد الدين التفتازاني، دار الكتب العلمية- بيروت، ط2، ج1 ص19، شرح الكوكب المنير لابن النجار، محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي، تح: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان- الرياض، ط2: 1418هـ=1997م، ج1 ص41.
(6) البحر الرائق لابن نُجيم المصري شرح كنز الدقائق للزيلعي، دار الكتاب الإسلامي، ط2، ج1 ص6.
(7) أخرجه الإمام أحمد برقم (16738) ورقم (16757)، وهو صحيح لغيره، كما قال الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله. وأخرجه أيضاً أصحاب السنن الأربعة والحاكم في المستدرك.
(8) لسان العرب لابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، الناشر: دار صادر- بيروت، ط3 (1414هـ-1994-م)، ج13 ص317.
(9) تفسير القرآن العظيم، المشهور بتفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ط2، دار طيبة للنشر،ج5 ص342.
(10) أخرجه الإمام أحمد برقم (14190)، طبعة الرسالة، بتحقيق

(ت:1420هـ/1999م)، ووضعَ تعريفًا اصطلاحيًّا مختصرًا، ذكرَ أنّه مُستوحىً منَ التّعريفات التي أوردها ابنُ عابدين في رسالته، فقال: «أمّا في الاصطلاحِ الفقهيّ، فإنّ العُرفَ هو عادةُ جمهورِ قومٍ في قولٍ أو عمل» (19). ويمتازُ هذا التّعريفُ بالاختصار والشُّمولِ، فالاختصارُ فيه واضحٌ، والشّمولُ بذكر «قوم» دون تقييدٍ، وذكرِ القولِ والعملِ.

وجاء بعدَهم أستاذُنا الدكتور وهبةُ الزّحيلي (ت:2015م)، فعرّفه بقوله: «واصطلاحًا: هو ما اعتادَه النّاسُ، وساروا عليه من كلِّ فعلٍ شاعَ بينهم، أو لفظٍ تعارفُوا على إطلاقِه على معنًى خاصٍّ لا تألفُه اللّغةُ، ولا يتبادرُ غيرُه عند سماعِه»(20). ويمتازُ هذا التّعريفُ بالوضوحِ والشُّمول، وربّما يؤخذُ عليه أنّه طويلٌ، وأنّه غيرُ شاملٍ بقوله «ما اعتاده النّاسُ»، فهذا يقتصرُ على العُرفِ العامِّ في كلِّ البلاد، ولكنَّ بعضَ الأعراف تكونُ خاصّةً بأقوامٍ معيّنين، أو ببلادٍ معيّنةٍ، أو أهلِ مهنةٍ أو حرفةٍ، وهي تدخلُ في مُسمّى العُرف شرعًا.

*** التّعريفُ المختارُ وبيانُه:**

من خلال التّعريفاتِ السّابقةِ، أضعُ التّعريفَ المختارَ المستفادَ منها جميعِها، دون ما انْتُقِدَتْ فيه، فأقول:

العُـرفُ: «عادةُ قومٍ أو جمهورِهم في استعمالِ لفظٍ بغير دلالتِه اللّغويّةِ، أو في القيامِ بعملٍ يُفهمُ المقصودُ منه عندَهم، وتُقرُّه العقولُ والطّباعُ السّليمةُ».

وهذا تعريفُ العُرف بنحوٍ عام، أيْ عرفِ أيِّ قومٍ، مسلمين أو غيرِ مسلمين. فإذا أردنا تحديدَ العُرف وتقييدَه بالشّرعِ الإسلاميِّ، وجبَ إضافةُ عبارةِ «ممّا لا يخالفُ نصًّا أو إجماعًا شرعيًّا» في آخره.

والتّعريفُ شاملٌ لنوعَي العُرف من حيث الموضوعُ، فهو قوليٌّ أو عمليٌّ، كما أنّه يشيرُ إلى العُرفِ الصّحيحِ والعُرفِ الفاسدِ، من خلال العبارةِ الإضافيّةِ الأخيرةِ التي تقيّدُه بالعُرفِ الشّرعيِّ، الذي لا يُخالفُ نصًّا أو إجماعًا.

الفرعُ الثّالث- المقاربةُ بين المعاني اللّغويّةِ للعُرفِ وبين دلالتِها القرآنيّةِ وصِلتِها بالمصطلحِ الفقهيِّ:

رأينا أنَّ للعُرف أربعةَ معانٍ لُغويّة؛ الأوّلُ: تتابُعُ الشّيء مُتّصلاً بعضُه ببعضٍ، كعَرف الفرس وموجِ البحر، والثّاني: السّكونُ والطّمأنينةُ، وهو المعرفةُ والعِرفانُ، والثّالث: الظّهورُ والوضوحُ. والرّابعُ: الجودُ وعملُ الخير والإحسان إلى النّاس، وهو أحدُ معاني (المعروف) الواردةِ في القرآنِ الكريم(21).

وإنّ كلمةَ (العُرف) الـواردةَ في قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعـراف:199]، تعني فعْلَ الخير والإحسانِ إلى الغير، كما سبقَ بيانُه، وليست بمعنَى العُرف الذي اصطلح عليه الفقهاءُ والأصوليّون فيما بعد. وهذا أمرٌ ينبغي الانتباهُ له جيّدًا؛ لأنّنا لو فسّرناها في الآية بالمعنَى الاصطلاحيِّ، لأدّى إلى خللٍ في أمرٍ عَقَديٍّ، وهو أنَّ الرّسولَ صلى الله عليه وسلم مأمورٌ بأن يأخذَ بما تعارفَ عليه النّاسُ في زمانه، والآيةُ مكّيةٌ، وقد كان أكثرُ أهلِ مكّةَ على الشّرك، ولهم عاداتٌ كثيرةٌ تخالفُ العقيدةَ والشّريعةَ، فليس منَ المعقول أن يأمرَه ربُّه عزَّ وجلَّ بالأخذِ بأعرافِهم، وقد كلّفَه بأن يهدمَ معتقداتِهم الباطلةَ وعاداتِهم الفاسدةِ، اللّهمّ إلاّ ما كان من مكارمِ الأخلاقِ، فقد بعثَه ليُقرَّه ويُتمّمَه.

وإلى اللّقاء مع تتمّة الدّراسة في الحلقة القادمة، بإذن الله تعالى.

الشيخ شعيب الأرناؤوط. وأخرجه النسائي وغيره بألفاظ متقاربة.

(11) التعريفات، السيد الشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني، ط1 (1421هـ-2000-م)، ص167.

(12) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج4، ص281.

(13) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج9، ص-239 240.

(14)مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص561.

(15) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص836.

(16)كشف الأسرار شرح المصنف على المنار، الحافظ النسفي، عبد الله بن أحمد، ج2، ص593، ط دار الكتب العلمية- بيروت. وللنسفي نفسه تعريف آخر قريب من هذا في كتابه «المستصفى» في فروع الحنفية،وهو ما تعزو إليه المراجع دون كشف الأسرار، وبعض المعاصرين نسبه إلى المستصفى للإمام الغزالي، وهو خطأ.

(17) مجموعرسائل ابن عابدين، ج2، ص114، وانظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص79.

(18) العرف والعادة في رأي الفقهاء، ص11-12، ط2 (1437هـ/ 2016م)، المكتبة الأزهرية للتراث.

(19) المدخلالفقهيالعام،ج1،ص141،ط9 (1418هـ/ 1998م)،دارالقلم- دمشق.

(20) أصولالفقهالإسلامي،ج2،ص104،ط21 (1436هـ/ 2015م)،دارالفكر- دمشق.

(21) للكاتب بحث مُحَكّم بعنوان (تأصيل نظرية المعروف في الشريعة الإسلامية وتوثيق صلتها بنظرية العرف في الفقه الإسلامي)، نُشر في مجلة (بحوث) التي تصدر في لندن عن مركز الدراسات والبحوث الاجتماعية، العدد (38).

دراسةٌ في البلاغةَ القرآنيّةِ

الأَصْوَاتُ والمَعَانِي: نحوَ نظريّةٍ في نجاعةِ الاستعمالِ الصّوتيِّ في القرآنِ الكريمِ

يُعدّ الإيقاعُ جزءًا لا يتجزأُ منَ المعنى، بل إنّه - حسبَ بعضِ الباحثين- قد يحملُ منَ الشّحنِ المعنويّةِ باعتباره دالاًّ ما لا يحملُه المدلولُ نفسُه (1) . ولقد نبّه أربابُ البلاغةِ الحديثةِ على أثرِ الإيقاعِ في العمليّةِ الحِجاجيّة، فهو بكونه يتوجّهُ بكلٍّ منَ العقل والرّوحِ، يخلقُ طريقًا ناجعًا لتقبّلِ الحجّةِ. حيث يرى ريبول أنَّ الإيقاعَ يولّدُ إحساسًا بالوضوحِ، حيث لا يكتفي بإطرابِ الرّوح فحسبُ، بل يعملُ على تجنيدِها...إنّه يضعُ قاطرةَ الأفكارِ على السّكةِ المناسبةِ ، ويبدو من كلامِه أنّه بقيَ وفيًّا لتصوّرِه الذي يرى في الأسلوبِ المتعةَ الأسلوبيّةَ لتمريرِ الحجّةِ حيث نذكرُ قولتَه الشّهيرةَ «إذا كانتِ الحجّةُ هي المسمارُ فإنّ الصّورةَ هي الطّريقةُ لدقّه (2) ، يتّفقُ في ذلك مع أرسطو (3) والذي يرى أنّ الإيقاعَ يساعدُ على جعل الكلامِ مؤثّرًا مُقنعًا.



د. رفعت الكنياري
باحث/ المغرب

حين يكونُ مناسبًا للغرضِ الذي استُعملَ فيه، والذي كان ألمعيًّا حين أشار إلى علاقـــةِ الإيقاعِ بالجنسِ أوِ النّمط، كما أشار إلى أنّ نجاعةَ الإيقاعِ مرتبطةٌ بالسّلاســةِ التي تدفعُ المتلقّيَ إلى التّفاعلِ مع الخطابِ وتمهّدُ له السّبيلَ لتقبّلِ الحجّةِ، هكــذا يكونُ أرسطو قد أوجدَ للإيقاعِ موقعًا داخلَ خطاطةِ الإقناعِ الإنسانيِّ.

ترتبطُ النّجاعةُ الحِجاجيّةُ للإيقاعِ الصّوتيِّ بالبعدِ الإنجازيِّ للنّصّ، وذلـك من خلال المعرفةِ بنوايا المتكلّمِ الإنجازيّةِ، وإلاّ صار نغمًا تجميليًّا لا غرضَ منه سوى حدوثِ الإطـرابِ، لذلك فإنَّ بيرلمان ربطَ التّأثيرَ الحِجاجيَّ للمحاكاة الصّوتيّةِ وهي شكلٌ إيقاعيٌّ، يعملُ على وصفِ الأشياءِ والأفعالِ بإصدارِ أصواتٍ شبيهةٍ بها كما تدلّ كلمةُ «أفّ» على التّضجّر في العربيّةِ. ربطَ بيرلمان التّأثيرَ الحِجاجيَّ ببنيةِ المتكلّمِ الإنجازيّةِ، حيث لا يحدّدُ وظيفيةَ استعمالِ هذه الوجوه من عدمِها، أي من استعمالِها على وجهِ أنّها نغمٌ تجميليٌّ إلاّ: القصدُ منَ التّقليدِ (5).

هذا وإذ لم نلبثْ نذكرُ بأنّ البلاغةَ عندنا تشتغلُ في منطقةٍ بين الحسِّ والعقلِ وأنَّ الأسلوبَ هو الجسرُ الذي يصلُ بين العقل والحسِّ. وأنّ التّصوّرَ البلاغيَّ العربيَّ القديمَ لا يرى فصلاً بيّنًا بين الحِجاج والتّخييلِ، ويؤكدُ ما نذهبُ إليه تلقّي العربيِّ للقرآن، وتأثّرُه به، يقول الرّافعيّ: «فلما قُرئَ عليهم القرآنُ، رأوا حروفَه في كلماته وكلماتِه في جُمله، ألحانًا لُغويّةً رائعةً كأنّهـا لائتلافها قطعةٌ واحدةٌ، قراءاتُها هي توقيعُها فلم يفُتْهم هذا المعنى وأنّه أمرٌ لا قبلَ لهم به» (6). لقدِ افتتن العربُ بالقرآنِ الكريم لِما فيه من قوّةٍ ونجاعةٍ تنبعُ مــن تضافُرِ مجموعةٍ منَ المكوّناتِ البلاغيّةِ مُتواشجةٍ. ولعلَّ تناسبَ الألفاظ مــع المعاني كان مدخلاً حجاجيًا هامًّا كرّسَ النّجاعةَ الحِجاجيّةَ للقرآن الكريم.

لقد عُنيَ البلاغيُّ العربيُّ بقضيةِ وظيفيّةِ الصّوت خاصّةً في القرآن الكريم، حيث نعثرُ في تراثِ ابنِ



جنّي وابنِ فارس والسّيوطيِّ على نظريّةٍ شبهِ كاملةٍ في وظيفيّةِ الألفاظِ ودلالتِها الحِجاجيّةِ على المعنى. حتى ذهب السّيوطيُّ إلى «أنّ أصلَ اللّغاتِ كلِّها إنّما هو منَ الأصواتِ المسموعةِ كدويِّ الرّعدِ وحنينِ الريح، وخريرِ المياه (7) »، وهكذا يربطُ العربيُّ بين اللّفظِ ودلالتِه حيث يجعلُ في عين اللّفظِ مكوّنًا بنيويًّا يجعلُه مناسبًا للمقول، وهو ما يُضفي عليه بطبيعةِ الحال طابعَ النّجاعةِ، يقول ابنُ جنّي «وذلك أنّهم كثيرًا ما يجعلون أصواتَ الحروف على سمْتِ الأحداثِ المعبّرِ عنها». (8)

لقدِ اهتمَّ البلاغيُّ العربيُّ بالبعدِ الصّوتيِّ في القرآن الكريم حيث اكتشفَ وجوهًا بلاغيّةً مرتبطةً بالإنجازِ الصّوتيِّ، كالمدِّ والفاصلةِ والجناسِ...وأخرى مرتبطةٌ بدلالات الحروفِ والألفاظِ؛ ومن ذلك محاولتُه خلقَ اتّساقٍ بين الحروفِ المقطّعةِ فـي أوّلِ السّور والمعاني التي تحكمُ

ترتبطُ النّجاعةُ الحِجاجيّةُ للإيقاعِ الصّوتيِّ بالبعدِ الإنجازيِّ للنّصّ، وذلك من خلال المعرفةِ بنوايا المتكلّم الإنجازيّة، وإلّا صار نغمًا تجميليًّا لا غرضَ منه سوى حدوثِ الإطرابِ

السّورةَ. وليس غريبًا هذا البعدُ الوظيفيُّ في النّظرِ إلى هذه المكوّناتِ الصّوتيّةِ، فالبلاغيُّ لا يعرفُ معنى الأدبِ الخالصِ، وخاصّةً وهو يشتغلُ بالقرآن الكريم وهو كتابُ تشريعٍ وإفحامٍ للخصوم وإقناعٍ للنّاس.

ويؤكّدُ ابنُ جنّي أنّ هذه الوظيفيّةَ هي من طبعِ العربيِّ الأصيل، حيث عُرف عنِ العرب عنايتُها بألفاظِها، «فإنّها لمّا كانت عنوانَ معانيها وطريقًا إلى إظهار أغراضِها ومراميها، أصلحوها ورتّبوها وبالغُوا في تحبيرِها وتحسينِها، ليكونَ ذلك أوقعَ في السّمعِ، وأذهبَ بها في الدّلالةِ على القصدِ، ألا ترى أنَّ المثل إذ كان مسجوعًا لذَّ لصاحبِه فحفظَه، فإذا هو حفظَه كان جديرا باستعماله»، (9) هذه القولةُ والتي تكرّرت في الخصائص بأشكالٍ مختلفةٍ، تلخّصُ نظريةً لابن جنّي تُعنى بـ«تصاقبِ الألفاظِ لتصاقبِ المعاني»، وقد حشدَ للاستدلال على هذا التّصاقُبِ والتّناسُبِ ثلّةً منَ الأمثلة بيّن من خلالِها الكيفيّةَ التي يكونُ بها الصّوتُ والحرفُ في الكلمة ذا طابعٍ وظيفيٍّ، ونستشفُّ من كلامه ملامحَ هذه النّظريةِ الوظيفيّةِ:

• اكتشف ابنُ جنّي أنَّ «الترتيب» جزءٌ مهمٌّ من بناء القولِ الحِجاجيِّ.

وهـذا يجعلُنا نعتقدُ أنّه يرى أنّه لا ينفكُّ عنِ الإيجاد.

• لم يفصلِ ابنُ جنّي بين البُعدَين العاطفيّ والعقليّ، بين الباطوسِ واللوغوس، فجعل كليهما مدخلًا من مداخـــلِ تحقيقِ النّجاعةِ الحِجاجيّةِ، ولم ينظرْ إليهما إلّا مُتواشجين لا يقومُ أحدُهما من دون الآخر.

• ربطَ ابنُ جنّي بين التّرتيبِ المتقنِ، والتّخيرِ المعَقْلنِ، وبين إيقاعِ السّجعِ المطربِ، وبين حفظِ المثل لاستعماله، ولا يكونُ استعمالُ المثلِ إلّا لحجّةِ السّلطةِ غالبًا، فكان أن أقرَّ بوظيفيّةِ الآليات التي سبق أن فَصّل الكلامَ فيها.

ولبيان حقيقةِ هذه الملاحظات، نسوقُ تحليلًا له لآيةٍ قرآنيةٍ رأى أنّ مدارَ النّجاعةِ فيها على اختيارِ لفـــظٍ مناسبٍ في مكانٍ مناسبٍ؛ لِما في هذا اللّفظ من تناسبٍ مع المعنى، يقول: «من ذلك قولُ الله سبحانه: {أَلَم تَرَ أَنَّا أَرسَلنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُم أَزّا ٨٣} [مريم: 83]، أي تُزعجُهم وتُقلقُهم، فهذا في معنى



إبراهيم أنيس

تهزُّهم هزًّا، والهمزةُ أختُ الهاء، فتقاربُ اللّفظاتِ لتقارب المعنيَين، وكأنّهم خصُّوا هذا المعنى بالهمزة لأنّها أقوى منَ الهاء، وهذا المعنى أعظمُ في النّفوس منَ الهزِّ؛ لأنّك قد تهزُّ ما لا بالَ له كالجذعِ وساقِ الشّجرة ونحوِ ذلك» (10)، أبرزَ ابنُ جنّي في تحليله كيف أنَّ الفعلَ «تؤز» أنجعُ في الاستعمال من «تهزّ»؛ لذلك فإنّ استعمالَ «تؤزّ» يُسهمُ في تجليةِ المعنـى والاحتفالِ به أكثرَ أي تأطيرِه. وذلك أنّ قوّةَ حرف الهمزة أسهمَ جوهريًّا في صناعةِ نجاعة الملفوظ، حيث أضاف قوّةُ حجاجيّةُ على فعل الهزِّ، و كأنّنا إزاءَ التّصوّرِ الآتي:

هـز: تـدلُّ علـى التّـفاعلِ أو عـدمِ التّفاعلِ

+

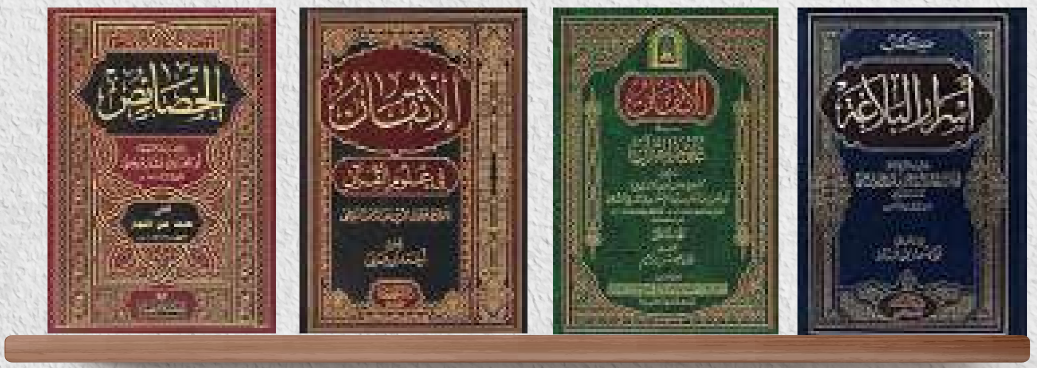
الهمزة: الشُّحنةُ الدّلاليّةُ الموجبةُ

=

أز: وجهُ الملفوظِ حجاجيًا نحو المعنى الأنجعِ وذلك بتقويتِه بقوّةِ الـهـمـزة، وهـكـذا أصـبـحَ يـدلُّ على التّفاعلِ.

هكذا يتحوّلُ إيقاعُ الهمزةِ القويُّ إلى جزءٍ لا يتجزّأُ منَ النّجاعةِ الحِجاجيّةِ للكلمةِ، وعليه لا يبقَى هذا الاختيارُ مجرّدَ مساعدٍ يمرّرُ الحجّةَ فحسبُ بل هو يُسهمُ جوهريًا في صناعةِ بلاغةِ الآية ونجاعتِها، حيث يبدو لنا – والله أعلم – أنّك لا تحتاجُ إلى قامـــوسٍ ولا شارحٍ لتعرف معنَى الآية وتتخيّلَه في ذهنك؛ فتعرفَ كيف تتلاعبُ الشّياطين بالكافرين، فتُحوّلهم إلى دُمًى متحركةٍ تتلاعبُ بهم كيف تشاءُ، وهذا كفيلٌ بأن يجعـلَ كلَّ عاقلٍ لا يبتغي مصيرًا كمصيرِهم وهو غرضُ الآيةِ في البدايةِ وفي المختَتم.

يبدو لنا جليًّا أنَّ الطابعَ التّأطيريَّ (11) للوجوه البلاغيّةِ القائمةِ على





التّصويتِ، يجعلُها تشاركُ مباشرةً ما لدَيها من نجاعةٍ صوتيّةٍ قد تعلو إلى أن تصيرَ صفةً حِجاجيّةً جوهريّةً فيها. إنَّ التّمظهُراتِ البارزةَ لهذه الوجوه تؤدّي إلى احتفالٍ بالمعنى المرادِ توصيلُه وتقويةُ حضوره في ذهن المتلقّي، فكلمةُ «صرصر» التي وُصفت بها الرّيحُ التي أهلكت عادًا، تحملُ دلالاتِ الشّدّةِ من نفسِها، يقولُ الزّمخشريُّ: «الشَّديدةُ الصّوتِ لها صرصرةٌ، وقيل الباردةُ منَ الصّرّ كأنّها التي كُرّرَ فيها البردُ وكثُرَ، فهي تحرقُ لشدّةِ بردِها»(12)، لقد تنبّه الزّمخشريُّ إلى طابعِ المبالغة في المعنى عبْرَ التّكرار، فإذا كانت الصّرّ هي الرّيحَ الباردةَ فإنَّ «الصّرصر» هي ريحٌ فيها بردٌ مضاعفٌ. لقد عمل التّكرارُ هنا على مضاعفةِ المعنى «كأنّها التي تكرّر فيها البردُ وكثرَ فهي تحرقُ لشدّة بردِها» (13). فيبدو أنَّ كلمةَ صرصر ذاتُ صفةٍ حِجاجيّةٍ جوهريّةٍ تجعلُ الشّحنةَ الدّلاليّةَ في أقصاها. وغيرُ خافٍ أنَّ سياقَ الآيةِ هو التّحذيـــرُ ممّا آلت إليه كلٌّ من ثمودَ وعادٍ لمّا كذّبوا بآيات ربّهم، فيكونُ السّياقُ سياقَ وعيدٍ، وقصدُ المتكلّم قصدَ تهديدٍ. وعليه فإنَّ

ربطَ ابنُ جنّي بين التّرتيبِ المتقنِ، والتّخيرِ المعَقْلن، وبيـن إيـقـاعِ الـسّـجـع الـمـطـرب، وبـيـن حـفـظ المثل لاستعماله، ولا يكونُ استعمالُ المثلِ إلاّ لحجّةِ السّلطةِ غالبًا

استعمالَ كلمةٍ بقوّةٍ «صرصر» له نجاعةٌ حِجاجيّةٌ تجعلُ معنى العذابِ الشّديدِ الذي يمكنُ أن يلاقيَه المكذّبُ بآيات الله مضاعفًا في ذهنه، وفي ذلك يقولُ ابنُ جنّي: «فكلّما ازدادتِ العبارةُ شبهًا بالمعنَى كانت أدلَّ عليه وأشْهدَ بالغرض فيه» (14).

يبدو أنَّ نظريةَ النّجاعةِ في استعمال الألفاظِ والحروفِ والأصواتِ في سياقاتٍ حجاجيّةٍ مخصوصةٍ قدِ اكتملت معالمُها. ويبدو أيضًا أنَّ الاحتفالَ الصّوتيَّ القائمَ على تفخيمِ مظاهرَ معيّنةٍ منَ الخطاب، لتوجيه الدّلالةِ نحوَ حدِّها الأقصى في النّجاعةِ، قد يظهرُ بصفةٍ جوهريّةٍ في ملفوظاتٍ معيّنةٍ، وقد يظهرُ أيضًا بوصفِه جزءًا من استراتيجيةٍ نصيّةٍ كبرى يعملُ فيها الجانبُ التّصويتيُّ متواشجًا مع غيره منَ الآليات الأخرى في خلقِ آثارٍ أو إبرازِ مناطقَ أو حتى إحداثِ أثرٍ انفعاليٍّ يسهّلُ تمريرَ الحجّةِ في بعض الأحيان، هذه الأدوارُ الحجاجيّةُ تتفاوتُ في الضّمور والظّهور من وجهٍ إلى آخرَ، ومن مقامٍ إلى آخرَ، وذلك حسبَ معطياتٍ متشعبةٍ كثيرةٍ سنعملُ على تجليتِها وبيانِ أدوارها في ما سيأتي من هذا المبحثِ وذلك بالوقوفِ على الاحتفالِ الصّوتيِّ في كلٍّ منَ المدّ المعنويِّ والفاصلةِ والجناس.

التّمظهُراتُ البلاغيّةُ للتّأطيرِ التّصويتيّيعرّفُ السّيوطيُّ المدَّ بأنّه «زيادةُ مطٍّ في حرف المدِّ على المدِّ الطّبيعيِّ» (15) فيظهرُ أنّ المدَّ إبرازٌ واحتفالٌ بمظهرٍ من مظاهر الخطابِ القرآنيِّ بتجليةِ كلمةٍ معيّنة عن طريق إعطائِها مساحةً صوتيّةً أكبرَ تجعلُها ملحوظةً بشكلٍ لافتٍ. وقد عدّد السّيوطيّ سببين اثنين للمدِّ: الأوّلُ لفظيٌّ والثّاني معنويٌّ؛ فأمّا اللّفظيُّ

فإنّه أقربُ إلى الإنجازِ الصّوتيِّ الصّرفِ الذي يتعلّقُ بفصاحةِ ألفاظِ القرآن وبإعطاءِ الحروفِ حقَّها منَ النّطق لئلا تتشاكلَ، وله حرفان هما الهمزةُ والسُّكونُ. وفي ذلك يقولُ ابنُ جنّي كاشفًا عنِ الأسباب الدّاعيةِ للمدّ: « ألا ترى أنَّ الألفَ والياءَ والواوَ اللّواتي هنَّ حروفُ المد توأمٌ كاملٌ قد تجدُهنّ في بعض الأحيان أطولَ وأتمّ منهن في بعض... فإذا وقعت بعدهنّ الهمزةُ أوِ الحرف المدغمُ ازددْنَ طولاً وامتدادًا» (16)، وهو في نظرنا -المدَّ اللّفظيَّ- عاملٌ صوتيٌّ مرتبطٌ بمظاهـر إتقانِ القرآن الكريم، وإيفاءِ حروفِه حظَّها الأوفى وأحكامَها الخاصّةَ في القراءة. هـذا فضلاً عنِ البُعدِ الدّينيِّ، الذي يجعلُ القراءةَ بالمدِّ واجبًا مرتبطًا بتلاوة القرآنِ على الوجه الصّحيحِ، وأحكامُه كلُّها ذاتُ بعدٍ قرائيٍّ تؤسّسُ لجودةِ القراءةِ.

يقول إبراهيمُ أنيس:«أمّا السّرُّ في هذه الإطالة فهو -كما يبدو لي- الحدسُ على صوتِ اللّين وطولِه لئلا يتأثّرَ بمجاورة الهمزةِ أوِ الإدغام؛ لأنَّ الجمعَ بين صوت اللّين والهمزة كالجمعِ بين متناقضَين» (17). فالمدُّ بذلك ليس وجهًا وظيفيًّا تداوليًا، أي أنّه لا يدخلُ في باب دراستِنا لعدم ارتباطِه بالإنجازِ البلاغيِّ، ولعدم حضورِ فعلِ القصدِ فيه (18). ولكن ما يَعنينا في مقامنا هذا هو ما أُطلق عليه المدُّ المعنويُّ؛ وهو مدٌّ دلاليٌّ مرتبطٌ بالزّيادة في المعنى تعظيمًا وتفخيمًا له، قال السّيوطيّ: «وأمّا السّببُ المعنويُّ، فهو قصدُ المبالغة



ابن جني

في النّفيِ وهو سببٌ قويٌّ مقصودٌ عند العربِ» (19). فهو وجهٌ تأطيريٌّ يرومُ تفخيمَ مظهرٍ خطابيٍّ معيّنٍ بغرضٍ تداوليٍّ مرتبطٍ بغاية القرآن الأولى وهي التّوحيدُ، يقول «إنَّ ما يُسمّى مدَّ المبالغة لأنّه طلبٌ للمبالغة في نفي إلهيةِ سوى الله سبحانه». ثمّ قال: «وهذا مذهبٌ معروفٌ عند العرب؛ لأنّها تمدُّ عند الدّعاءِ وعند الاستغاثةِ، وعند المبالغةِ في نفي الشّيء، ويمدّون ما لا أصلَ له بهذه العلّة» (20).

إنَّ علّةَ المدّ هنا وظيفيّةٌ صرفٌ، حيث جعلَها السّيوطيّ في القرآن مرتبطةً بألفاظ التّوحيدِ كقوله عزّ وجلّ: {لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ} [الصافات: 35]، {...لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [البقرة: 163] و{... لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ} [الأنبياء: 87] (21)».

فموطنُ نفيِ الألوهية عن غيرِ الله موطنٌ يحتاجُ وقفـةً متأنّيةً واحتفالاً صوتيًّا يؤشّرُ على أهميةِ الملفوظ الدّالِ



السيوطي

على هذا المعنى، وقد لجـأ السّيوطيُّ في تفسيره لنجاعةِ هذه الفاعليةِ الصّوتيةِ إلى استحضار مذهبِ العربِ في مدِّ الصّوت؛ حيث كانتِ العربُ تُقوّي حضورَ بعضِ المعاني في الخطاب بمـدِّ الصّوتِ في إنجازِها. وهي كلُّها معانٍ تحتاجُ تداوليًا إلى ذلك الاحتفالِ كالدّعاءِ والاستغاثةِ والمبالغةِ، فلا يُعقلُ أن يدعوَ الإنسانُ وهو خاملُ الصّوتِ كسولُ الأداءِ، بل عليه أن يُبديَ الافتقارَ التّامَّ والرّغبةَ الجامحةَ وغيرَها منَ المحفّزاتِ التــي تزيدُ من درجةِ نجاعةِ خطابِه؛ وقدِ استُخرجَ من ذلك قاعدةٌ تداوليةٌ هامّةٌ هي أنَّ العربَ يمدّون ما لا أصلَ له بهذه العلّة؛ فأُخرجَ المدُّ من دائرة ارتباطِه بحروفٍ مخصوصةٍ ومواضعَ محدّدةٍ إلى أن يصيرَ إنجازًا تصويتيًا مُدعمًا للفعلِ التّخاطبيِّ كي يتحقّقَ بأقصى غاياتِ الفاعليّةِ، ولو أنه تتبّعَ مواطنَ تطبيقِ هذه القاعدةِ الذّهبيةِ في القرآن الكريم لظفرنا



إنّ المدَّ إبـرازٌ واحتفالٌ بـمـظـهـرٍ مـن مظاهـر الخطابِ القرآنيّ بتجليةِ كلمةٍ معيّنة عن طريق إعطائِها مساحةً صوتيّةً أكـبـرَ تجعلُها ملحوظةً بشكلٍ لافتٍ

بعلمٍ غزيرٍ في هذا البابِ، يربطُ بين معانٍ شتّى تحقّقَ فيها مدٌّ لا أصـلَ له، بهذه العلّةِ (22).

2. التَّجنيسُ

يُسمَّى جناسًا أيضًا، وقدِ اخترنا لفظَ «التّجنيس» كما اخترنا لفظَ «التّصويت» من قبلُ للدّلالةِ مرّةً أخرى على الفعلِ القاصدِ قصدًا تداوليًا، لا يكتفي باعتبارِ الظّواهرِ البلاغيةِ في القرآن مجرّدَ حليةٍ تزينيةٍ تعملُ على تحسين المعنى وتجويدِه؛ بل يعمدُ إلى ربط هذه الظّواهرِ البلاغيةِ بمقامِ تحقُّقها سواءٌ على مستوى الرّسالةِ العامّةِ التي يرومُ القرآنُ الكريم إيصالَها أم على مستوى مقام الآيةِ والسّورةِ وغيرِها منَ الملابساتِ النّصيّةِ التي تحيطُ بتحقّقِ هذا الوجهِ البلاغيِّ.

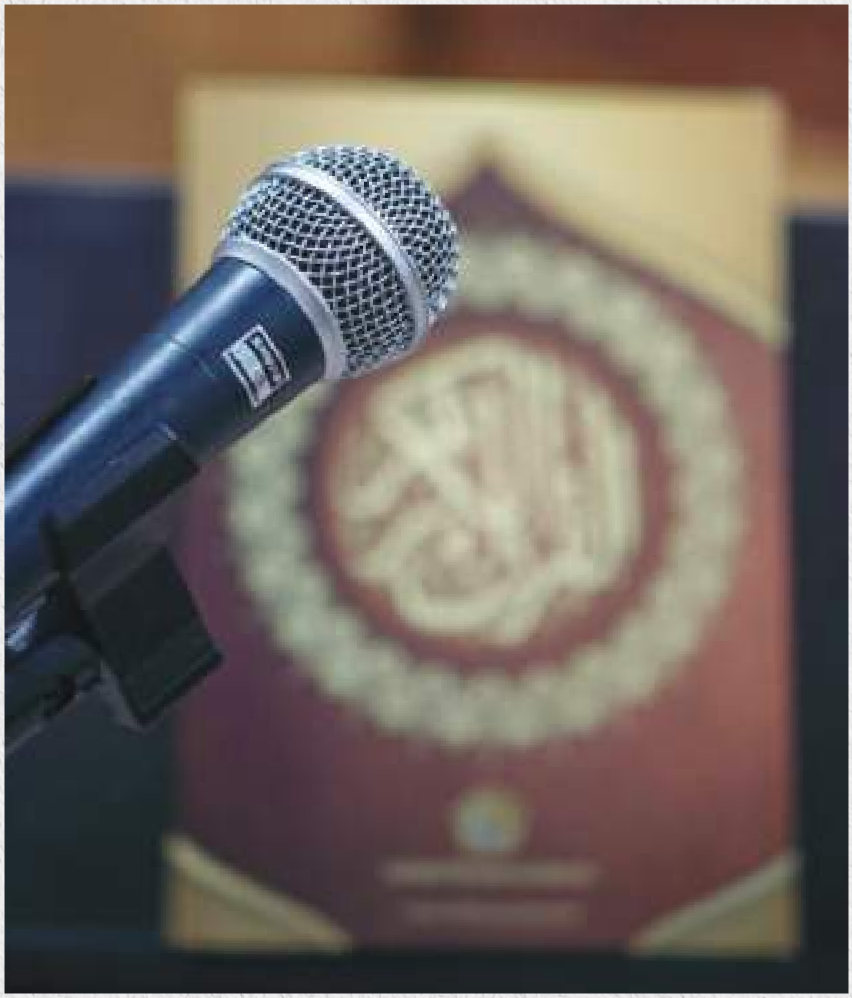
لا يفوتُنا في مقامنا هذا التّنصيصُ على البعدِ التّصنيفيِّ الذي تميّزت به البلاغةُ العربيّةُ فنجدُ في باب التّجنيس كما في غيره منَ الأبوابِ حشْدًا للأمثلةِ وتفريعًا للأنواع، بيْدَ أنّنا لا نعدمُ في كثيرٍ منَ الأحيان تأويلاتٍ بلاغيّةً توضّحُ ميلَ البلاغيِّ العربيِّ القديمِ إلى فهمِ الظّواهرِ البلاغيّةِ فهمًا تداوليًا مرتبطًا بتحقُّقها النّاجعِ. ومن ذلك مثلا أخذُه باعتبارِ الغرضِ من استعمال التّجنيس. يقولُ السّيوطيُّ في الإتقان: «وفائدتُه الميلُ إلى الإصغاءِ إليه، فإنَّ مناسبةَ الألفاظ تُحدثُ ميلاً وإصغاءً إليها، ولأنَّ اللّفظَ المشتركَ إذا كمُلَ على معنًى ثمّ جاء والمرادُ به آخـرُ كان للنّفس تشوّقٌ إليه» (23).

إنَّ تعريفَ السّيوطيّ للجناسِ يبدو لافتًا للانتباه من وجهَين اثنين:

الأوّلُ أنَّ السّيوطيَّ انتقل مباشرةً؛ وبعد تعريفٍ مقتضبٍ جدًّا للجناس حيث نصَّ علـى أنّه «تشابهُ اللّفظين في اللّفظ» (24)؛ إلى تحديدِ الفائدة من استعمالِ هذا الوجهِ البلاغيّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى نسقِ تفكيرِ البلاغيِّ، الذي لا ينفكُّ فيه الوجهُ البلاغيُّ عن وظيفتِه.

أمّا الوجهُ الثّاني اللّافتُ للانتباه أيضًا فهو قرنُ الفائدةِ بالتّشويق، والحــالُ أنَّ التّشويقَ والمتعةَ النّفسيّةَ منَ الوسائلِ الحِجاجيّةِ النّاجعةِ التي تستندُ إلى حجّةِ الباتوس. إنَّ الإيقاعَ المترتّبَ على «مناسبةِ الألفاظِ»، لا يكتفي بإطرابِ الرّوحِ فحسبُ بل يعملُ على تجنيدِها... إنّه يضعُ قاطرةَ الأفكارِ على السّكةِ المناسبةِ، كما يشيرُ إلى ذلك روبول (25). نستنتجُ من ذلك أنَّ طبيعةَ التّفكير البلاغيِّ في الظّواهرِ البلاغيّةِ في القرآن كانت لا ترى فصلاً بيّنًا بين متعةِ الرّوحِ وإقناعِ الفكر، فكلاهما وجهٌ لعملةٍ واحدةٍ هي حصولُ التّشرّبِ المرادِ للمعاني القرآنيّةِ، وتمهيدًا للتّخلّقِ التّامِّ بهذه المعاني السّاميةِ؛ وقد نهجَ القرآنُ في سبيل حصولِ هذا التّشرّبِ كلَّ وسائلِ الإقناعِ الخطابيِّ. وتنبّه المتلقّي العليم –البلاغيِّ– لوظيفيّةِ هذه الظّواهرِ وأنّها ليستِ البتّةَ مجرّدَ

لقد كان تحليلُ العالمِ البلاغيِّ القديمِ للوجوه تحليلاً «بلاغـيًـا»؛ وذلك بالمعنى الـذي يحقّقُ مقاربتَها تارةً من منظورٍ جماليٍّ، وتـارةً من منظورٍ حِجاجيٍّ، أو مقاربتَها تــارةً ثـالـثـةً مـن هذين المنظورَين مجتمعَين



أدواتِ زينةٍ مقصودةٍ لذاتِها.

لقد كان تحليلُ البلاغيِّ القديمِ للوجوه تحليلاً «بلاغـيًـا»؛ وذلك بالمعنى الذي يحقّقُ مقاربتَها تارةً من منظورٍ جماليٍّ، وتارةً من منظورٍ حِجاجيٍّ، أو مقاربتَها تارةً ثالثةً من هذين المنظورَين مجتمعَين (26)، مع حضورِ عاملٍ تداوليٍّ هامٍّ في رؤيتهم البلاغيّةِ هي أنَّ المقصودَ هو وجوهُ استثمارِ هذه الوجـوه خطابيًا، سواء أكان هذا الاستثمارُ مناطُه إحداثُ لذّةٍ نفسيّةٍ من خلال كشفِ التّناسباتِ الصّوتيةِ التي تَهواها النّفسُ وتطربُ لها (27) أم من خلال إحداثِ صدًى داخليٍّ، خلالَ إحداثِ استبدالٍ سحريٍّ يعملُ على تَوريةِ المعنى، من أجل إرجاءِ استدعـائه (28). وهو مضمونُ الكلامِ نفسِه الذي نقلَه السّيوطيُّ في عمليّةِ إحداثِ الميلِ النّاتجِ عن مناسبةِ الألفاظِ، والتّشوّقِ النّاتجِ عن هذه العمليّةِ «التّصويتية» التي ترومُ خلْقَ حضورٍ من خلال احتفالٍ تصويتيٍّ.

إنَّ تصوّرًا كهذا يرى في التّأثير الأسلوبيِّ قدرةً على إثارة القلوبِ، ويعتبرُ ذلـك استثمارًا وظيفيًّا للتّجنيس لم يكن ليفعلَ عامل السّياقِ الحاسمِ في نجاعة هذه الوظيفةِ، حيث انتهت البلاغةُ الحديثةُ إلى أنَّ الوجوهَ البلاغيّةَ لا تمتلكُ في ذاتها تأثيرًا عاطفيًا بلِ السّياقُ هو الذي يمنحُها خصائصَها (29) . فهل كان يحكمُ البلاغيَّ القديمَ تصورٌ كهذا، وهل كان للسّياق أثرٌ في النّظر للجناسِ على أنّه وجهٌ بلاغيٌّ متحقّقٌ في نصٍّ مقدّسٍ الغايةُ منه هدايةُ البشريةِ؟

للإجابةِ عنِ التّساؤلات السّابقةِ سنقفُ عند نصٍّ أورده الزّركشيُّ في البرهان نقـلاً عنِ الفخرِ الرّازي في تفسيره أنّ كاتبًا رأى أنَّ قولَه عز وجل: {أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥} [الصافات: 125] كان سيكون أبهى لو رُوعيَ فيه التّجنيس، أي أن يستعملَ

المتكلّمُ تدْعون بدلاً من «تذرون» (30) وفي هذا الـرأي - حسبَ البلاغيّيـن الذين ردّوا عليه وبيّنوا خطأه - تكلُّفٌ للتّجنيس ومراعاةٌ له لذاته وظنَّ أنّ المزيةَ إنّما هي في ذات «الوجهِ البلاغيِّ» بغضِّ النّظر عن سياقِ تحقّقِه. والحالُ أنَّ البلاغيَّ العربيَّ تنبّه على أنَّ وجهًا بلاغيًا كالتّجنيس قد يكونُ منَ الأحسن تركُه في مواضـــعَ حيث نصَّ الزّركشيُّ على أنّهم «تركوه عند قوّةِ المعنى بتركِه»(31). ذلك أنَّ «مراعاةَ المعاني أولى من مراعاةِ الألفاظِ فلو كان «أتدعون» و«تدعون» كما قال هذا القائـلُ لوقعَ الإلباسُ على القارىء فيجعلُها بمعنًى واحدٍ تصحيفًا منه» (32) وفي هذا الـرّأي مـا يعزّزُ ما نذهبُ إليه في وظيفةِ التّحليلِ البلاغيِّ القديم واقترانِ استعمالِ الوجـــوه البلاغيّةِ بالسّياق وقرائنِه، وأنَّ سياقَ التّحقّقِ هو الذي يحقّقُ نجاعةَ استعمالِ أسلوبٍ من غيره. ففي كلامِ الزّركشيِّ ما ينصُّ على أنّه يفكّرُ انطلاقًا من مفهومِ الاختيارِ البلاغيِّ والذي يعتبرُ اختيارَ مكوّنٍ بلاغيٍّ أو تركَه إجراءً تداوليًا يفترضُ أن يقنّن سياقَ تحقّقِ الملفوظات. لذلك فقد علّلَ الزّركشيُّ اختيارَ «ترك التّجنيس» بكوْنِ التّركِ أبلغَ منَ الاستعمال؛ وذلك لِما في استعمال التّجنيس هنا من مخاطرِ التّصحيف وضياعِ بهاءِ المعنى ورونقِه.

وانظرْ إلى قولِ الجُرجانيّ: «إنَّ ما يُعطي التّجنيسَ منَ الفضيلة أمرٌ لم يتمَّ إلّا بنصرةِ المعنى إذ لو كان باللّفظ وحدَه لما كان فيه مُستحسنٌ، ولما وُجد فيه إلّا معيبٌ مُستهجنٌ، ولذلك ذمَّ الاستكثارَ منه والولوعَ به» (33)؛ تقعُ بنظرك على حقيقةِ ما سلفَ. وترى وإن أقررناه من كوْنِ البلاغةِ العربيّةِ القديمةِ كانت تراعي جانبَ التَّداوُلِ بدرجةٍ أُولــى؛ فلا استحسانَ للتّجنيس إلّا حين يكونُ مناسبًا للمعنَى معضِدًا له، لا مقصودًا لذاته ولا لزينةٍ تُحسّنُ معنَى النّصّ.

---

(01) صولة عبد الله، الحجاج في القرآن، ص 50.

(02) Reboule, Introduvtion a la rhétorique, p124

(03) Ibid, p122

(04) أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ص ص 204-206.

(05) Ibid, p236

(06) مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص 17.

(07) السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ج1، ص 15.

(08) ابن جني، الخصائص، ج2، ص152.

(09) ابن جني، الخصائص، 216.

(10) نفسه، ج 2، ص146.

(11) يعرف بيرلمان هذه التقنية بكونها تعمل على تقوية حضور الهدف من الخطـاب في الوعي

(12) الزمخشري، الكشاف، ج29، ص1134.

(13) نفسه.

(14) الخصائص، ج2، ص154.

(15) السيوطي، الإتقان، ج 2، ص 616.

(16) ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، صص 19-20.

(17) أنيس إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص 158.

(18) يشير بيرلمان إلى أن الوجوه البلاغية ذات الطابع الصوتي –مثل لها بالمحاكاة الصوتية– لايكون لها تأثير حجاجي إلا إن أخذنا بعين الاعتبار غرض المتكلم من استعمالها ينظر Traité de l'argumentation p 236 .

(19) الإتقان ج2، ص 620.

(20) نفسه.

(21) نفسه.

(22) ومن ذلك دلالة الترهيب في قوله عز وجل: {الحاقة ما الحاقة} الحاقة الآية 1.

(23) نفسه، ص1756 .

(24) نفسه.

(25) O. Reboule, introduction a la rhétorique, p124.

(26) مشبال محمد، بلاغة صور الأسلوب وآفاق تحليل الخطاب، البلاغة والخطاب، تنسيق محمد مشبال، ص 105.

(27) O. Reboule, introduction a la rhétorique, p125

(28) J. j. Roubrieux, La Rhétorique: histoire et enjeux, p84.

(29) مشبال محمد، مرجع سابق.

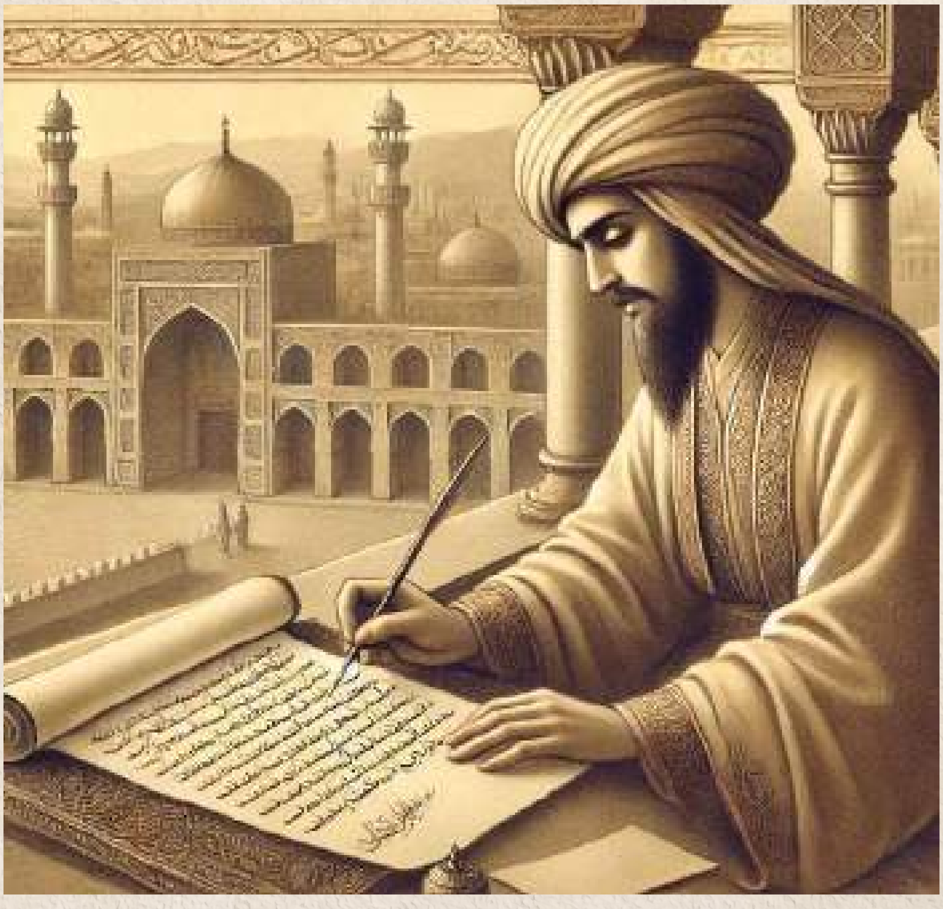
(30) الزركشي، البرهان، ج3، ص 499.

(31) نفسه.

(32) نفسه.

(33) الجرجاني، أسرار البلاغة، ت رشيد رضا، ص5.

الحكايةُ فيها إنَّ



تَعُودُ قِصَّةُ المَثَلِ إلى خِلافٍ حَدَثَ بَيْنَ أَحَدِ الحُكّامِ ورَجُلٍ عُرِفَ بِقُوَّةِ فِطْنَتِهِ، فَهَرَبَ الرَّجُلُ مِنَ المَدينَةِ خَوْفًا على حياتِهْ، فَطَلَبَ الحاكِمُ إلى كاتِبِهِ أَنْ يُرْسِلَ رِسالَةً إلى الرَّجُلِ لِيَسْتَدْرِجَهُ إِلَيْهِ ثُمَّ يَبْطِشَ بِه، وَكانَ الكاتِبُ صَدِيقًا لِلْرَّجُلِ فَلَمْ يَرْضَ أَنْ يُلْحِقَ الأَذَى بِصَديقِهِ، فَخَتَمَ رِسالَتَهُ بِعِبارَةِ (إِنَّ شاءَ اللهُ تَعالى) وَوَضَعَ شَدَّةً عَلى النّونِ السّاكِنَةِ، وَهُنا فَطِنَ الرَّجُلُ أَنَّ صَدِيقَهُ يُحَذِّرُهُ مِنَ القُدومِ بِتَشديدِ إِنَّ وَكَأَنَّهُ يُذَكِّرُهُ بِقَوْلِ اللهِ تَعالى: {إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرونَ بِكَ لِيَقْتُلوك}، فَرَدَّ عَلى الحاكِمِ بِرِسالَةٍ خَتَمَها بِعِبارَةِ: (إِنَّا الخادِمُ المُقِرُّ بِالإِنْعام)، فَعَلِمَ الكاتِبُ أَنَّ صَديقَهُ قَدْ فَهِمَ التَّحْذيرَ وَأَنَّهُ قَصَدَ قَوْلَهُ تَعالى:{إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَدًا مَا داموا فيها} فَسَلِمَ الرَّجُلِ مِنْ بَطْشِ الحاكِمِ وَنَجا بِنَفْسِه.

يُقالُ هذا المَثَلُ عِنْدَما يُراوِدُ الإِنْسانَ الشَّكُّ في حِكايَةٍ أَوْ أَمْرٍ ما.



لغويّات

- الصّيغُ الصّرفيّة الاشتقاقيّة في شِعرِ جمعة سَهل ودلالاتها

- هل اللّغة العربيّة أعظمُ اللّغات؟

الصِّيَغُ الصّرفيّةُ الاشتقاقيّةُ في شِعرِ الشّيخِ جُمعة سَهل ودَلالاتُها

تُعدُّ المورفيمات (الصِّيغُ الصّرفيّةُ) من أهمِّ عناصرِ الأبنيّةِ اللّغويّة، حيث إنّها نتاجٌ لعملِ الوحداتِ الصّوتيةِ التي تعلُوها، ولبناتٌ أساسٌ في تشكيلِ العباراتِ والتّراكيبِ والجُملِ؛ لذا فهي تستحقُّ الدّراسةَ، ويوفِّرُ هذا البحثُ فرصةً لتوثيقِ الصّلةِ بين طرائقِ علماءِ اللّغةِ المعاصرين منَ الغربيّين في الدّراسةِ المورفولوجيّة، وجهدِ علماءِ العربيّةِ في دراسةِ المستوَى الصّرفيّ. وتأتي أهمّيةُ البحثِ من أنّه يسعَى للكشفِ عن إمكانِ دراسةِ الأبنيةِ اللّغويّةِ الصّرفيّةِ للعربيّةِ المعاصرة، وَفقَ نظرياتِ اللّسانيّاتِ الحديثةِ في التّحليلِ المورفيميّ. ويهدفُ البحثُ إلى بيانِ الأثرِ الذي تقومُ به الصّيغُ الصّرفيّةُ في تجسيدِ المعنى. ومن فروضِ البحثِ أنّه يمثّلُ بمادّته اللّغويّة، وطريقتِه التّحليليّة، نموذجًا يكشفُ عنِ النّتاجِ الشِّعريّ للدكتور الشّيخ جمعة سهل أحدِ الشّعراءِ السّودانيّين



أ.د. بكري محمد الحاج
رئيس مجمع اللّغة العربية بالخرطوم

وقد ظهرت موهبتُه الشّعريّةُ في حياته المبكّرة. ومُدوّنةُ البحث عبارةٌ عن قصيدتَين له، ويبيِّنُ الجدولُ الآتي شيوعَ الصّيغِ الصّرفيّةِ في عيّنةِ البحثِ:

نوعُ الصّيغةِ	عددُ مرّاتِ وروده	النّسبةُ
اسمُ الفاعل	23	%53.4
اسمُ المفعول	12	%27.9
الصّفةُ المشبّهةُ	6	%13.9
اسمُ التّفضيل	2	%4.65
المجموع	43	%100

ويلاحظُ - من خلال هذا الجدول- أنَّ أكثرَ الصِّيغِ شيوعًا صيغةُ اسم الفاعل، يليها اسمُ المفعول، وأنّ أقلَّها شيوعًا اسمُ التّفضيل.

يتبعُ البحثُ المنهجَ الوصفيَّ، وتقوم خطّتُه على مقدّمةٍ ومحورَين وخاتمة. تناولتِ المقدّمةُ أساسياتِ البحث، والمحورُ الأوّلُ إطارٌ نظريٌّ للبحث، ويتكفّلُ ببيان الطّريقةِ التي يسيرُ عليها علماءُ اللّسانيات المعاصرون في التّحليل المورفيميّ، فضلًا عنِ التّعريف بالشّيخ جمعة سهل، وبمدوّنة البحث، وأُفرِد المحورُ الثّاني لدراسة أنماطِ الصّيغِ الصّرفيّةِ الاشتقاقيّةِ العاملةِ عملَ الفعل، وأبرزتِ الخاتمةُ أهمَّ النّتائج.

وأهمُّ مصطلحاتِ البحث تتمثّلُ في:

* **الصّيغُ الاشتقاقيّةُ:** هي الصّيغُ الاسميّةُ المشتقّةُ منَ الفعل الماضي، على رأي بعضِ علماءِ العربيّةِ في أصل الاشتقاق، وتشملُ اسمَي الفاعل والمفعول، وصِيغَ المبالغة، وغيرَ ذلك.

ج- المورفيم (الصّيغةُ الصّرفيّةُ): أصغرُ وحدةٍ لُغويّةٍ لها معنى، أو وظيفةٍ صرفيّةٍ في لغةٍ منَ اللّغات، ولا يمكنُ تقسيمُها إلى شكلٍ أصغرَ(1).

2 - المحورُ الأوّلُ: الإطارُ النّظريُّ للبحث

يتمُّ تناولُ ما يندرجُ تحت هذا المحورِ على التّرتيبِ الآتي:

1/2 التّحليلُ المورفيميّ، عند علماءِ العربيّةِ، وعلماءِ اللّغةِ المعاصرين:

تناولَ علماءُ العربية مستوَى البناءِ



"تُعدُّ المورفيمات (الصِّيغُ الصّرفيّةُ) من أهمِّ عناصرِ الأبنيّةِ اللّغويّةِ، حيث إنّها نتاجٌ لعملِ الوحداتِ الصّوتيةِ التي تعلُوها، ولبناتٌ أساسٌ في تشكيلِ العباراتِ والتّراكيبِ والجُملِ

اللّغويّ الخاصِّ بالكلمة تحت ما يُعرفُ بعلمِ الصّرف، أوِ التّصريف، ولم تشمل دراستُهم إلا الأسماءَ المتمكّنةَ والأفعالَ المتصرّفةَ. ولم يُعْطِ علماءُ العربية الأوائلُ تعريفًا للكلمة، ولكنّهم اكتفوا ببيان أنماطها (اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ)(2)، ومنَ المتأخّرين الذين عرَّفوها الزّمخشريُّ الذي يقول عنها: "اللّفظُ الدّالُّ على معنًى مفردٍ بالوضع»(3).

أمّا علماءُ اللّغة المعاصرون منَ الغربيّين فتدورُ معظمُ تعريفاتهم للكلمةِ في فلكِ تعريفِ بلومفيلد الذي يذهبُ إلى أنّ الكلمةَ: "أصغرُ صيغةٍ حرّةٍ، أو هي أصغرُ صِيغةٍ حرّةٍ لا تتألّفُ من صِيغٍ حرّةٍ أصغرَ منها»(4). وعند عدمِ اتّفاقِ الغربيّين في إيجاد تعريفٍ جامعٍ للكلمة حاولوا البحثَ عن أصغرِ الوحداتِ اللّغويّةِ الصّالحةِ لتحليلِ أبنيةِ اللّغاتِ المختلفةِ، وهي وحدةُ المورفيم (الصّيغةُ الصّرفيّةُ). والصّيغُ الصّرفيّةُ أنواعٌ متعدّدةٌ، منها الحرُّ، والمقيَّدُ، والاشتقاقيُّ، والتّصريفيُّ، والقواعديُّ، ومنها السّوابقُ، واللّواحقُ، والدّواخلُ، وغيرُ ذلك(5) .

وللصّيغِ الصّرفيّةِ أثرٌ في تحديد المعنَى، وبيانِ الوظائفِ النّحويّةِ للعناصرِ اللّغويّةِ المؤلّفةِ للجملة، ويكتفي الباحثُ هنا بدلالةِ صِيغِ المضارعةِ في أوائلِ الأفعالِ، وعلى وجهِ الخصوصِ تحديدُ الفاعل، وبيانُ ما ينتمي إليه من حيث النّوعُ (مذكّرٌ أو مؤنثٌ)، ومن حيث العددُ (مفردٌ أو مثنّى أو جمعٌ)، ومن حيث الشّخصُ (متكلّمٌ أو مخاطَبٌ أو غائبٌ). ويمكنُ بيانُ ذلك بمثالٍ من مادّة البحثِ وهو قولُ شاعرنا:

الدين يمنع أن تُغا
زلني وينْذِر بالعقاب(6)
والله يغضب فابتعِد
عني وفرّ من العذاب

ونجدُ في البيت الأوّل ثلاثةَ أفعالٍ مضارعةٍ، فاعلُها صيغةٌ صرفيّةٌ عدميّةٌ (7) ZeroMorpheme. ولا يخفَى ما ينتمي إليه الفاعلُ من حيث التّذكيرُ والتّأنيثُ، ومن حيث الإفرادُ والتّثنيةُ والجمعُ، ومن حيث التّكلّمُ أوِ الخطابُ أوِ الغيبةُ. وفي البيت الثّاني نجدُ فِعْلَيْ أمرٍ وفاعلُهما ضميرٌ مخاطبٌ مفردٌ.

2/2 التّعريفُ بالشّاعر الشّيخ جمعة سهل(8):

أستاذٌ جامعيٌّ من منطقة المزروب بشمال كردفان بالسّودان، ولد عام 1948م، حفظَ القرآنَ الكريم مبكّرًا بخلوة كدام بالمزروب. تخرّج في جامعة أمّ درمان الإسلامية بدرجة البكالوريوس في الدّراسات الإسلاميّةِ، وحصل على درجةِ الماجستير من جامعةِ الملك عبد العزيز، والدّكتوراه من جامعة أمِّ القُرى

في تخصّصِ التّفسير وعلومِ القران، وعملَ عُضوَ هيئةِ تدريسٍ بكلية أصول الدِّين بجامعة أمِّ درمان الإسلاميّةِ، وعميدًا للكلّيةِ، ثم عميدًا لكلّية الدّعوة، وأُعيرَ للعمل بجامعة الإمام محمد بنِ سعود الإسلاميةِ. له ثلاثةٌ من الأبناء: اثنان أستاذان جامعيّان هما دكتور أيمن، ودكتور هاني، وهو داعية وكاتبٌ، له مقالاتٌ منشورةٌ في عدّة مواقعَ ، وله اثنتان منَ البنات(9).

ينحدر الشّيخ جمعة سهل من أسرة عُرفت بحفظ القرآن الكريم وتحفيظِه، ومن أبرز أفرادِ أسرتِه أخوه الشّيخُ مشاور جمعة سهل الذي ولد بمنطقة المَزْروب حاضرة قبيلةِ المجانين في العام 1914م. وهو ابنُ الشّيخ الفقيهِ جمعة سهل جابر ناظرِ عمومِ قبيلة المجانين، حفظَ القرآن الكريم وهو صغيرُ السّن. وشارك في مرحلةِ استقلالِ السودان، واقترح إعلانه من داخل البرلمان. توفّي الشّيخُ جمعة سهل في أثناء جائحة الكورونا. ومن الذين نعوْه الدّكتور عثمان أبو زيد مديرُ الإعلام برابطة العالم الإسلامي بمكّة المكرّمةِ في كلمةٍ له بعنوان: أسرارٌ وأشعار(10).

2/3 عيّنةُ البحثِ

للشّيخ جمعة سهل ديوانُ شعرٍ يقولُ عنه عثمان أبو زيد: «ضم الدّيوان (45) قصيدةً ليست كلَّ ما لديه، إذ حرص على استبعادِ الكثيرِ منَ النّشر. ويقول أيضًا: «قرأنا قصيدةَ (متى الإياب) منشورةً في مجلة اتّحاد طلاب جامعة أمّ درمان الإسلاميّة، ثم نُشرت للشّاعر قصيدةُ (صَلُح الفؤاد)(11)، ولم يظهر له شيءٌ بعد ذلك حتى ذهب بنا الظّنُّ إلى أنَّ الدّكتور الشّيخ جمعة قد تجاوز

> **تـنـاولَ عـلـمـاءُ العربية مستوى الـبـنـاءِ اللّغويّ الـخـاصّ بالكلمة تحت ما يُعرفُ بعلمِ الصّرف، أوِ التّصريف، ولم تشمل دراسـتُـهـم إلا الأسـمـاءَ الـمـتـمـكّـنـةَ والأفـعـالَ الـمـتـصـرّفـةَ. ولـم يُـعْـطِ علماءُ العربية الأوائلُ تعريفًا للكلمة، ولكنّهم اكـتـفـوا ببيان أنماطها (اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ)**

الفترةَ الشّاعرةَ من حياته، كدأب الكثرةِ منَ العلماء الذين يَستنْكفون عن قرضِ الشّعر ...»(12).

وديوانُه حافلٌ بتخليدِ حقبٍ ومشاهدَ من حياة الشّاعرِ في مراحلِه الدّراسيّةِ، وعن بيئتِه، يقول عن كُرْدُفان الولايةِ التي منها قريتُه، والمزْروب مرتعُ صباه:

- دنيـاك صارت في أمان
فإلى العلا يا كردفان(13)
- أيا مَزْروبُ حبُّك في فؤادي
عميقٌ في اقترابي وابتعادي(14)

ويقولُ عن شريكةِ حياته التي يرجو الظّفرَ بها:

ربّاه هبْ لي في الحياة شريكةً
وَلهًى بحبِّكَ في المقامِ الأولِ(15)

وقصيدةُ (متى الإيــابُ)، وقصيدةُ (صلُح الفؤاد) هما المختارتان عيِّنةً لهذا البحث، وترجعُ القصيدةُ الأولى إلى عام 1966م(16) «والصّراعُ محتدمٌ بين السّفور والحجابِ، وكان السّفورُ غالبًا آنذاك؛ حيثُ كانتِ الفتاةُ المتحجّبةُ تعاني كثيرًا من مجتمعِها، وتتعرّضُ للاستهزاء والسّخرية؛ ولكنّها صبرت وصابرت، متمسكةً بدينِها ، معتزّةً بحجابها ، داعيةً إلى الفضيلةِ، وقد برزتْ شخصيتُها المسلمةُ من خلال أبياتِ هذه القصيدة التي تحكي قصّةَ فتاةٍ ملتزمةٍ حاول أحدُ الشّبّان إغراءَها فلقّنــته درسًا في الأخلاق»(17) .

3 - المحورُ الثّاني: الصّيغُ الصّرفيّةُ الاشتقاقيّةُ العاملةُ عملَ الفعلِ:

تشملُ اسمَ الفاعل واسمَ المفعول، وصيغَ المبالغة، والصّفةَ المشبّهةَ، وأفعلَ التّفضيل(18). وهذه الصّيغُ «ذاتُ تركيبٍ معيّنٍ، تجري وَفقَ ميزانٍ؛ ولذا فإنّها عندما تدخلُ بنيةَ التّركيبِ القواعديِّ فإنّها تكتسبُ علاقةً وظيفيّةً معيّنةً، تنحُو بها إلى جوانبَ دلاليّةٍ مختلفةٍ، ينهضُ السّياقُ بها، ويعينُ على بلوغ مقاصدِها»(19). ويتناولُ الباحثُ الصّيغَ الاشتقاقيّةَ العاملةَ عملَ الفعل من خلال مدوّنةِ البحث في هذا المحورِ على التّرتيبِ الآتي:

1/3 صيغةُ اسمِ الفاعلِ:

اسـمُ الفاعل صيغةٌ صرفيّةٌ "مشتقّةٌ منَ الفعل المبنيّ للمعلوم، تـدلُّ هيئتُها على من وقـعَ منه الفعلُ»(20). ويقول عبد القادر عبد



الجليل: "لاسم الفاعل دلالةٌ مزدوجةُ القيمةِ: الحدثُ+ الفاعلُ. وقد يكتسبُ من خلال بنيةِ التّركيب، وسياقِ الحدثِ الدّلالةَ على الزّمن»(21)، ويمكنُ بيانُ هذا بمثالٍ من مادّة البحثِ هو قولُ الشّيخ جمعة سهل:

وطَّنْتُ نفسي أن أعيش لمبدئي
وأسير مُقْتَفِياً خُطى المختارِ(22)

اسمُ الفاعل (مُقتفيًا) أتى شاغلاً لموقع الحالِ، وهو يدلُّ على الحدثِ (الاقتفاء)، وعلى من وقع منه الحدثُ، كما يحملُ الدّلالةَ على وقوع الحدثِ في الزّمان المستقبلِ، ومنَ النّاحيةِ الوظيفيّةِ جاء شاغلاً لموقعِ الفعلِ المضارعِ (يقتفي) وله فاعلٌ ضميرٌ مستترٌ، ونصبَ كلمةَ (خُطى) الشّاغلة لموقع المفعولِ به.

ويتناولُ البحثُ بناءً على هذا تحليلَ صيغةِ اسمِ الفاعل من خلال أمثلةٍ مختارةٍ من مادّة البحثِ، على التّرتيب الآتي:

1/1/3 **اسمُ الفاعلِ منَ الثّلاثيّ:**

يأتي اسمُ الفاعل منَ الثّلاثيّ على صيغة فاعلٍ في حالة الإفرادِ والتّذكيرِ والتّنكيرِ، وتضافُ إلى جذره سوابقُ ولواحقُ، "ولا تأتي صيغتُه على صورةٍ واحدةٍ، بل تتنوّعُ تنوّعَ الأفرادِ، المنتمين إلى أصلٍ واحدٍ، تنوُّعًا لا يؤدّي إلى تغييرٍ في المعنى، ولكن لابدَّ أن يخضعَ لقواعدِ العربيّةِ في نظامِها»(23). ويُسلّطُ البحثُ الضّوءَ على هذه الجوانبِ المتّصلةِ بالشَّكلِ الظّاهرِ لصيغةِ اسمِ الفاعل من خلال بعضِ الأمثلةِ من مادّةِ البحث، ويتناولُها بالتّحليلِ، وذلك كما يأتي:

1/1/3 ما جاء على صورةِ المفردِ المذكّر: ومثالُه قولُ الشّيخ جمعة سهل:

وتَهيمُ بي وأكونُ طوْعَكَ
دون خوفٍ واضطراب(24)
وأُريكَ حبّا صادقًا
فالحبُّ معظمُه سراب

جاءت الكلمةُ: **(صادقًا)** بصيغةِ الإفراد والتّذكيرِ والتّنكير، ومن حيث مكوناتُها البنائيّةُ، فهي تتكوّنُ من أربعة مُورفيمات هي: الوصفيّةُ + صيغةُ الفعل الماضي + اسمُ الفاعل+ علامةُ الإعراب. واسمُ الفاعل صيغةٌ صرفيّةٌ امتزجت بالفعل الماضي، وعلامةُ الإعراب مُورفيم منَ النّاحية الصّرفيّةِ، وهي فونيم منَ النّاحيةِ الصّوتيّةِ(25 .

=2/1/3 **اسمُ الفاعل الذي على صورةِ جمعِ المذكّر السّالمِ:**

ومثالُه قولُ الشّاعر:

فإذا مررتَ على المدائن والقُرى
وبدا لعينك ساكنُو الأمصارِ(26)

جاء اسمُ الفاعل (ساكن) في هذا البيت منَ الفعل الثّلاثي (سكن)، وهو مكوّنٌ من خمسة مورفيمات هي: الوصفيّةُ + صيغةُ الفعل الماضي+ اسمُ الفاعل+ علامةُ الجمع، التي هي منَ المورفيمات اللّواحقِ، ومنَ المورفيمات المقيّدةِ(27).

2/3 **اسمُ المفعول:**

هو «اسمٌ مصوغٌ لما وقع عليه الفعلُ على وجه الحدوثِ لا الدّوام» (28). ويأتي الباحثُ بمثالَين من مدوّنة البحثِ كما يأتي:

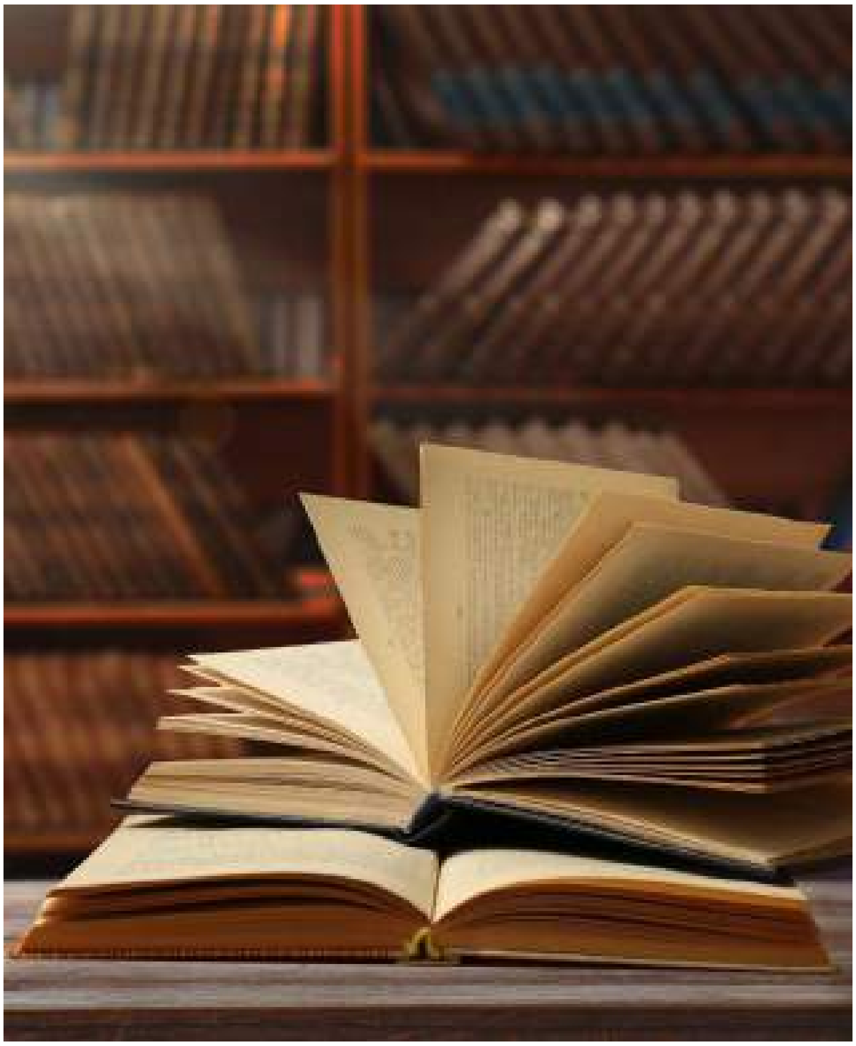
- إنَّ الأخوةَ حيثما فُقِد الهُدى

مَحْفوفَةٌ بجلائل الأخطارِ(29)

تدلُّ صيغةُ (مَحْفوفَةٌ) على الوصفيّةِ والإفراد، والتّأنيث والتّنكير. وتتكوّنُ من ثلاثةِ مورفيمات هي: صيغةُ الفعل الماضي+ صيغةُ اسمِ المفعول + علامةُ الإعراب. وأمّا من حيث البناءُ الصّرفيُّ، فإنّها جاءت على وزن مفعولٍ، عاملةً عملَ فعلِها المبنيِّ للمجهول، ولها نائبُ فاعلٍ صيغةً صرفيّةً عدميّةً (ضميرٌ مستترٌ)، ومن حيث الوظيفةُ النّحويّةُ أتت مُسندًا، خبرًا لإنَّ التّوكيديّةِ.

- إنّي تذوقتُ الحلاوةَ هانئاً
في ظلِّها مَكْسُوَّةً بوقارِ(30)

تدلُّ صيغةُ (مَكْسُوَّةً) على الوصفيّةِ والإفــرادِ، والتّأنيث والتّنكيرِ. وتتكوّنُ من ثلاثةِ مورفيمات هي: صيغةُ الفعل الماضي+ صيغةُ اسمِ المفعول + علامةُ الإعراب. ومن حيث البناءُ الصّرفيُّ، فإنّها جاءت على وزنِ (مفعول)، عاملةً عملَ الفعلِ المبنيّ للمجهول(تُكْسى)، ولها نائبُ



(1) ينظر: معجم اللسانيات الحديث، لسامي حنا وآخرين، مكتبة لبنان، بيروت1997م،89
(2) ينظر : الكتاب، لسيبويه، طبعة بولاق، القاهرة 1316هـ 1/2، والمقتضب1، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة 1399هــ،1/3.
(3) المفصل :4، وانظر شرح المفصل لابن يعيش1/18.
(4)Bloomfield, L. Language, George Allen & Unwin, London,1979 ,p.178.
(5) مدخل إلى علم اللغة، محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، 1993م: 70-77.
(6) ديوان الشاعر:140.
(7) ينظر : مقدمة لدراسة اللغة، لحلمي خليل، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي 1409هــ 1989-م.:249.
(8) الشيخ هو الاسم الأول للشاعر، وليس لقبًا.
(9) شبكة المعلومات الدولية. موقع مداد الإسلامي.
(10) شبكة المعلومات الدولية.
(11) ديوان الشاعر (أنا على الميثاق) :6-8.
(12) شبكة المعلومات الدولية.
(13) ديوانه:106.
(14) ديوانه:108.
(15) ديوانه:108.
(16) منشورة في ديوان الشاعر (أنا على الميثاق) :140.
(17) من تقديم للقصيدة في ديوانه:140.
(18) يطلق د. سمير استيتية: على الاشتقاق بوساطة هذه المشتقات اسم الاشتقاق النحوي، ويعني المشتقات العاملة عمل الفعل. ويميز هذا الاشتقاق عن صنوه الصرفي، الذي يشمل المشتقات العاملة، وغير العاملة، التي لها جذر مثل اسمي الزمان والمكان، واسم الآلة. ينظر: اللسانيات: المجال والوظيفة

فاعلٍ صيغةً عدميّةً هي (ضميرٌ مستترٌ)، ومن حيث الوظيفةُ النّحويّةُ أتت شاغلةً لموقعِ الحال، وطرأ عليها تغييرٌ تحويليٌّ بالحذف للواو؛ إذ إنَّ أصلَها (مكسووة)، حدثَ فيها إعلالٌ بالنّقل والحذف.

3/3 الصّفةُ المشبّهةُ باسم الفاعل:

سمِّيت بهذا الاسم؛ لأنّها "تشبهُ اسمَ الفاعل من ناحيتين: صرفيّةٍ ونحويّةٍ، فهي تدلُّ على موصوفٍ بالحدث على سبيل الفاعليةِ، وتلك هي دلالةُ اسمِ الفاعل العامّةُ. وهي كذلك تتصرّفُ مثلَه في الإفراد والتّثنية والجمع، والتّذكير والتّأنيث. ومنَ النّاحيةِ النّحويّةِ تسلكُ في التّركيب مسلكًا قريبًا من مسلكِ اسمِ الفاعل في التّركيب... »(31). ومثالُها من مادّة البحث قولُ الشيخ جمعة سهل:

إني غـــــدوتُ مُتـيَّمـــــاً
كَلِفاً بربَّات الحجاب(32)

ففي هذا البيت كلمةُ **(كَلِفاً)** يمكن أن تعدَّ صفةً مشبّهةً إذا دلّت على الثّبوت والدّوام، وهي تدلُّ على موصوفٍ بالحدث منَ النّاحيةِ الصّرفيّةِ، وتتصرّفُ تصرّفَ اسم الفاعلِ في الإفراد، والتّذكيرِ، والتّنكير، كما أنَّ لها فاعلاً (أنا) ضميرًا مستترًا منَ النّاحيةِ النّحويّةِ.

4/3 أفعلُ التّفضيل:

هو منَ المشتقّات الاسميّةِ العاملةِ عملَ الفعل "فيرفعُ فاعلاً كاسمِ الفاعل، ويغلبُ عليه أن يكون فاعلُه ضميرًا مستترًا»(33). وأتى في مادّة البحث على وزن (أفعل)، ومن أمثلتِه قولُ الشاعر:

والحب في ذات المهيمن ميسمي
والله أَكْبَرُ مبدئي وشعاري(34)

وتدلُّ صيغةُ **(أكبـر)** على الوصفيّة، والإفـــراد، والتّنكير، وتتكوّن من ثلاثةِ مورفيمات هي: صيغةُ الفعل الماضي+ صيغةُ التّفضيل + علامةُ الإعراب، ولها من النّاحيةِ النّحوية فاعلٌ، ضميرًا مستترًا (تقديره هو). وجاءت شاغلةً لموقع الخبرِ.

4 - خاتمةُ البحث:

بفضل الله فرغتُ من كتابة هذه الورقةِ، وأُبرِزُ في خاتمتها أهمَّ النّتائج التي وصلَ إليها البحثُ على الوجه الآتي:

* أثبتَ البحثُ أنَّ أكثرَ الصّيغِ الصّرفيّةِ شُيوعًا في مدوّنة البحثِ اسمُ الفاعل، يليه اسمُ المفعول، وأنَّ أقلَّها شُيوعًا اسمُ التّفضيل، ولم تأتِ صيغةُ المبالغةِ.
* وصلَ البحثُ إلى أنَّ للصّيغِ الصّرفيّةِ أثرًا في تحديدِ المعنى، وبيانِ الوظائفِ النّحويّةِ للعناصرِ اللّغويّةِ المؤلِّفةِ للجملةِ.
* كشفَ البحثُ عنِ الشّاعريّةِ المبكِّرةِ للشّيخ جمعة سهل صاحبِ مدوَّنةِ البحثِ، من خلال قصيدتَين، جسَّدتا المضامينَ الاجتماعيّةَ، من حيث البيئةُ، والزّمانُ، وبيَّنتِ التّرجمةُ الموجزةُ للشّاعر إسهاماتِه في الدّعوة، وفي التّدريس الجامعي في السّودان والسّعودية، وأثرَه في أبنائه، الذين صاروا مثلَه أساتذةً جامعيّين ودعاةً، وكُتّابًا.
* أثبتَ البحثُ تنوُّعَ الصّيغِ الصّرفيّةِ الاشتقاقيّةِ في عيّنةِ البحثِ، من حيث النّوعُ والعددُ والشّخصُ، ومن حيث الجذورُ، والسّوابقُ، والدّواخلُ، واللّواحقُ، وغيرُها.

والمنهج، عالم الكتب الحديث، إربد 2005م، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان 2009م.:125.
(19) علم الصرف الصوتي، عبد القادر عبد الجليل، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان 2009م ،:286.
(20) محاضرات في علم الصرف، لمحمد ربيع الغامدي، خوارزم العلمية للنشر والتوزيع، جدة 1428هـ:71.
(21) علم الصرف الصوتي، مرجع سابق:286-287..
(22) من قصيدة له بعنوان صلح الفؤاد، ديوانه:6.
(23) الصيغ الصرفية ودلالتها في شعر عيسى جرابا، بكري مخمد الحاج، بحث نشر في المجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، العدد34 عام 1435هـ-2014م:13.
(24) من قصيدة له بعنوان متى الإياب، ديوانه:140.
(25) اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، سمير استيتية، مرجع سابق:119.
(26) ديوان الشاعر:6.
(27) مدخل إلى علم اللغة، محمد علي الخولي، مرجع سابق:70.
(28) علم الصرف الميسر، محمود عكاشة، الأكاديمية العربية للكتاب الجامعي، القاهرة 1426هـ 2005-.:119.
(29) ديوان الشاعر:7.
(30) المصدر السابق والصفحة.
(31) المعني الجديد في الصرف، محمد خير حلواني، دار الشرق العربي، بيروت: 269.
(32) ديوان الشاعر:140.
(33) النحو الشافي، محمود حسني مغالسة، مؤسسة الرسالة، بيروت 1422هـ 2002م:434.
(34) ديوان الشاعر:6.

هلِ اللُّغَةُ العربيّةُ أَعْظَمُ اللُّغاتِ؟

الجزء الأول



أ.د. صالح بلعيد
رئيس المَجلس الأعلى للّغة العربيّة

الدّيباجة: سؤالٌ في الواجهةِ، وجوابٌ يأتي مِنَ التّحليل، ونقولُ بأنّ قياسَ عظمَةِ اللّغةِ يكونُ بعظمَةِ مُبدعِيها، ولهذا أصبحَ التّماهِي في اللّغةِ الأمِّ بإحكامِها مطلبَ كلِّ الشّعوب، فهي بابُ تعلّمِ اللّغاتِ الأخرى، وفي واقعِنَا المعاصرِ صارَ اختيارُ مَعرفةِ اللّغاتِ أمْرًا بالغَ الأهميّةِ لتسهيلِ التّواصُلِ، والسّماحِ للأشخاصِ بالمُشاركةِ في أنشطةِ المُجتمَعِ المُختلفةِ، والبروزِ والتّميّزِ في ظلِّ عالَمٍ مُعولَمٍ، وتشابكِ المُجتمَعاتِ المُتعدِّدة اللّغاتِ، وما يفرضُه الواقعُ المُعاصر مِن الحوارِ والمَعرفةِ والإعلامِ والقدرةِ على الدّيبلوماسيّة، وإمْكانيّةِ الانخراطِ في العلاقاتِ الدّوليّةِ. وحتّى نجزمَ في الأمْرِ بأنّ لُغةً مَا هي الأعظمُ كان علينا الاستنادُ إلى أدلّةٍ واضحةٍ، والاطّلاعُ على اللّغاتِ الأخرى، والتّعرّفُ إلى ماضي اللّغةِ وحتمِيّةِ تطوّرِها، وانتشارِ مُتونِها، والنّظرُ إلى مِقدارِ ازدهارِ أهلِها أو خمولِهم.

كما أنّ عظمَةَ اللّغة تُقاسُ بماضيها وبحاضرِها وهو العاملُ المُهمّ، فمُستقبلُ اللّغةِ مَرهونٌ بالقدرة على الاختراعِ، وأنّ عزمَ الأمّة على لغتِها هو الاعتزازُ والاستعمالُ والعمَلُ مِن أجل العِلْمِيّةِ والازدهارِ، إلى جانبِ ما يُقدّمُ فيها وبها مِن إبداع الشّعراءِ والنّقّادِ والفنّانين. وإنّ عظمَةَ اللّغة تكمُنُ في أداء وظائفِها في بناء علاقاتٍ قويّةٍ وفعّالةٍ في السّيطرة بشكلٍ جيّدٍ على مَهاراتِ التّواصلِ اللّغويّ المُناسبة؛ لأداء وظيفةِ الثّقةِ بالنّفس، وفهْمِ الثّقافات والعاداتِ المُختلفة، وتعزيزِ الرّوابط بين الأشخاصِ وتمْتين المُشاركةِ في المُجتمَعات، والتّطوّرِ الاجتماعيّ والثّقافيّ، وما يتبعُ ذلك مِن تحقيق نجاحاتٍ في



الحياة الشّخصيّةِ والمِهنيّةِ مِن خلال استخدامِ اللّغةِ بشكلٍ صحيحٍ وفعّالٍ.

1ـ وظائفُ اللّغاتِ: في الحقيقةِ كلُّ اللّغاتِ الطّبيعيّةِ والاصطناعيّةِ تحملُ في ذاتِها وظائفَ مَنوطةً بأدائها مِن أجل التّواصلِ، وإنتاجِ المَعرفة، ومُواصلةِ فعل الحاضرِ والمُستقبلِ وتطوّرِ الثّقافة، وبناءِ الحضارة، وصُنعِ الكتابةِ، وتسجيل المَلفوظِ والتّعبيرِ عنِ المَشاعر والأحاسيس، والتّطلّعِ لمَطالب الحياة، وما له علاقةٌ باستشراف إنتاجِ المَعرفة، وغيرِ ذلك مِنَ الوظائفِ اللّغويّةِ مِن المُركباتِ ذاتِ العلاقة ببناء القواعدِ النّحويّة. أمّا اللّغاتُ العظيمَةُ ففيها الهُوّيّةُ والانتماءُ والتّمَيّزُ والقطبيّةُ والماضي الذي يمْتدُّ في الحاضرِ ويستشرفُ المُستقبلَ، وما له علاقةٌ ببناء التّعاونِ والامتدادِ وحسنِ الأداء، وهذا لا يكفي بل لا بدَّ أن تكون مُقوّماتٌ للّغة مِن حيث المَعنى الرّمزيُّ والاعتباريُّ، وكذلك المَتنُ اللّغويُّ مِن حيث ثراؤها



ماردين المدينة القديمة في بلاد ما بين النهرين وصور التقطت من زوايا مختلفة للبيوت الحجرية وعمارة المعابد والسماء

وكفايتُها وتميّزُها وأهميّتُها وسهولةُ نفاذها إلى المُستمِعين في بيانِها وتعلّمِها، وسهولةِ البقاء والانتشارِ الذّاتيّ. تلكم هي الوظائفُ التي تُؤدّيها اللّغاتُ العظيمةُ، ومَن يفوزُ بهذه العظمَةِ يا تُرى؟ لا يفوزُ بها إلّا تلك اللّغاتُ ذاتُ المَعايير العالَميّة مِن انتشارٍ وغلبةٍ استعماليّةٍ، وتمَدّدٍ دائم وسيطرةٍ على المَعرفةِ العامَّةِ والعِلميّة، وإنتاجِ التّقاناتِ والآلياتِ الحديثةِ وما له علاقةٌ بالتّعمير في مَنْحاه الحضاريِّ المُعاصر. والصّراعُ الآن قائمٌ بين اللّغاتِ الأمَميّة في الحروب اللُّغويّةِ القادمَةِ، والخرائطِ اللّغويّةِ المُتغيّرةِ مَع آفاق 2030، ومَع كلِّ عشريّةٍ مِنَ الزّمان هناك مُتغيّرٌ في التّراتبِ اللّغويِّ، وهناك مَوتٌ وانتهاءٌ لكثير مِن اللّغاتِ، إذ هناك حروبٌ لغويّةٌ قادمَةٌ، ولكن لمَن

> **إنّ قياسَ عظمَةِ اللّغةِ يكونُ بعظمَةِ مُبدعِيها، ولهذا أصبحَ التّماهِي في اللّغة الأمِّ بإحكامِها مطلبَ كلِّ الشّعوب**

سيُكتب البقاءُ؟ لا يكون إلّا للّغة التي لها التّقانيّةُ، ولها الماضي المُغدقُ، والمُستقبل المُشرقُ. وللّغة التي لها العمْقُ التّراثيُّ في الكلماتِ والجذور والاتّساعِ، وقوّةِ التّعبير عنِ الأحاسيس والمَعاني والمَفاهيم والتّطلّعاتِ، وقوّةِ الدّلالة للكلمات، مَع توصيلٍ كاملٍ للمَعنى المَطلوب فِي نقل المَفاهيمِ وحمْل الأفكارِ، ودفـعِ الغموض والتّعبيرِ عنِ الذّات؛ بالإضافة إلى فهم المُراد بيُسرٍ وإيجازٍ.وهناك المَعيرةُ والانتشارُ؛ وهما مِن أقوى عوامِل بقاءِ اللّغة وعظمتِها؛ حيث تظهر هذه العوامِلُ في لغةٍ عالميّةٍ لا حدودَ جغرافيّةً ولا زمانيّةً لها، سهلةِ النّطقِ والتّعلم، ذاتيّةِ الانتشار والتّمدّد.

2 ــ عـظـمـاءُ الـحـضـارةِ الإنسانيّة:تعَلَّمْنا في المَدارس أنّ (أبا الرَّيْحَانِ مُحَمَّدًا بْن أَحْمَدَ البِيرونِيَّ) 973–1048م باحثٌ مُسلمٌ، وصاحبُ الأفكارِ الأولى في: الفلسفةِ والفلكِ والفيزياء والجغرافيّةِ والمَعادن والرّياضياتِ والصّيدلة والتّاريخِ والتّرجمَةِ، وقد كتبَ أكثرَ مِن مئة وعشرين (120) كتابًا، ويُعدُّ أعظمَ شخصيّةٍ عالمِيّةٍ في زمانه؛ نظيرَ تلك الأعمال التي جعلت عصرَه يُسمّى بالعصر الذّهبيّ، بما كان يُبدِع مِن



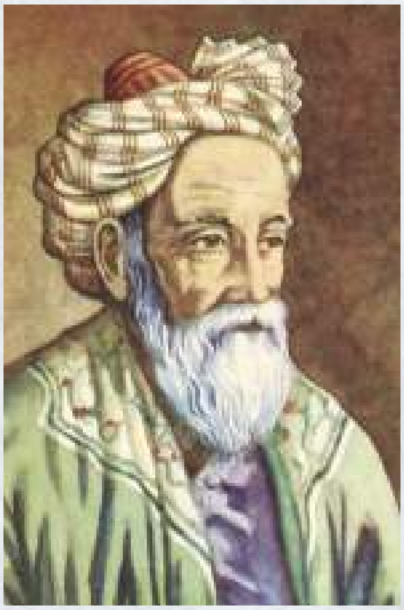
الأخوان رايت

عمل الأخوان رايت، أورڤيل ويلبر في بناء أوّلِ طائرةٍ وقامَت برحلتها الأولى في تاريخٍ مَشهودٍ في 17 ديسمبر 1903، هو تطوّرٌ نوعيٌّ شهدته صناعةُ الطّائرة التي أصبحت تطيرُ وتهبطُ بسلام. إنّهما مِنَ الشّخصياتِ العالمَةِ بلغتهما الإنكليزيّة التي جعلت مِنهما أعظمَ شخصيتيْن عرفهما التّاريخُ

أفكارٍ ويجولُ بين اللّغات: الخوارزميّةِ والفارسيّةِ والعربيّةِ والإغريقيّةِ والسّنسكريتيّةِ والعبريّةِ والسّريانيّةِ. إنّه أعظمُ شخصيّةٍ مَوسوعيّةٍ باللّغة العربيّة التي كانت قاعدةَ إنتاجِ علومِه كلّها، مُستعينًا بلغات أخرى بوصفِها روافدَ استكشافيّةً وإنّ اللّغة العربيّةَ هي التي أوصلتْه إلى إيجاد وسيلةٍ لقياس طولِ الشّمْس، ووضعِ تصوّرٍ أوّليٍّ لجهاز الإسطرلاب، وأصبح بها عالمًا كبيرًا في الرّحلاتِ والأعراقِ والأديانِ والعاداتِ والنّاس، وأسماءِ الأماكن، وبكلّ مَوْضوعيّةٍ حاز قصبَ السّبقِ في العلوم النّظريّة؛ لدرجة أنْ أطلقَ عليه المُستشرقون تسميّةَ بطليموس العرب؛ لأنّه أسهمَ في تقديم المَنهجِ العلميّ التّجريبيّ في أبحاث الحركةِ والـدّوران. صدّقنا أقوالَ المُعلّمين، وما نقلته الكتبُ فيما ناله مِن الشّهرة المَصحوبةِ بحُججٍ مَلموسةٍ على كرويّة الأرضِ، واختلاف ساعاتِ النّهار بالمَواسم، وبراعتِه في التّقويم الهنديّ، وغيرِها مِن الأبحاث التي أضفت عليه مُصطلحَ أعظمِ شخصيّةٍ مُسلمةٍ قدّمَت للحضارة الإنسانيّةِ الخطواتِ الأولى للتّطوّرِ الذي حدث تراتبيًا عبرَ القرون. والخلاصةُ أنّ مُعظمَ أعمالِه مِن مَنتوجِ اللّغة العربيّة باعتبارِها وعاءً لفكرِه الذي كان حامِلاً للثّقافة الإنسانيّةِ؛ بما له مِن حمولةٍ لسانيّةٍ لها مُقوّماتُ الاستجابةِ لتفسير الظّواهرِ المُختلفة التي تتطلّبُها مُختلفُ الدّراسات الأدبيّةِ أوِ العلمِيّةِ، وما يدخلُ في الأدواتِ الفلكيّة، وتجريدِ الشّعاعاتِ والأنوار، ومَعرفةِ الجواهر، وما بابُه التّمْويهُ والتّعميةُ. وصدّقنا القولَ أكثرَ مِمّا قرأناه، كما رأينا ما ناله مِن تكريم مُستحقٍّ بعد مُرور قرونٍ على أن يكون له مَوقعٌ على إحدى الفوهاتِ البركانيّة على سطح القمَرِ وعلى الكُوَيْكب9936 Al- Biruni، وأن تُخصّصَله بعضُ الدّول أفلامًا لحياته، ويكونُ في مُسلسلات عربيّةٍ وغربيّةٍ، ويُطلِقُ مَكتبُ الأمَم المُتّحدة في ڤيينا اسمَه على جناح العلماءِ: ابن سينا، أبو ريحان البيروني، أبو بكر مُحمَد بن زكريا الرّازي، وعُمَر الخيام، وكلُّهم مِن الفرس، ولكنّهم لم يبدعوا في لغتهم كما أبدعوا في العربيّة فيها وبها. وبعد قرونٍ مِن مَوت (البيروني) جاء مَن يقول لنا بأنّ أعظمَ شخصيّةٍ هو مُخترع الطّائرةِ، وصدّقنا الأمْرَ لعظمَة هذا الاختراع، عندما نرى تلك الطّائراتِ العمْلاقةَ/ النّفاثةَ وهي تحلّق في السّماء، وبلمْحِ البصر تمُرّ وفي بطنها الأطنانُ، وتبقى مُعلّقةً في الجوّ ساعاتٍ وساعاتٍ، ويا له مِن اختراع! وتأتي في أبحاثنا تلك المُحاولاتُ التي اعتمَدها السّابقون في المِنطاد، وما قام بعضُ المُغامِرين في تصميماتٍ أوليّةٍ للطّيران، ويأتي الأخوان رايت/ Wright Brothers: أورڤـيـل/ Orville+ ويلبر/ Wilburفي بناء أوّلِ طائرةٍ وقامَت



ابن سينا



عمر الخيام



أبو الريحان البيروني

برحلتها الأولى في تاريخٍ مَشهودٍ في 17 ديسمبر 1903. هو تطوّرٌ نوعيٌّ شهدته صناعةُ الطّائرة التي أصبحت تطيرُ وتهبطُ بسلام. إنّهما مِنَ الشّخصياتِ العالمَةِ بلغتهما الإنگليزيّة التي جعلت مِنهما أعظمَ شخصيتيْن عرفهما التّاريخُ. واللّغةُ الإنگليزيّة كانت لهما عَونًا في تلك التّجارب التي كُلّلت بالنّجاح.

ومِن ثَمَّ جاء مَن يقولُ بأنّ أعظم شخصيّةٍ هو صاحبُ مايكروسوفت أوفـيـس إكـسـل /Microsoft Office Excel البرنامَجِ المُستخدمِ لإنشاء جداولِ البيانات والقوائم، والميزانياتِ والرّسوم البيانيّةِ، هي المُجدولةُ التي تُعتبر مِن أكثر البرامَج استخدامًا على مُستوى العالم، ونجدُ فيها أعمِدةً/ Columns وصفوفًا/ Rows وتتقاطعُ لتشكيل خلايا/ Cells، وعرفت تطوّراتٍ وتحسيناتٍ، وأصبحت تقدّمُ خدماتٍ كبيرةً في

يُطلِقُ مَكتبُ الأمَم المُتّحدة في ڤيينا اسمَه على جناح العلماءِ: ابن سينا، أبو ريحان البيروني، أبو بكر مُحمَد بن زكريا الرّازي، وعُمَر الخيامِ، وكلُّهم مِن الفرس، ولكنّهم لم يبدعوا في لغتهم كما أبدعوا في العربيّة فيها وبها

مَجال قواعدِ البيانات وإنشاءِ الرّسوم البيانيّة. وتعدُّ هذه المُجدولةُ أعظمَ عمَلٍ حضاريٍّ لا يقلُّ عنِ العجائب السّبع، إن لم تكن ثامِنتَهم. إنّه صاحبُ مايكروسفت العبقريُّ الذّكيُّ في خوارزميّةٍ عجيبةٍ مُتضمّنةٍ حزمَةَ برامِج Office التي أضحت لا غنى عنها في أنظمَة تشغيل ويندوز/ Windows للحواسب الشّخصيّةِ، وربّما قد تستخدمُ برنامِج وورد/ Word بين الحين والآخر. والشّاهدُ هنا أنّ عظمَةَ المُجدولة مِن عظمَة صانعِيها ولغةِ صانعيها، ومُحتوى مَحمولِ أعمِدتها مِنَ التّحوّل الرّقميّ، وما يمْكن كتابتُه على برنامَج الإكسل بما له مِن صيَغٍ جاهزةٍ لتبسيطِ وتنفيذِ مَجموعة واسعةٍ مِنَ العمَليات الحسابيةِ التي تشمُل العمَلياتِ الشّائعةَ؛ مِثل إدخالِ التّاريخ/ الوقت إلى العمَليات الأكثرِ تعقيدًا، وكذلك البحثُ عن مَعلومات مُحدّدةٍ مَوجودةٍ في جداول البيانات الكبيرةِ. والشّاهدُ أنّ صاحبَ المُجدولة/ Excel أعظمُ مِن البيروني ومِن الإخوة رايت بهذه

البرمجيّةِ في الفرز وتصفيةِ البيانات، وربطِها بمُخطّطات الاستخدامِ مَع برامِج اليورپوانت/ PowerPoint والوُورْد. وهذا ذكاءٌ خارقٌ لا يتوفّر إلّا في فكر شخصيّةٍ عظيمَةٍ مُمَثّلةٍ في بيل جيتس/ Bill Gates ومِن لغةٍ عظيمَةٍ/ English ويعدُّ الآن (بيل جيتس) الإسكندنافيُّ أثرى شخصٍ في العالم، ولم يكن السّابقون بهذا الثّراء الذي ليس له حسابٌ، كما أنّه الشّخصيّةُ الذي أحدث كلمَةً مَزيجةً مِن: Axelen وAbsalon تمْجيدًا لمعنى (الإله+ القدر الكبير). وسمّى عمَله باسمِهما Excel، بذكاءٍ جامعٍ في المَعنى اللّغويّ يساوي: الإتقانَ والتّفوّقَ والتّميّزَ والبروزَ والإجادةَ... وهذه حضارةُ أوروبـا الشّرقيّةِ الإسكندنافيّةِ وأعجوبةُ القرن المُعاصر.

والحوصلةُ مِن هذه الدّيباجة أنّ أقـوى اللّغاتِ صنعتْ أقوى الشّخصيات، واللّغةُ هي التي ساعدت المُبدعَ على التّأقلم والتّعلّم بهدف التّطوّرِ الجبّارِ، والتّقدّم الهائلِ الذي نشهدُه، وما كان ليكونَ لولا اللّغةُ.

3ـ عظمَةُ اللّغاتِ بعظمَة أهلِها: قرأنا أنّ كلَّ الحضاراتِ قامت على لغةٍ مِنَ اللّغات، فقامت الحضاراتُ الأساسيّةُ في بلاد الرّافدين: السّومريّةُ + الأكديّةُ + البابليّةُ+ الآشوريّةُ؛ وهي التي شكّلت صُلبَ حضاراتٍ أخرى واصلتِ المسارَ، على غرارِ الحضارةِ الإغريقيّةِ والنّوميديّةِ والفارسيّةِ... وكلُّ حضارةٍ قامَت على لغتِها، وقامَتِ الحضارةُ العربيّةُ



بيل جيتس

الإسلاميّةُ على العربيّة، والحضارةُ اللّاتينيّة على الإيطاليّةِ، وقامَت بعد ذلك أوروبا الأنوار على الفرنسيّةِ، وأُدرِج الحديثُ عن أوروبا الأنوار لحداثتِها، والاعتبار مِن تلك الهبّةِ الكبيرةِ والجماعيّة للتّجنيد مِن أجل خدمَةِ اللّغة المُشتركة، ونقرأُ ذلك من كتاب (أوروبا التّنوير) تأليف: إيف بوروبير. تر: مُحمّد علي مُقلّد. سلسلة نصوص. دار الكتاب الجديد المُتّحدة، ط1. 2008م ونجد المُؤلّفَ يصفُذلك التّجنيدَ مِن الفرنسيين بلغتهم القوميّةِ التي خرجت مِن اللّاتينيّة، وجعلوا المَركزيّةَ الفرنسيّةَ بابًا لأوروبا الأنوار، أوروبا ڤولتير/ Voltaire، فرنسا الإشعاعِ، وعاصمَةً للأنوار أكثرَ مِنها العاصمَةَ الفرنسيّة (باريس) وأعلنوها جمْهوريّةَ الآداب، وإعلان كوزموبويتي، وتأكيدَ وعيٍ قوميّ للخروج مِن سُبات القرون الوُسطى، والبدايةُ مِن الكوجيتو الدّكارتي/ Emmanuel Kant "أنا أفكّر إذًا أنا مَوجود"، فحدثت أنوارُ

”

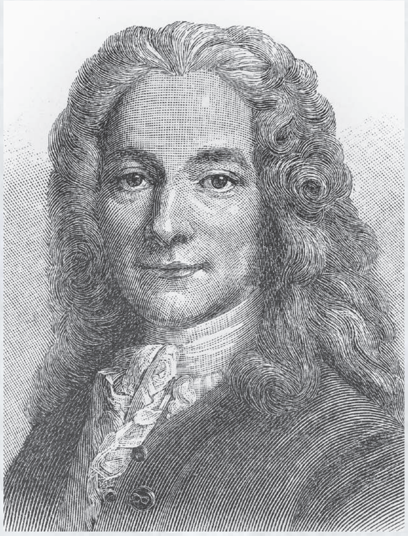
إنّ مُعظمَ أعمالِ البيرونيّ مِن مَنتوجِ اللّغة العربيّةِ باعتبارِها وعـاءً لفكره الذي كان حامِلًا للثّقافة الإنسـانيّـةِ؛ بما لـه مِن حـمـولـةٍ لـسـانيّـةٍ لها مُـقـوّمـاتُ الاستجابـةِ لـتـفـسـيـر الـظّـواهـرِ المُختلفة التي تتطلّبُها مُختلفُ الدّراسات الأدبيّةِ أو العلمِيّةِ

العقل والعقلانيّة. هي بدايةُ تحرّر العقلِ الفرديّ مِن مُكبّلاته الغيبيّةِ، ومُنطلقُها مِنَ الفكر والقلم والكتابة. كانت استفاقةٌ كبيرةٌ بإعداد جمهوريّة الآداب والأكاديمِياتِ والبحوث العلمِيّةِ والصّالونات الفكريّة والأدبيّة، إنّه تأسيسٌ لعصر الصّحافةِ والجرائد؛ صحافةِ التّبادل الثّقافيّ والتّرجماتِ الإبداعيّة، وتوظيفِ الرّيشة والفنّون الجميلة والبالي.

إنّه عصرُ الثّقافات الأوروبيّةِ بمَنهجياتٍ تضافرت فيها جهودُ وعيِ النّهوض، وتلاحمَت أفكارُ يوهان غوتليب فيخته/ Johann

Gottlieb Fichte في تفعيل الحقوقِ والواجباتِ، وتوليفةُ ديديه ماسو/ Didier Masseau، والأديب الفنّان Pierre Bayle ناشرِ أخبارِ جمهوريّة الآداب، والأكاديمياتِ والنّوادي العلميّةِ والصّالونات الأدبيّةِ والمُنتدياتِ الثّقافيّة والجمْعياتِ الاقتصاديّة، ومُؤسّسات التّراسلِ الأكاديميّةِ، وحتى الكهنوت ومُؤسّساتُ Arcadia. التقت أكاديمِياتُ العلوم والآداب، وجنّدتِ العلماءَ الأجانبَ أعضاءَ شـرفٍ في الأكاديميات والمَشافي العالمِيّة. أساتذةٌ أفذاذٌ على غرار جان دانيال شوفلين/ Jean- Daniel Schoepflin أستاذُ التّاريخ والفصاحةِ المُتنقّلُ بين باريس وإنكلترا وألمانيا، وكانت الديبلوماسيّة عضيدةً للأنوار بما بلغته مِن ذروة بناءِ مَعاركِ التّبحّر في مَعارك الأنوارِ، وجاءت أوروبا الارستقراطيّةُ والمُجتمَع النّبيلُ بصالوناتِها ومَسارحِها، هي أوروبا التّنويرِ، وكانت فُسحةُ الانتقال والتّبادل.

إنّه استنفارٌ أوروبي كبيرٌ طالَ الزّمَن، وعـادت لهم عجلةُ العلم جديدةً، ولم يكن ليحصل لهم ذلك إلّا بتلك الجهود المبنيّةِ على الأبحاث والإبداع والتّكوينِ، وما سنّوه من تطوّرٍ نوعيٍّ بمَسارٍ صارمٍ لا يقبلُ أيَّ انتهاكٍ، بل الأحرى مُمارسةٌ تربويّةٌ اجتماعيّة كمَقصدٍ للتّحيين. هو نجاحٌ مَلحوظٌ في أوروبا بما لها مِن قومِيات مُتقاتلةٍ، وأصبحت مُتآلفةً مِن أجل العيش مَعًا بسلام. هو تطوّرٌ نوعيٌّ مُستديمٌ يستحقّ الاهتمامَ حتى



فولتيير



ديكارت

لو تعرّض نمُوّه إلى عوائقَ، والمهمُّ كان النّمُوذجُ الفرنسيّ قد كبرَ بعدما تأسّس في القرن الثّامِن عشر، وأصبحت اللّغةُ الفرنسيّةُ عالمِيّةً في ذلك القرن، وذلك الذي أدّى إلى الثّورة الفرنسيّةِ التي حصل فيها تطويرُ عجلةِ العرب إلى ثورة البخارِ، فهل نعتبرُ!

4ـ مَعاييرُ عظمَةِ اللّغات: مِن خلال هذه البصْماتِ الإبداعيّةِ التي تركها هؤلاء المُبدعون، وهي بصمَةٌ لسانيّةٌ بامْتيازٍ، وكلّ مُبدعٍ أجادَ وأتقنَ بلُغةٍ عبّرتْ عمّا في فكره، وعن خميرةٍ في ذهنه تحمِلُ صناعةً فكريةً بلُغةٍ ارتياضيّةٍ، وفيها صفةُ التّمايز بين الأفرادِ، بتمايزٍ كائنٍ بين اللّغات مِن حيث ما يُجرى فيها مِن بحوث واهتمامٍ ومَناهجَ وغيرِ ذلك مِنَ الأبحاث التي تقوم على النّموِ/ التّهيئةِ اللّغويّةِ. ومَع ذلك نرى أنّه لا توجدُ وصفةٌ تشير إلى مَعايير مُتّفقٍ عليها تُعتمَدُ في تصنيف اللّغاتِ مِن حيث العظمَةُ، بقدر ما يمْكنُ أن نقول: إنّ عظمَةَ اللّغات تكمُنُ في الإبداع الذي يأتي مِن علماء اللّغة؛ لأنّ المُبدعَ لا يُبدعُ إلّا بواسطة اللّغة؛ فهي آلةُ تفكيرٍ، وبها يقعُ التّخطيطُ، وفيها يقومُ الرّسمُ، ومِنها تنطلقُ مَرحلةُ التّجريب والتّواصل. وتأتي اللّغةُ في أصلها مِن مَظاهرِ المُحيط الذي يعيش فيه الإنسان+ الزّمان+ الدّافعيّة+ المُتغيّرات+ المُلاحظات. وعليه؛ فإنّ عظمَةَ اللّغة مِن عظمَة ناطقِ تلك اللّغةِ وهو صانعُها، وهي التي صنعتْه، وبها أنطقَ أفكارَه، وصنع إبداعَه، ومِن خلالها استطاعَ توثيقَ خطواتِه، ومُواصلةَ بناءِ مَنطق الأشياء التي يقوم عليها أيُّ إبداعٍ يأتي مِن الفكرِ، والفكرُ مَنطقٌ، والمَنطقُ لغةٌ. ومِن هنا نرى هذيْن الوجهيْن لعُمْلةٍ واحدةٍ. ونقول بأنّ اللّغةَ تصنعُ المُبدعَ، والمُبدعَ يُطوّر اللّغةَ، باللّغة تأتي الأفكارُ المَنطقيّةُ التي نفرّق بها بين لُغة مُبدعةٍ، ولغةٍ غيرِ مُبدعة، وبين لغةٍ جاذبةٍ، ولغةٍ غيرِ جاذبة، وبين فكرٍ نيّرٍ، وفكرٍ خامِلٍ، وهذه

سُنّةُ الحياة في حصول المَعارفِ. ومِن هنا، فإنّ مَعاييرَ لغةٍ مُبدعةٍ تظهرُ مِن خلال مُطوّرِيها، ومِن إبداعاتهم المُستمرَّةِ، وذلك ما يجعلُ اللّغةَ مُبدعةً. وعلى العموم يُمْكنُ استخلاصُ المَعاييرِ الآتيةِ:

1/4- اللّغةُ نسقٌ مَنطقيٌّ مَبنيٌّ على مُلاحظاتٍ جعلتِ الإنسانَ يصطلحُ أسماءَ على الأشياء المُحيطةِ به أوّلَ الأمْر، ثمّ على أشياءَ مُتصوّرةٍ وقائمَةٍ في الذّهن في المَرحلة اللّاحقةِ.

2/4- اللّغةُ في أصلها فِعْلُ أمْر في البداية لحاجة الطّلبِ لغيره لمُقاومَة عوامِلِ الطّبيعة، ثمّ فعلٌ مُضارعٌ للاستشراف، ثمّ فعلٌ ماضٍ للتّاريخ.

3/4. **لا توجد في الأصل** لغةٌ مُبدعة، ولغةٌ غيرُ مُبدعة، كما لا توجد لغةٌ راقيّةٌ، ولغةٌ وضيعةٌ.

4/4- اللّغةُ في أيّ مُجتمَع قضيّةٌ جماعيّةٌ، فهي صورةُ أمّةٍ ووجودُها ومُستقبلُها.

5/4 - **الإبداعُ في اللّغة** يأتي مِن الاهتمام بها في نقلها عن طريق تدريسِها واستعمالِها ونشرِها.

6/4. **اللّغةُ المُبدعةُ** لغةٌ سهلةُ التّعلّم، بسيطةُ القواعد.

7/4- **اللّغةُ المُبدعَةُ** حيّةٌ وقابلةٌ للتّطوّر.

8/4. **اللّغةُ المُبدعَةُ** مُتفتّحةٌ لا تقبل الثّباتَ.

9/4. **اللّغة المُبدعَةُ** لها صانعٌ ومُريدٌ وامْتدادٌ في الزّمان وفي المَكان، وتقبلُ التّكيّفَ.

لا نذهبُ مَذاهب قددًا في هذه المَسائل التي تؤدّي بنا إلى الخلاف؛

> **بعد قرونٍ مِن مَوت (البيروني) جاء مَن يقول لنا بأنّ أعظمَ شخصيّةٍ هو مُخترعِ الطّائرةِ، وصدّقنا الأمْرَ لعظمَة هذا الاختراع، عندما نرى تلك الطّائراتِ العمْلاقةَ/ النّفاثةَ وهي تحلّق في السّماء، وبلمْح البصر تمُرّ وفي بطنها الأطنانُ، وتبقى مُعلّقةً في الجوّ ساعاتٍ وساعاتٍ، ويا له مِن اختراع!**

حيث رأينا لغاتٍ لها هذه المَعاييرُ، ولكن أَفَلَتْ، ونرى لغاتٍ أخرى حديثة علت، ولغاتٍ قديمَةٍ لا وجودَ لها، ولغاتِ حضارةٍ اندثرت، واللّغاتُ دُوَلٌ. ولكن تكمُن عظمَةُ اللّغة في حملها مَجموعةً كبيرةً مِن هذه المَعايير التي استخلصناها مِنَ اللّغات الحيّةِ التي كانت لها الرّيادةُ، ولا تزال تعيشُ التّميّز والفَرادةَ والوَقْعَ العلميَّ، ولِلُغاتٍ كان لها الوضعُ الجيّد كلغةٍ عالمِيّةٍ، ولكنّها تراجعت. ويمْكنُ أن نُخضعَ هذه المَعاييرَ للغربلة التي تأتي بها الأفكارُ الجديدةُ في إطار تطويرِ اللّغة العربيّةِ لينطبقَ عليها مُصطلحُ (أعظم اللّغات).

5– أعظمُ اللّغات: لم نحصل على



نصب البيروني أمام مكتب الأمم المتحدة في فيينا ، النمسا.

دراسةٍ وضعت تراتبًا لأعظم لغةٍ مِن اللّغات، بل هناك أفكارٌ مُتضاربةٌ؛ بعضُها تأخذ مَعاييرَ الغلبةِ البشريّةِ/ أقدم اللّغات/ أسهلِها/ أقواها اقتصادًا/ أقواها صناعةً/ أكثرِها استعمارًا/ أكثرِها انتشارًا... وترى المَوْسوعة السّويديّةُ أنّ أعظمَ اللّغات هي: الإنگليزيّة+ الهنديّة+ العربيّة+ البرتغاليّة. وهناك مَن يرى أنّ اللّغاتِ الحيّةَ هي أعظمُ اللّغات، وهي تلك اللّغاتُ المُنتشرةُ في أرجاء العالم بشكلٍ واسعٍ، ونستطيع أن نتعلّمَها كالعربيّة والانگليزيّة والإسپانيّة والصّينيّة. وهناك مَن يرى بأنّ اللّغاتِ الاصطناعيّةَ سوف تكونُ لاحقًا مِن أعظم اللّغات على

غرار: الإسبرنتو، وكذلك لغة الإيدو+ الإنترليجوا اللّتان وضعتا لنفس السّبب. وهناك مَن يرى أنّ الإسبانيّة مِن أعظم اللّغاتِ لانتشارها القويِّ في العالم، وأنّ العربيّة أقواهنّ لِما لها مِن دين ثابتٍ، ومَن يرى بأنّ الانكليزيّة هي العظيمَةُ، وإمْبراطوريّة لغاتِ العصر الحاضرِ بما لها مِنَ التّغيّرات الثّقافيّة الحديثةِ، مِثل صعود هوليوود، وصناعةِ السّينما، وانتشارِ التّكنولوجيا الجديدة، ووسائلِ التّواصل الاجتماعيّ. وهناك مَن يرى بأنّ أقوى اللّغاتِ هي أعظمُ اللّغات؛ وتتوزّعُ بين الأكثرِ استخدامًا في العالم وهي: الإنگليزيّة+ الفرنسيّة+ الإسبانيّة+ الرّوسيّة+ العربيّة+ الصّينيّة. وهناك مَن يرى أنّ الانتشارَ الحقيقيَّ يكمُن في الاستعمالِ في العالم، وَفقَهذا التّراتب: الإنگليزيّة+ الصّينيّة+ الهنديّة+ العربيّة+ الإسبانيّة+ الرّوسيّة+ البرتغاليّة+ البنغاليّة+ الفرنسيّة+ الألمانيّة... وهناك مَن يرى أنّ اللّغاتِ في العالم كثيراتٌ، ولكنْ هناك عشرةٌ فقط هي لغاتُ العالم القادمِ، وهي: الإنگليزيّة لعِلمها+ الماندرين لكثرة ناطقيها+ الإسبانيّة لانتشارها+ اليابانيّة لنانوتكنولوجايتها+ الألمانيّة لدقّتها+ الرّوسيّة لفضائها+ الفرنسيّة لديبلوماسيتها+ العربيّة لدينها+ الهنديّة للاهوتها+ البرتغاليّة لجغرافيتها. وتبقى الآراء في تجاذبٍ وتضاربٍ، والزّمنُ كفيلٌ بإظهار ذلك في الزّمنِ القادمِ؛ حيث تتقلّص اللّغاتُ، وتموتُ أكثرُ مِن إحدى وعشرين (21) لغةً كلَّ سنة.

6. **العربيّة أعظمُ اللّغات:** ليس جوابًا للسّؤال، بقدرِ ما هو تمهيدٌ له، لما للعربيّة من خصوصياتٍ لا تتوفّر مُجتمِعةً في غيرها منَ اللّغات؛ حيث يتحدّث بها ما يقربُ مِن ستمئة 600 مِليون في البلاد التي تنضوي تحت إمْرة جامِعة الدّوَل العربيّة، ومِلياريْن (2) وستّة (6) مَلايين مِن المُستعملين لها في صلواتهم بصورة يومِيّة، بلهَ الحديث عنِ العمالة المَوجودةِ في بلاد الخليج والمُقدّرة بثمانيّة (8) ملايين شخص يستخدمونها في قضاء مَصالحِهم اليوميّةِ، أو في المُعامَلات الإداريّةِ، وهناك فئاتٌ أخرى تستعمِلُ العربيّة على غرارِ الكثيرِ مِن الأفارقة، والأحوازِ وتركيا وتشاد والسّنغال وإرتيريا، وفي عواصم الغربِ مِن المُهاجرين العرب. وهي لغةٌ رسمِيّة أجنبيّةٌ أُولى/ ثانيّة في كثير مِن الدّول على غرار قبرص، ولغةُ مالطا العربيّةُ الهجينةُ، ووصل العددُ الآن لدولٍ تستخدم العربيّةَ لغةً رسمِيّةً إلى 63 دولة بما فيها الدّول العربيّة: ويُمْكن تأكيدُ بعض المُتغيّراتِ الحديثة، فنجدُرسمَيتها الطّبيعيّةَ في الجزائر+ (الأمازيغيّة). البحرين. تشاد+ (الفرنسيّة). جزر القُمُر+ (الفرنسيّة). جيبوتي+ (الفرنسيّة). مِصر. العراق+ (الكرديّة). الأردن. الكويت. لبنان. ليبيا. موريتانيا. المَغرب+ (الأمازيغيّة). عُمان. فلسطين. قطر. السّعوديّة. الصّومال+ (الصّوماليّة). السّودان+ (الإنگليزيّة). سوريّة. تونس. الإمارات العربيّة المُتّحدة. اليمَن. ونقرأُ ونُطالعُ بعضَ المُنافحات التي تقول: إنّ العربيّة أعظمُ اللّغات وأكثرُها سِحرًا وثراءً، وهي تحمِلُ أدباً عاليَ الجودة، وبلاغةً وفصاحةً؛ وهي لغةُ الضّاد، لغةٌ بلغت بفضل القرآن مِن الاتّساعِ، مَدًى لا تكاد تعرفُه أيّةُ لغةٍ أخرى مِن لغات العالم، لغةٌ بدأت فجأةً على غاية الكمالِ، وهذا أغربُ ما وقعَ في تاريخ البشر، فليس لها طفولةٌ ولا شيْخوخةٌ، لغةٌ لا تزال حيّةً حياةً حقيقيّةً، وهي واحدةٌ مِن ثلاث لغاتٍ استولت على سُكّان المَعمورةِ استيلاءً لم يحصل عليه غيرُها، لغةٌ أدخلت في الغرب طريقةَ التّعبير العلميّ الذي نقلَهم إلى ثورة البخار، لغةٌ لها مَعنًى رمْزيّ كبيرٌ، وبما لها مِن الأيام العالمِيّة القارّة: اللّغةُ الأمّ+ لغةُ الضّاد+ لغةُ اليوم العالميّ، لغةٌ مِن أقوى اللّغات اشتقاقًا وثراءً وسلاسةً ومَجازًا...

> **إنّ العربيّة أعظمُ اللّغات وأكثرُها سِحرًا وثراءً، وهي تحملُ أدبـاً عاليَ الجودة، وبلاغةً وفصاحةً؛ وهي لغةُ الضّـاد، لغةٌ بلغت بفضل القرآن مِن الاتّساع، مَدًى لا تكاد تعرفُه أيّةُ لغةٍ أخرى مِن لغات العالم.**

العَرَبيّةُ وأهمّيتُها
في فَهْمِ العُلُومِ الشّرِعيَّةِ

الحمدُ للهِ الذي علَّمَ القرآنَ، وخلقَ الإنسانَ، علَّمه البيانَ، والصّلاةُ والسّلامُ على النّبيِّ العدنانِ أفصحِ من نطقَ بالضّادِ وعلى آلِه وصحبِه وبعدُ..
إنَّ كتابَ اللهِ العزيزِ له آثارٌ ساميةٌ على اللّغةِ العربيةِ وعلومِها، ونزولُ القرآنِ الكريمِ على سيدنا مُحمَّد صلى الله عليه وسلم جعلَ العربيّةَ لغةً مرغوبًا فيها، لا لنفوذِها السّياسيِّ ولا لسبْقِها الحضاريِّ وإنّما لمكانتِها الدّينيةِ؛ إذ تسابقَ أهلُ البلادِ الإسلاميّةِ إلى درْسِ العربيّةِ والعنايةِ بها من أجلِ تحقيقِ العبادةِ، ومن أجلِ تلاوةِ القرآنِ وفهمِ نصوصِه فهمًا سليمًا، فكانَ نشوءُ علومِ العربيّةِ من نحوٍ وصرفٍ ولُغةٍ ومعاجمَ وأدبٍ وبلاغةٍ؛ كلُّ ذلكَ وُجِدَ ليقومَ عليه درسُ اللّغةِ العربيّةِ حتى صارَ هذا الأمرُ في حسِّ المسلمِ عقيدةً وواجبًا شرعيًا (1).



د. أسماء محمد جاد
باحثة/ مصر

فكانَ مِنَ المبادئِ الأجروميّةِ الأوليَّةِ التي يَتلقَّنُها متعلّمُو اللّغةِ العربيةِ عامّةً والنّحوِ خاصّةً أنَّ ثمرةَ هذا العلمِ هي «صيانةُ اللّسانِ عنِ الخطأِ في الكلامِ العربيِّ وفَهمِ القرآنِ الكريمِ والحديثِ النّبويِّ فهمًا صحيحًا؛ لأنّهما أصلُ الشّريعَةِ الإسلاميّةِ وعليهمَا مدارُها (2). لذلكَ أصبحتِ اللّغةُ العربيةُ عمدةً في فهمِ النّصِّ الشرعيِّ بل أصبحتِ العلومُ الإسلاميةُ مفتقرةً إلى اللّغةِ، وباتَ معروفًا أنَّ الدّرسَ اللّغويَّ عندَ العربِ غيرُ مقصورٍ على اللّغويّين؛ لأنَّ المتكلّمينَ والمفسّرينَ وعلماءَ أصولِ الفقهِ يُشاركونَهم في كثيرٍ من مناحي علمِهم.(3) وذلكَ لأنَّ مدارَ هذه الأبحاثِ على النّصِّ، فلمْ يكنْ خافيًا ما للأبحاثِ اللّغويّةِ من أثرٍ واضحٍ في أحكامِ الفقهِ الإسلاميِّ وارتباطِ الأحكامِ الفقهيةِ بالمسائلِ اللّغويّةِ في مناحٍ شتَّى (4). قالَ الإمامُ الشّافعيّ (ت 204هـ) وهو أحدُ أساطينِ العربيّةِ: «وإنّما بدأتُ بما وصفتُ من أنَّ القرآنَ نزلَ بلسانِ العربِ دونَ غيرِه؛ لأنّه لا يَعلمُ من إيضاحِ جُملِ علْمِ الكتابِ أحدٌ جَهلَ سَعةَ لسانِ العربِ، وكثرةَ وجوهِه، وجماعَ معانيه وتفرّقَها ومَن عَلمه انتفتْ عنه الشُّبَه التي دخلتْ مَن جهلَ لسانَها.»(5)، فإنَّما خاطبَ الله بكتابِه العربَ بلسانِها على ما تعرفُ من معانيها.

وجوبُ تعلّمِ العربيّةِ

جوَّدَ الشّافعيُّ في الحديثِ عنِ العربيّةِ ووجوبِ تعلُّمِها في رسالتِه قائلًا: "ولسانُ العربِ أوسعُ الألسنةِ مذهبًا وأكثرُها ألفاظًا ولا نعلمُهُ يحيطُ بجميعِ علْمِه إنسانٌ غيرُ نبيٍّ، ولكنَّه لا يذهبُ منه شيءٌ على عامّتِها حتى لا يكونَ موجودًا فيها مَن يَعرفُه»(6). ويقولُ أيضًا مُبيِّنًا أنَّ العربيَّةَ فرضٌ على كلّ مسلم: «فعلى كلِّ مسلم أنْ يتعلَّمَ مِن لسانِ العربِ مَا بَلَغَهُ جهدُه حتى يشهدَ به أنْ لا إله إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، ويتلوَ به كتابَ اللهِ، وينطقَ بالذكرِ فيمَا افترضَ عليه منّ التّكبيرِ وأُمرَ به مِنَ التّسبيحِ والتَّشهُّدِ وغيرِ ذلك..» (7)
وقد جعلَ بعضُ العلماءِ سببَ الضّلالِ العُجمةَ والجهلَ بأساليبِ اللّغةِ العربيّةِ، والذي نشأَ عنه فهمُ النّصوصِ الشّرعيّةِ على غيرِ وجهِها. قال ابنُ جنّي (ت

392هـ): «اعلمْ أنَّ هذا البابَ – بابَ ما يُؤمنُه علمُ العربيّةِ منَ الاعتقاداتِ الدّينيّةِ من أشرفِ أبوابِ هذا الكتاب، وإنَّ الانتفاعَ به ليسَ إلى غايةٍ ولا وراءه من نهايةٍ وذلكَ أنَّ أكثرَ مَن ضلَّ من أهلِ الشّريعةِ عنِ القصدِ فيهَا، وحادَ عنِ الطّريقةِ المُثلى إليهَا فإنَّما استهواهُ واستخفَّ حلمَه ضعفُه في هذهِ اللّغةِ الكريمةِ الشّريفةِ» (8)

أصولُ العلاقةِ بين العربيّةِ والشَّريعة

إنَّ بينَ العربيةِ والعلومِ الإسلاميةِ علاقـــةً وطيدةً؛ قال الشاطبيُّ (ت 790هـ): «الشّريعةُ عربيّةٌ، وإذا كانت عربيّةً؛ فلا يفهمُها حقَّ الفهمِ إلَّا مَن فَهِمَ اللّغةَ العربيّةَ حقَّ الفهمِ؛ لأنّهما سيّان في النّمطِ ما عدا وجوهَ الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربيةِ؛ فهوَ مبتدئٌ في فهمِ الشّريعةِ، أو متوسّطًا فهوَ متوسطٌ في فهمِ الشريعةِ، والمتوسطُ لم يبلغ درجةَ النّهايةِ؛ فإنِ انتهى إلى درجةِ الغايةِ في العربيّةِ كان كذلك في الشّريعة؛ فكانَ فهمهُ فيها حجّةً كما فهمَ الصّحابةُ وغيرُهم منَ الفُصحاءِ الذين فهموا القرآنَ حجّةً، فمن لم يبلغْ شأوَهم؛ فقد نقصَه من فهْمِ الشّريعةِ بمقدارِ التّقصيرِ عنهم، وكل مَن قصُرَ فهمُه لم يعدْ حجّةً، ولا كانَ قولُه فيها مقبولاً.» (9) وأفاضَ الزّمخشريُّ (ت 538هـ) في الحديثِ عن هذهِ العلاقةِ في مقدّمة كتابه المفصّلِ قائلًا: «إنّهم لا يَجِدون علمًا منَ العلومِ الإسلاميَّةِ فقهِها وكلامِها وعلميْ تفسيرِها وأخبارِها إلَّا وافتقارُه إلى العربيّةِ بيِّنٌ لا يُدفعُ ومكشوفٌ لا يَتقنَّعُ ...» (10) وأصولُ هذهِ العلاقةِ تكمُنُ في



نزولِ القرآنِ الكريمِ بلُغةِ العربِ فقد قالَ سبحانَه وتعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، (11) وقوله تعالَى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}(12). قالَ الشّافعيُّ: «ومِن جماعِ كتابِ اللهِ العلمُ بأنَّ جميعَ كتابِ اللهِ إنَّما نزلَ بلسانِ العربِ»(13)، كذلكَ لكونِ النّبيِّ ﷺ عربيًّا بل أفصحَ مَن نطق بالضّاد؛ قالَ القاضي عِياض (ت 544 ه): « وأمَّا فصاحةُ اللسانِ وبلاغةُ القولِ؛ فقد كانَ ﷺ من ذلكَ بالمحلِّ الأفضلِ والموضعِ الذي لا يُجهلُ، سلاسةَ طبعٍ، وبراعةَ مَنزعٍ، وإيجازَ مقطعٍ، ونصاعةَ لفظٍ، وجزالةَ قولٍ، وصحّةَ معانٍ وقلّةَ تكلُّفٍ، أوتيَ جوامعَ الكلمِ وخُصَّ ببدائعِ الحكمِ، وعُلِّمَ ألسنةَ العربِ؛ فكان يُخاطبُ كلَّ أمةٍ منها بلسانِها ويُحاورُها بلُغتِها، ويُباريها في مَنزعِ بلاغتِها، حتى كان كثيرٌ من أصحابِه يسألونَه في غيرِ موطنٍ عن شرحِ كلامِه، وتفسيرِ قولِه» (14)

ويُمكنُ بيانُ علاقةِ العلومِ الشرعيةِ خاصةً علمِ الفقهِ وأصولِه وقواعدِه لاشتمالِ مباحثِ الدّراسةِ عليه باللّغةِ العربيّةِ فيما يأتي:

أوّلًا: علاقةُ علمِ الفقهِ باللّغةِ العربيّةِ

يتوقَّفُ فَهمُ الفقهِ الإسلامــيِّ على الدّرايةِ بأصولِ اللّغةِ العربيّةِ وعلومِها؛ قال الرّاغبُ الأصفهانيُّ (ت 502 هـ): «ألفاظُ القرآنِ الكريمِ هي لُبُّ كلامِ العربِ وزبدتُه وواسطتُه وكرائمُه، وعليهِ اعتمادُ الفقهاءِ والحكماءِ في أحكامِهم وحُكْمِهم» (15)، ويُعدُّ الإمامُ الشّيبانيُّ (تلميذُ أبي حنيفة وأحدُ صاحبَيْهِ) من أوائلِ مَن ربطَ مسائلَ الفقهِ بمسائلِ النَّحوِ؛ فقد ضمّنَ في كتابِه (الجامعُ الكبيرُ) مباحثَ فقهيةً كثيرةً أدارَها على أُسُسٍ نحويّةٍ وأصولٍ عربيّةٍ، وهوَ بذلكَ قدَ فتحَ بابًا واسعًا من أبوابِ النّظرِ في التّفاعلِ بين الفقهِ والنّحوِ؛ وذلكَ بتعليقِ النّتائجِ الفقهيَّةِ بمقتضياتِ القواعدِ النّحويّةِ، ثمَّ توالت من بعدِه الجهودُ عندَ الإمامِ الإسنويِّ حيثُ أفرَدَ العلاقةَ بين الفقهِ والنّحوِ في مؤلَّفِه (الكوكبُ الدّريُّ فيما يتخرَّجُ على الأصولِ النّحويّةِ منَ الفروعِ الفِقْهيَّةِ) (16)

والنَّاظرُ إلى حُكمِ تعلُّمِ العربيّةِ في الفقهِ يجدُ أنَّ عامَّةَ الفقهاءِ

والمتخصّصين فيه يُوجبون تَعلّمَ العربيّةِ والإحاطَةَ بعلومِها؛ يقولُ ابنُ فارس (ت 395 هـ): «إنَّ الذي يلزمُه من ذلك الإحاطةُ بكلِّ ما قالته العربُ؛ لأنَّ ذلكَ غيرُ مقدورٍ عليه، ولا يكونُ إلّا لنبيٍّ، كما قلناه أولاً، بلِ الواجبُ علمُ أصولِ اللّغةِ والسّننِ التي بأكثرِها نزلَ القرآنُ وجاءتِ السّنّةُ. فأمّا أنْ يُكلَّفَ القارئُ أوِ الفقيهُ أوِ المحدِّثُ معرفةَ أوصافِ الإبلِ وأسماءِ السّباعِ ونعوتِ الأسلحةِ، وما قالته العربُ في الفلواتِ والفيافي، وما جاء عنهم من شَواذِ الأبنيةِ وغرائبِ التّصريفِ فلا»(17). وقال الفخرُ الرّازيّ (ت 606 هـ): «اعلمْ أنَّ معرفةَ اللّغةِ والنّحوِ والصَّرفِ فرضُ كفايةٍ؛ لأنَّ معرفةَ الأحكامِ الشّرعيةِ واجبةٌ بالإجماعِ. ومعرفةُ الأحكامِ دون معرفةِ أدلَّتِها مستحيلٌ، فلابدَّ من معرفةِ أدلّتِها، والأدلةُ راجعةٌ إلى الكتابِ والسّنّةِ، وهما واردان بلُغةِ العربِ ونحوِهم وتصريفِهم؛ فإذا توقَّفَ العلمُ بالأحكامِ على الأدلّةِ ومعرفةِ الأدلّـةِ تتوقّفُ على الواجبِ المطلقِ. وهو مقدورٌ للمكلَّفِ فهو واجبٌ؛ فمعرفةُ اللّغةِ والنّحوِ والتّصريفِ واجبةٌ» (18). وممّا يُؤكدُ وجوبَ تعلُّمِ العربيّةِ في الفقهِ ما قالَه الأنباريُّ (ت 577 هـ)



في صدرِ كتابِهِ الإنصاف: «إنَّ جماعةً منَ الفقهاءِ والمتأدّبينَ والأدباءِ المتفقّهينَ المشتغلينَ عليَّ بعلْمِ العربيّةِ... سألوني أنْ أُلخِّصَ لهم كتابًا لطيفًا يشتملُ على مشاهيرِ المسائلِ الخلافيّةِ بين نحويّيِ البصرةِ والكوفةِ على ترتيبِ المسائلِ الخلافيّةِ بين الشّافعيّ وأبي حنيفة» (19)، فكتابُه الإنصافُ يُشبهُ التّعليقَ في مسائلِ الخلافِ بين الفقهاءِ وما ذلكَ إلّا لأنَّ النّحوَ معقولٌ من منقولٍ، كما أنَّ الفقهَ معقولٌ من منقولٍ ويجمعُهما منهجٌ إسلاميٌّ واحدٌ؛ فهم يُشبهون عملَ اللّغويِّ والنّحويِّ بالمحدِّثِ والفقيهِ بجامعِ النّقلِ والتّصرُّفِ. (20) ويُمكنُ إجمالُ أهمِّ فوائدِ العربيّةِ للفقهِ والفقهاءِ في اتجاهين:

(الاتّـجـاهُ الأوّلُ) في ضبطِ النّصوصِ وبيانِها؛ وذلكَ من خلالِ اهتمامِ أهلِ العلْمِ بدفعِ التّصحيفِ عن أقوالِ الفقهاءِ ودفْعِ الأغلاطِ عنها، لذلكَ اتّجه فريقٌ من أهلِ العلمِ إلى تصنيفِ مصنّفاتٍ تخدمُ المصنّفاتِ الفقهيّةَ ذاتَها، وذلكَ بحلِّ غريبِها وبسْطِ مصطلحاتِها حتى عُدَّت ضمْنَ المعاجمِ اللّغويّةِ؛ أشهرُها معجمُ (الزّاهرُ في غريبِ ألفاظِ



"

النّاظرُ إلى حُكم تعلُّم العربيّةِ في الفقهِ يجدُ أنَّ عامَّةَ الفقهاءِ والمتخصّصين فيه يُوجبون تَعلّمَ العربيّةِ والإحاطَةَ بعلومِها؛



الشّافعي) للأزهري (ت 370 هـ) (21). واتّجهَ فريقٌ من أهلِ العلْمِ إلى بيانِ المصطلحاتِ الفقهيَّةِ؛ وهيَ ألفاظٌ دائرةٌ بين الفقهاءِ تخصُّ الأبوابَ الفقهيّةَ وغيرَها(22). قال ابنُ قتيبةَ (ت 276 هـ): «ورأيتُ أن أفتحَ كتابي هذا بتبْيين الألفاظِ الدّائرةِ بينَ النّاسِ في الفقهِ وأبوابِه والفرائضِ وأحكامِها لنعرفَ من أينَ أُخِذتْ تلكَ الحروفُ فيُستدلُّ بأصولِها في اللّغةِ على معانيها كالوضوءِ والصّلاةِ والزّكاةِ ... ممّا لا يكملُ علمُ المتفقّهِ والمُفتي إلاَّ بمعرفةِ أصولِه» (23) . وهذه الألفاظُ كان لها معانٍ في الجاهليّةِ غيرُ معانيها في الإسلامِ؛ قال ابنُ فارس (ت 395 هـ): "وكانتِ العربُ في جاهليتِها على إرثٍ من إرثِ آبائهم في لُغاتِهم وآدابِهم ونسائِهم وقرابينِهم، فلمَّا جاءَ الله ﷻ بالإسلامِ حالتْ أحوالٌ ونُسختْ دياناتٌ وبَطلت أمورٌ ونُقلتْ مِنَ اللّغةِ ألفاظٌ من مواضعَ إلى مواضعَ أُخَرَ بزياداتٍ زِيدت وشرائعَ شُرعتْ وشرائطَ شُرطتْ فعفَّى الآخرُ الأوّلَ... فكانَ ممّا جاءَ في الإسلامِ ذكرُ المؤمنِ والمسلمِ والكافرِ والمنافقِ، وإنَّ العربَ إنّما عرفتِ المؤمنَ منَ الأمانِ، والإيمانَ منَ التّصديقِ، ثمَّ زادتِ الشّريعةُ شرائطَ وأوصافًا بها سُميَ المؤمنُ بالإطلاقِ مؤمنًا...» (24). وقدِ اتّخذَ التّصنيفُ لهذهِ المصطلحاتِ طريقتَين (25): (الطّريقةُ الأولَى) على طريقةِ الأبوابِ الفقهيَّةِ منها؛ المطّلعُ على أبواب المُقنعِ للإمامِ أبي الفتحِ البعليّ (ت 709 هـ)، وطِلبةُ الطّلبة في الاصطلاحاتِ الفقهيّةِ للإمامِ أبي البركاتِ النّسَفيّ (ت 710 هـ).

(الطّريقةُ الثّانيةُ) طريقةُ التّرتيبِ المُعجميِّ منها؛ المُغربُ في ترتيبِ المُعربِ للإمامِ ناصر الدّين المطرّزيّ (ت 610 هـ)، والمصباحُ المنير للإمامِ الفيّومي (ت 770 هـ)؛ وذلكَ أنَّ الكُتبَ التي عالجتْ الغريبَ في المصنّفاتِ الفقهيَّةِ لم تُغفلِ الحديثَ عنِ المُصطلحاتِ.

(الاتّجاهُ الثّاني) وهو ما يخصُّ علمَ العربيةِ وأثرَها في استنباطِ الأحكامِ مِنَ النّصوصِ الشّرعيّةِ؛ فقد أخذَ العلماءُ يربطون العربيّةَ بالأحكامِ الشّرعيةِ، بل أخذَ أربابُ المذاهبِ يَنصرونَ أقوالَهم بالاعتمادِ على فصاحةِ إمامِ المذهبِ؛ فالأحنافُ – مثلًا – يقولونَ عنِ الإمامِ الشّيبانيِّ (ت 189 هـ) إنَّ كلامَه في اللّغةِ حُجّةٌ، وهذا الإمامُ الشّافعيُّ (ت 204 هـ) قيلَ عنه: «الشّافعيُّ تُؤخَذُ عنهُ اللّغةُ». (26) وذكرَ السّيوطيُّ (ت 911 هـ) أنَّ الزّجّاجيَّ (ت 337 هـ) قد جمعَ قسْمًا منَ الأحكامِ الفقهيّةِ المُستنبطَةِ على المسائلِ اللّغويّةِ والنّحويّةِ في رسالةٍ أسماها (الأذكارُ بالمسائلِ الفقهيّةِ) ولكنَّها لم تَبْرُزْ للتَّصْنيفِ بشكلٍ واضحٍ فبقيتْ تُدارُ في مجالسِ القضاءِ (27).

وبعد ذلكَ أخذتْ كتبُ الفقهِ المعتمدةُ تُوردُ مسائلَ فقهيَّةً بُنيتْ على أصولٍ لُغويّةٍ أو نحويّةٍ منثورةٍ في قسمٍ من أبوابِها؛ موضّحةً فيها كيفيةَ مراعاةِ الشّرعِ للألفاظِ والمعاني من حيثُ إرادتُهما أوِ التّحذيرُ منهما وذلكَ في تراكيبَ معيّنةٍ، كذلكَ كيفيةَ إفادةِ الفقهِ

من بعضِ الحدودِ النّحويّةِ (28)

ثانيًا: علاقةُ علْمِ أُصولِ الفقْهِ بالعربيّة

منَ المتّفقِ عليه أنَّ علمَ أصولِ الفقهِ مُستَمدٌ من ثلاثةِ أشياءَ؛ علم العربيّة وأصولِ الدّين والفقهِ، قالَ الآمديُّ (ت 631 هـ): «وأمّا ما منه استمدادُه- أي علمُ أصولِ الفقهِ- فعلمُ الكلامِ والعربيّةِ والأحكامِ... وأمَّا علمُ العربيّةِ فلِتَوقُّفِ معرفةِ دلالاتِ الأدلّةِ اللّفظيّةِ منَ الكتاب والسنّةِ وأقوالِ أهلِ الحلِّ والعَقدِ منَ الأمّةِ على معرفةِ موضوعاتِها لُغةً من جهةِ الحقيقةِ والمجازِ والعمومِ والخصوصِ والإطلاقِ والتّقييدِ والحذفِ والإضمارِ والمنطوقِ والمفهومِ والاقتضاءِ والإشارةِ والتّنبيهِ والإيماءِ وغيرِه ممّا لا يُعرفُ في غيرِ علْمِ العربيّةِ»(29). والحقُّ أنَّ علماءَ الأصولِ لم يكونوا مُقلّدين لأهلِ العربيّةِ في هذه المباحثِ اللّغويّةِ والنّحويّةِ وإنّما زادُوا عليهم بل تفرَّدوا بالبحثِ اللّغويِّ خاصّةً في مجالِ الدّلالاتِ؛ قالَ السُّبكيّ ت(771)هـ: "إنَّ الأصوليّينَ دقّقُوا النّظرَ في فهمِ أشياءَ من كلامِ العربِ لم يصلْ إليها النّحاةُ ولا اللّغويّون، فإنَّ كلامَ العربِ متّسعٌ والنّظرُ فيه مُتَشَعِّبٌ، فكيفَ تضبطُ اللّغةُ الألفاظَ ومعانيَها الظّاهرةَ دون المعاني الدّقيقةِ التي تحتاجُ إلى نظرِ الأصوليِّ واستقراءِ اللّغويِّ.. مَثلا في كُتبِ النّحاةِ في الاستثناءِ من أنَّ الإخراجَ قبلَ الحُكمِ أو بعدهُ وغيرُ ذلك من الدّقائقِ التي تعرَّضَ لها الأصوليّون وأخذوها من كلامِ العربِ باستقراءٍ خاصٍّ وأدلّةٍ خاصّةٍ لا تقتضيها صناعةُ النّحوِ...» (30)



وقد تنبَّه أهلُ العربيّةِ إلى أهمّيةِ علمِ أصولِ الفقهِ فأخذوا يُحكمون علْمَ النّحوِ بمثلِ هذا المنهجِ حتى وضعُوا علمَ أصولِ النّحوِ؛ قالَ ابنُ جنّي (ت 392 هـ): «لم نرَ أحدًا من علماءِ البلدَينِ تعرَّضَ لعملِ أصولِ النّحوِ على مذهبِ أصولِ الكلامِ والفقهِ» (31)، حتى جاءَ ابنُ الأنباريِّ (ت 557 هـ) بمصنّفٍ مُستقلٍّ أسماهُ (لمُعَ الأدلّةِ في أصولِ النّحوِ) قال في مقدمتِه: «أصولُ النّحوِ أدلّةُ النّحوِ التي تفرَّعتْ منها فروعُه وفصولُه كما أنَّ أصولَ الفقهِ التي تنوَّعتْ عنها جملتُه وتفصيلُه» (32)، والتّشابهُ بين العِلْمين ـ أي علم أصول الفقه وأصول النّحوِ- جليٌّ في تصانيفِ العلماءِ؛ فلمَّا كان الأصوليّون والفقهاءُ قد ذهبُوا إلى تقسيمِ الحُكمِ الشّرعيِّ التّكليفيِّ إلى واجبٍ ومحظورٍ



ومندوبٍ ومكروهٍ إلى آخره؛ ذهبَ علماءُ أصولِ النّحوِ في تقسيمِ الحُكمِ النّحويِّ إلى واجبٍ وممنوعٍ وحَسَنٍ وقبيحٍ وخلافِ الأولى وجائزٍ على السّواءِ (33)، ولمّا كانت أدلّةُ الفقهاءِ المتّفقُ عليها: الكتابَ والسنّةَ والإجماعَ والقياسَ؛ كانَ للنَّحوِ أدلّتُه المتّفقُ عليها مثل: السّماعِ والنّقلِ والإجماعِ والقياسِ، ولمّا كانَ للفقهاءِ مصادرُهم المختلفُ فيها؛ كانَ للنّحويّينَ كذلكَ مثلُ الاستصحابِ والاستحسانِ والعُرفِ والاستقراءِ(34). والمُلاحَظُ في كُتبِ أصولِ الفقهِ أنَّ علماءَ الأصولِ قد بحثُوا مسائلَ اللّغةِ بحثًا فيه اجتهادٌ وإضافةٌ، وربَّمَا اختلفوا مع علماءِ اللّغةِ فيهَا؛ (35)، قالَ أبو المعالي الجُوينيُّ (ت 478 هـ): «واعتنَوا في فنِّهم بما أغفلَه أئمّةُ العربيةِ، واشتدَّ اعتناؤهم بذِكْرِ ما اجتمعَ فيه إغفالُ أئمّةِ اللّسانِ وظهورُ مقصدِ الشّرعِ، وهذا كالكلامِ على الأوامرِ والنّواهي والعمومِ والخصوصِ وقضايا الاستثناءِ»(36)، بل وجدَ بعضُ علماءِ اللّغةِ عبرَ مختلفِ علومِها مَن أحالَ مسائلَ لغويّةً على علماءِ الأصولِ؛ فهذا العلّامةُ القزوينيُّ اللّغويُّ (ت 739 هـ) صاحبُ التّلخيصِ لم يتعرَّض لصِيغةِ الأمرِ على التّكرارِ؛ فقالوا: «ولم يتعرَّضِ المصنّفُ لكونِ الأمرِ للتّكرارِ أوِ المرّةِ ولا لغيرِه من مسائلِ الأمرِ؛ لأنَّه أحالَهُ على كُتبِ الأصولِ»(37)وقالَ العلويُّ (ت 749 هـ) في الطّرازِ: "وقد قدَّرنا هذه المسألةَ في الكتبِ الأصوليّةِ، فإنَّ فيها مَحَطَّ رحالِها، وعليها حملُ عبئِها وأثقالِها، والإحاطةُ بعلومِ البيانِ لا تكفي في تحقيقِ هذه المسألةِ، بل لها مأخذٌ آخرُ مَوْكولٌ إلى علماءِ الأصولِ». (38)



القواعدُ الفقهيّةُ للعلومِ بمنزلةِ الأساسِ للبنيانِ، وبها يثبتُ العلمُ ويقوَى، وبها تُجمعُ الأشباهُ والنّظائرُ وهي المسائلُ التي يُشبهُ بعضُها بعضًا مع اختلافِ الحُكمِ لأمورٍ خفيَّةٍ أدركَها الفقهاءُ بدقّةِ أنظارِهم، وصنّفوا لبيانِها كُتبًا.

ثالثًا: علاقةُ القواعدِ الفقهيّةِ باللّغةِ العربيّةِ

القواعدُ الفقهيّةُ للعلومِ بمنزلةِ الأساسِ للبنيانِ، وبها يثبتُ العلمُ ويقوَى، وبها تُجمعُ الأشباهُ والنّظائرُ وهي المسائلُ التي يُشبهُ بعضُها بعضًا مع اختلافِ الحُكمِ لأمورٍ خفيَّةٍ أدركَها الفقهاءُ بدقّةِ أنظارِهم، وصنّفوا لبيانِها كُتبًا، والنّاظرُ في كتبِ القواعدِ الفقهيّةِ يرى أنّ للعربيّةِ في كثيرٍ منها النّصيبَ الأوفرَ (39) . وقد سلكَ علماءُ اللّغةِ مسلكَ علماءِ الفقهِ في هذا النّوعِ منَ التّصنيفِ حتى تأثَّرُوا بمنهجِهم في مؤلّفاتِهم ؛ قالَ السّيوطيُّ عن سببِ تأليفِه للأشباهِ والنّظائرِ: "إنِّي قد قصدتُ أنْ أسلكَ بالعربيّةِ سبيلَ الفقهِ فيما صنَّفَه المتأخّرون فيه وألَّفوه من كُتبِ الأشباهِ والنّظائرِ»(40)، فكتابُه يُشبهُ كتابَ تاجِ الدّينِ السّبكيِّ (ت 771 هـ) (الأشباهُ والنّظائر) (41)، وصدْرُ كتابِه يُشبه كتابَ (المنثورُ في القواعدِ) للزّركشيِّ (ت 794 هـ) (42)، وهذا التّأثّرُ يظهرُ جليًّا في مصنّفاتِ العِلْمينِ؛ ففي كتبِ قواعدِ الفقهِ يوجدُ الكثيرُ من مسائلِ العربيّةِ، ويَصِحُّ العكسُ في كتبِ القواعدِ العربيّةِ، إذ تُذكر فيها الكثيرُ من المسائلِ الفقهيّةِ (43). ومنَ القواعدِ المشتركةِ بين العِلْمينِ؛ قاعدةُ (الأمورُ بمقاصدِها) وهيَ إحدى القواعدِ الأساسيّةِ التي عليها مدارُ الفقهِ، كما أنَّها منَ القواعدِ التي تدورُ عليها أحكامٌ في

العربيّة؛ قالَ السّيوطيُّ (ت 911 هـ): «تجري قاعدةُ الأمورِ بمقاصدِها في علمِ العربيّةِ أيضًا؛ فأوَّلُ ما اعتبروا ذلك في الكلامِ، فقال سِيبَوَيه والجمهورُ باشتراطِ القصدِ فيه، فلا يُسمَّى كلامًا ما نطقَ به النّائمُ والسّاهي..»(44) ومنها « المنادَى النّكرةُ إن قُصِدَ نِداءُ واحدٍ بعينه يُعرَّفُ ويُبْنَى على الضَّمِّ وإلاّ فلا..»(45)، كذلك قاعدةُ (مَنِ استعجلَ شيئًا قبلَ أوانه عُوقِبَ بحرمانه)، وفروعُها الفقهيّةُ كثيرةٌ منها؛ حرمانُ القاتلِ الإرثَ، ومنها في العربيةِ أنَّ اسمَ الفاعلِ يجوزُ أن يُنعتَ بعد استيفاءِ معمولِه؛ فإن نُعت قبلَه امتنعَ عملُه من أصلِه»(46).

ممّا سبقَ يُمكنُ القولُ إنَّ هذه المحوريّةَ للّغةِ العربيّة بين العلومِ الإسلاميّةِ كانت منَ الدّوافعِ التي جعلتْ العلومَ الإسلاميّةَ على اختلافِ تخصُّصاتِها تتّجهُ مباشرةً إلى هذه اللّغةِ بحثًا ودراسةً واستمدادًا؛ لذلكَ كانَ الاعتناءُ بالمجالِ اللّغويِّ عند علماءِ الأصولِ ضروريًّا من حيثُ ضبطُ الخطابِ الشرعيِّ بضوابطِ اللّغةِ العربيّةِ عن طريقِ التّقيُّدِ والالتزامِ بسَنَنِ اللّغةِ العربيّةِ وطُرقِها في التّعبيرِ والبيانِ ومعرفةِ ما يُمكنُ أن تُؤدّيَه تلكَ الألفاظُ والتّراكيبُ من مدلولاتٍ (47)، لذلكَ أخذَ الدّرسُ اللّغويُّ عندَ علماءِ أصولِ الفقهِ خاصَّةً عدّةَ جهاتٍ ومستوياتٍ أبرزُها؛ جهةُ اللّفظِ في علاقتِه بالمعنى، وهيَ الجهةُ المسمّاةُ بالدّلالاتِ. واهتمامُ الأصوليّين بهذه الجهةِ أملتْهُ عدّةُ اعتباراتٍ وفَرَضَتْهُ عدّةُ مُعطياتٍ من أبرزِها؛ كونُ اللّفظِ أصغرَ وحدةٍ مُعجميّةٍ

---

(01) ينظر : الدكتور / حسن يشو – حاجة العلوم الإسلامية للغة العربية- الطبعة الثانية عام 2018م – دار ابن كثير – بيروت – ص 9: 10
(02) الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد- التحفة السنية بشرح المقدمة الأجرومية– الطبعة الرابعة – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر – عام 2008م .ص 8
ينظر: الدكتور/ عبد الإله نبهان - بحوث في اللغةِ والنحوِ والبلاغة - الطبعة الأولى – مطبعة اليمامة – عام 1995م – ص 23
(03) ينظر: الشيخ / عبد القادر السعدي- علاقة الشريعة باللغةِ العربيةِ
(04) بحث بمؤتمر – الرياض – عام 1984م – ص 223: 224
(05) الشافعي، الرسالة ، تحقيق/ أحمد محمد شاكر – مطبعة مصطفى الحلبي – مصر- الطبعة الأولى – 1938م- ص 50
(06) الشافعي، الرسالة ص 42
(07) الشافعي، الرسالة ص 48
(08) ابن جني، الخصائص– تحقيق / محمد على النجار – الأستاذ بكلية اللغة العربية - دار الكتب المصرية – عام 1952م- الجزء الثالث ص 245
(09) الشاطبي، الإمام العلامة أبو إسحاق، (الموافقات)، ضبطَ نصه/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن عفان للنشر – الطبعة الأولى – عام 1997م – المجلد الخامس ص 53
(10) الزمخشري، الإمام أبو القاسم، المفصل في علم العربية ، تحقيق الدكتور / فخر صالح قدارة - دار عماد للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – 2005م – ص 29 وما بعدها
(11) يوسف : 2
(12)فصلت : 3
(13) الشافعي، الرسالة ص 40
(14) القاضي أبو الفضل بن عياض، الشفا بتعريف حقوقِ المصطفى- دار ابن حزم للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – عام 2002م – ص 48
(15) الأصفهاني ، أبو القاسم الراغب، المفردات في غريب ألفاظ القرآن– تحقيق مركز الدراسات والبحوث الإسلامية بمكتبة مصطفى الباز – نزار مصطفى الباز للطباعة والنشر – ص 4
(16) الدكتور / حسن يشو حاجة العلوم الإسلامية للغة العربية - ص 338
(17) أحمد بن فارس بن زكريا ،الصاحبي في فقهِ اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامِها– تحقيق/ أحمد حسن – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى عام 1998م – ص 45
(18) الرازي، الإمام أبي بكر، المحصول في علم الأصول– تحقيق / طه العلواني – جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض – الجزء الأول – ص 275
(19) الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عُبَيد الله، الإنصاف في مسائل الخلاف – مطبعة السعادة بالقاهرة – الطبعة الرابعة عام 1961م – الجزء الأول – ص 5
(20) ينظر : السيوطي، المزهر في علوم اللغة 1/ 59
(21) ينظر: الدكتور / حسين نصار المعجم العربي نشأته وتطوره– دار مصر للطباعة – الطبعة الثانية – الجزء الأول ص 66
(22) ينظر : الدكتور/ أحمد فراج تاريخ الفقه الإسلامي– الدار الجامعية – بيروت – عام 1988م – ص 235 .
(23) ابن قتيبة غريب الحديث– تحقيق الدكتور/ نعيم زرزور – دار الكتب العلمية ط الأولى – عام 1408هـ- الجزء الأول ص 6
(24) ابن فارس، الصاحبي في فقه العربية وسنن العربية ص 44: 45
(25) أثر العربية في استنباطِ الأحكام الفقهية من السنة النبوية ص 142
(26) الدكتور / محمد أديب صالح تفسير النصوص– المكتب الإسلامي- الطبعة الرابعة عام 1993م- المجلد الأول – ص 95
(27) السيوطي، الإمام جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو– دار الكتب العلمية – بيروت – الجزء الرابع- ص 305: 312
(28) أثر العربية في استنباطِ الأحكام الفقهية من السنة النبوية ص 148

في أداءِ المعنى وإبرازِ الدّلالةِ وإيصالِ المطلوب؛ فهوَ وسيلةٌ ضروريّةٌ لتحصيلِ المعنى المُرادِ من تداولِ الخطاب، علمًا أنَّ المعنى هو المقصودُ منَ التّخاطُبِ، واللّفظُ هو أداةٌ لاكتسابِ ذلكَ المعنى، فلا بيانَ إلّا بالألفاظِ المُعبِّرةِ عنِ المعاني التي وقعتْ عليهَا في اللّغةِ(48)، قالَ الشّاطبيُّ (ت 790 هـ): «اللّفظُ إنّما هوَ وسيلةٌ إلى تحصيلِ المعنى المرادِ، والمعنَى هو المقصودُ»(49)، وعليهِ أخذَ الأصوليّونَ يُتابعونَ الألفاظَ في حالةِ الإفرادِ والتّركيبِ والإطلاقِ والتّقييدِ والخصوصِ والعمومِ والأمرِ والنّهي والإعمالِ والإهمالِ، وفي جهةِ الوضعِ والاستعمالِ والحمْلِ... ففصَّلوا القولَ في جميعِ الجهاتِ والزّوايا التي يتقاطعُ فيها اللّفظُ بالمعنى فوضعوا القواعدَ لفهمِ النّصوصِ الشّرعيّةِ وَفقَ هذه الضّوابطِ تمهيدًا لاستنباطِ الأحكامِ الشّرعيّةِ منها، واعتبرُوا الالتزامَ بهذه الشّروطِ والمقتضياتِ ضابطًا منهجيًّا وقيدًا ضروريًّا وقاعدةً لازمةً من أجلِ استجلاءِ المعنَى الذي يحملُه الخطابُ الشّرعيُّ»(50).

ولتسليطِ الضّوءِ على إسهامِ علماءِ أصولِ الفقهِ في الميدانِ اللُّغويِّ؛ أُوصي بالاقترابِ من مدارسةِ علماءِ أصولِ الفقهِ لهذا الميدان، والقصدُ في ذلكَ بيانُ موقعِ اللّغةِ وأثرِها في فَهمِ النّصوصِ الشّرعيّةِ وتحديدِ دلالاتِها التي منها تُستنبطُ الأحكامُ الفقهيّةُ.

وأسأل الله تعالى العونَ والقَبولَ والإخلاصَ لوجهِه الكريم.

---

(29) الآمدي، العلامة محمد بن علي الإحكام في أصول الأحكام ، علق عليه/ الشيخ العلامة عبد الرازق عفيفي – دار الصميعي للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى عام 2003م – الجزء الأول – ص 21: 22

(30) السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت عام 1416هـ – الجزء الأول 7: 8

(31) ابن جني ، الخصائص - تحقيق الدكتور/ محمد علي النجار – مطبوعات دار الكتب العلمية – الجزء الثاني – ص 2

(32) أبي بركات بن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو ، تحقيق/ سعيد الأفغاني – دار الفكر- بيروت – الطبع الثانية عام 1971م- ص 80

(33) السيوطي، الاقتراح ، علق عليه / الدكتور محمود سليمان ياقوت – جامعة طنطا- دار المعرفة الجامعية – عام 2006م – ص 69 وما بعدها

(34) السيوطي، الاقتراح ، ص 113 وما بعدها

(35) الدكتور حسن بيشو، حاجة العلوم الإسلامية للغة العربية، ص 379

(36) الجويني، الإمام أبي المعالي الجويني، البرهان في أصول الفقه، تحقيق الدكتور/ عبد العظيم الديب – الطبعة الأولى عام 1319هـ – قطر – الجزء الأول – ص131

(37) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، تحقيق/ الدكتور خليل إبراهيم خليل- دار الكتب العلمية - بيروت – الطبعة الأولى – الجزء الأول ص 558

(38) العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، راجعه/ محمد عبد السلام شاهين- دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى عام 1415هـ - الجزء الأول ص 531

(39) ينظر: الدكتور/ حسن بيشو، حاجة العلوم الإسلامية للغة العربية ص 428: 429

(40) السيوطي، جلال الدين ، الأشباه والنظائر – دار الكتب العلمية – الجزء الأول ص 23 والمزهر في علوم اللغة للسيوطي، علق عليه وضبطه/ الأستاذ محمد أحمد جاد المولى والأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم والأستاذ علي محمد البجاوي – مكتبة دار التراث- الطبعة الثالثة بالقاهرة - الجزء الثاني - فصل معرفة الأشباه والنظائر ص 3 وما بعدها

(41) ينظر : السبكي، الأشباه والنظائر ، تحقيق/ الشيخ على محمد معوض والشيخ أحمد عادل عبد الموجود – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى عام 1991م – مقدمة المصنف ص 4 وما بعدها

(42) ينظر : الزركشي، المنثور في القواعد ، تحقيق/ الدكتور/ تيسير فائق أحمد محمود – دار الكويت للصحافة – الطبعة الثانية عام 1985م – مقدمة المصنف ص 65 وما بعدها

(43) ينظر على سبيل المثال : القرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق، دار الكتب العلمية بيروت – الجزء الأول ص 46 و 61، وأبي الثناء نور الدين ابن الخطيب، مختصر من قواعد العلائي وكلام الإسنوي، تحقيق/ الشيخ الدكتور مصطفى محمود- العراق – ص 56 وغيرها الكثير ، والسيوطي، الأشباه والنظائر 1/ 124 و 4/ 311

(44)السيوطي، الأشباه والنظائر في فروع الفقه الشافعي –دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى عام 1983م–ص 49.

(45)السيوطي، الأشباه والنظائر في فروع الفقه الشافعي ص50

(46)السيوطي، الأشباه والنظائر في فروع الفقه الشافعي ص 152 و ص 154

(47)ينظر: الدكتور / أديب صالح، تفسير النصوص 1/ 9

(48)ينظر : محمد بنعمر، الدرس اللغوي وأهميته عند الأصوليين– مركز نماء للبحوث والدراسات – ص 7

(49) الشاطبي، لموافقات 2/ 87

(50) التصور اللغوي عند الأصوليين للدكتور/ سيد عبد الغفار – مكتبة وهبة – مصر عام 1988م – ص 55

أَفْرَادٌ مِنَ المُسْتَشْرِقين
وإنْصَافُهم لِلُغَةِ الضَّادِ



وفيق صفوت مختار
كاتب وباحث مصري

هناكَ جوانبُ مُشرقةٌ لطائفةٍ مِنَ المُستشرِقين حيث أسهمُوا بنصيبٍ وافرٍ في إحياءِ التُّراثِ الإسلاميِّ وإخراجِه للنَّاس بمنهجٍ مُنظَّم دقيقٍ، وذلك بما تهيّأَ لهم من سَبْقٍ في أدواتِ البحث، ومناهجِ الإنتاجِ والتّحقيق. هؤلاء أنصفُوا اللُّغةَ العربيَّةَ وحكمُوا لها بما تستحقُّه من ثناءٍ وتبجيل.
فاللُّغةُ العربيَّةُ تتميَّزُ عن سائرِ لُغاتِ العالَم باستمرارِها وبقائِها حسبَ ما اعترفَ به المُستشرقُ المجَريُّ «عبدُ الكريم جرمانوس» (1884 - 1979م) حيثُ قال: «إنَّ في الإسلام سندًا مُهمًا للُّغةِ العربيَّةِ أبقَى على روعتِها وخلودِها، فلم تنلْ منها الأجيالُ المتعاقبةُ على نقيضِ ما حدثَ للُّغاتِ القديمةِ المماثلةِ، كاللاتينيَّةِ».

ولقد كان للإسلامِ قُوَّةُ تحويلٍ جارفةٌ أثّرتْ في الشُّعُوب الَّتي اعْتَنقتْه حديثًا، وكان لأُسلوبِ القُرآن الكريم أثرٌ عميقٌ في خيالِ هذه الشُّعُوبِ فاقتبستْ آلافًا منَ الكلماتِ العربيَّةِ ازدانـتْ بها لُغاتُها الأصليَّةُ فازدادت قُوَّةً ونَماءً.

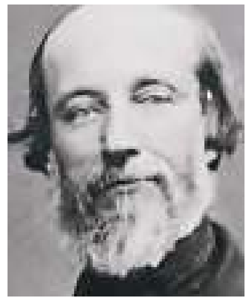
والعُنْصُر الثّاني الذي أبقَى على اللُّغةِ العربيَّةِ هُو مُرُونَتُها الَّتي لا تُبارَى، فالألمانيُّ المُعاصرُ مثلاً لا يستطيعُ أن يفهمَ كلمةً واحدةً منَ اللَّهْجَةِ التي كان يتحدَّث بها أجدادُه مُنْذُ ألفِ سنةٍ، بينما العربُ المُحْدَثُون يستطيعُون فهمَ آدابِ لُغتِهم التي كُتبت في الجاهليَّةِ قبلَ الإسلامِ.

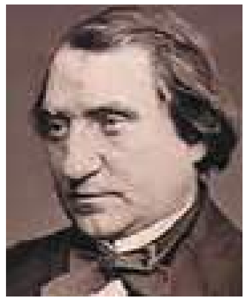
وقال المُستشرقُ الألمانيُّ "يوهان فك" Johann Fück (1894 - 1974م): «إنَّ العربيَّةَ الفُصحَى لَتدينُ حتّى يومِنا هذا بمركزها العالَميِّ أساسيًّا لهذه الحقيقةِ الثّابتةِ، وهي أنَّها قد قامت في جميعِ البلدانِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ رمزًا لُغويًّا لوحدةِ عالَمِ الإسلامِ في الثّقافة والمدنيَّةِ، لقد برهن جبروتُ التُّراثِ العربيِّ الخالدِ على أنَّه أقوَى من كُلِّ محاولةٍ يُقصدُ بها زحزحةُ العربيَّةِ الفُصحَى عن مقامِها المُسيطرِ، وإذا صدقتِ البوادرُ ولم تُخطئِ الدّلائلُ فستحتفظُ العربيَّةُ بهذا المقامِ العتيدِ من حيث هي لُغةُ المدنيَّةِ الإسلاميَّةِ».



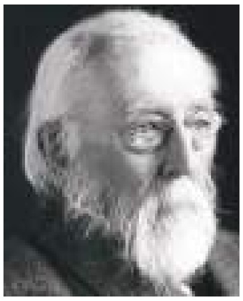
كما قال شيخُ المُستشرقين الألمانِ «ثيودور نولدكه» Theodor Nöldeke (1836 – 1930م) عنِ اللُّغةِ العربيَّةِ وفضْلِها وقيمتِها: «إنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ لم تَصِرْ حقًّا عالميةً إلَّا بسببِ القُرآنِ والإسلام، وقد وضعَ أمامَنا عُلماءُ اللُّغةِ العربُ باجتهادِهم أبنيةَ اللُّغةِ الكلاسيكيَّةِ،


جورج سارتن

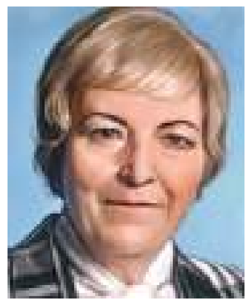

ألفريد غيوم


أرنست رينان


عبد الكريم جرمانوس

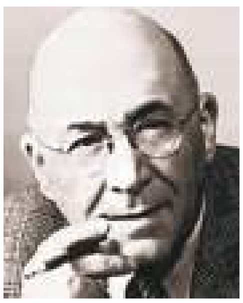

ثيودور نولدكه


لويس ماسينيون


زيغريد هونكه


غوستاف جرونبوم


يوهان فك


ماريو باي

وكذلك مفرداتِها في حالة كمالٍ تامٍّ، وأنَّه لا بُدّ أنْ يزدادَ تعجُّبُ المرءِ من وفرةِ مُفرداتِ اللُّغةِ العربيَّةِ، عندما يعرفُ أنَّ علاقاتِ المعيشةِ لدى العربِ بسيطةٌ جدًّا، ولكنَّهم في داخل هذه الدَّائرةِ يرمُزُون للفرقِ الدَّقيقِ في المعنى بكلمةٍ خاصّةٍ، والعربيَّةُ الكلاسيكيَّةُ ليست غنيَّةً فقط بالمُفرداتِ ولكنَّها غنيةٌ أيضًا بالصِّيَغ النَّحويَّةِ...».

وعن اصطفاءِ الله سُبحانه وتعالى اللُّغةَ العربيَّةَ لِتَكونَ لُغةَ القرآنِ الكريمِ الخالدةَ، قال المُستشرقُ الألماني «كارل بروكلمان» Carl Brockelmann (1868 – 1956م): «بلغتِ العربيَّةُ بفضل القُرآنِ منَ الاتّساع مدًى لا تكادُ تعرفُه أيُّ لُغةٍ أخرى من لُغاتِ الدُّنيا، والمسلمون جميعًا مُؤمنون بأنَّ العربيَّةَ وحدَها اللِّسانُ الذي أُحِلَّ لهم أنْ يستعملُوه في صلاتِهم ... ».

ولا يُنكرُ المُستشرقُ النّمسويُّ «غوستاف جرونبوم» Gustav Grunbaum (1909 – 1972م) جمالَ اللُّغةِ العربيَّةِ وإيجازَها، فقال: «.. ولِلُّغةِ العربيَّةِ خصائصُ جمَّةٌ في الأسلوبِ والنَّحوِ ليس منَ المُستطاعِ أنْ يُكتشفَ لها نظائرُ في أيِّ لُغةٍ أخرى، وهي مع هذه السَّعَة والكثرةِ أخصرُ اللُّغاتِ في إيصالِ المعاني ، وفي النَّقلِ إليها.. ».

وقالت كذلك المُستشرقةُ الألمانيةُ الدُّكتورة «زيغريد هونكه» Sigrid Hunke (1913 – 1999م): "كيف يستطيعُ الإنسانُ أنْ يُقاومَ جمالَ هذه اللُّغةِ ومنطقَها السَّليمَ وسِحْرَها الفريدَ؟، فجيرانُ العربِ أنفسِهم في البُلدانِ التي فتحوها سقطُوا صرعَى سحْرِ تلك اللُّغةِ، فلقدِ اندفعَ النَّاسُ الذين بقَوا على دينهم في هذا التَّيَّارِ يتكلَّمُون اللُّغةَ العربيَّةَ بشغَفٍ، حتى إنَّ اللُّغةَ القبطيَّةَ مثلًا ماتت تمامًا، بل إنَّ اللُّغةَ الآراميَّةَ لُغةَ المسيحِ قد تخلَّت إلى الأبدِ عن مركزِها لتحتلَّ مكانَها لُغةُ مُحمَّدٍ ﷺ".

وعن شُمُولِ اللُّغةِ العربيَّةِ واكتمالِها، قال المُستشرقُ البريطانيُّ الشّهيرُ «ألفريد غيوم» Alfred Guillaume- (188 – 1966م): «ويسهلُ على المرءِ أنْ يُدْرِكَ مدَى استيعابِ اللُّغةِ العربيَّةِ واتِّساعِها للتَّعبيرِ عن جميعِ المُصطلحاتِ العلميَّةِ للعالَمِ القديمِ بكُلِّ يُسرٍ وسُهُولةٍ، بوجود التَّعدُّدِ في تغييرِ دلالةِ استعمالِ الفعلِ والاسمِ».

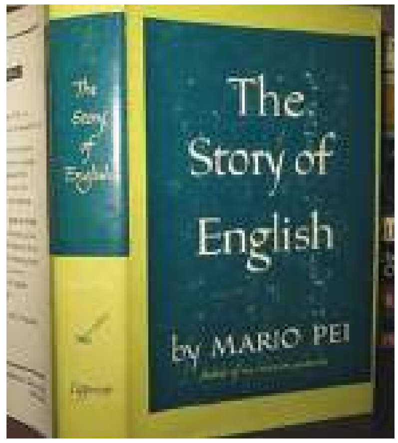
أمَّا عن اكتمالِ اللُّغةِ العربيَّةِ وكثرةِ مُفرداتِها فقال المُستشرقُ والكاتبُ الفرنسيُّ «أرنست رينان» Ernest Renan (1823 – 1892م) : «من أغربِ المُدْهِشاتِ أنْ تَنبتَ تلك اللُّغةُ القوميَّةُ وتصلُ إلى درجةِ الكمالِ وسطَ الصَّحاري عند أُمَّةٍ منَ الرُّحَّلِ ، تلك اللُّغةُ التي فاقت أخواتِها بكثرةِ مُفرداتِها ودقَّةِ معانِيها وحُسْنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرفْ لها في كُلِّ أطوارِ حياتِها طُفُولةٌ ولا شيخوخةٌ، ولا نكادُ نعلمُ من شأنِها إلَّا فُتُوحاتِها وانتصاراتِها التي لا تُبارَى، ولا نعرفُ شبيهًا لهذه اللُّغةِ التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدرُّجٍ وبقيت حافظةً لكيانِها من كُلِّ شائبةٍ».

وقال أيضًا المُستشرقُ الفرنسيُّ الكبيرُ

«ويس ماسينيون» Louis Massignon (1883 – 1962م) : «استطاعتِ العربيَّةُ أنْ تُبرزَ طاقةَ السَّاميّين في مُعالجة التَّعبيرِ عن أدقِّ خلجاتِ الفكرِ سواء أكان ذلك في الاكتشافاتِ العلميَّةِ والحسابيَّةِ أم في وصْفِ المُشاهداتِ أو خيالاتِ النَّفسِ وأسرارِها. واللُّغةُ العربيَّةُ هي التي أدخلتْ في الغرب طريقةَ التَّعبيرِ العلميِّ، وهي تُعَدُّ من أنقَى اللُّغات، فقد تميَّزت بتفرُّدِها في طُرُقِ التَّعبيرِ العلميِّ والفنّيِّ والصُّوفيّ.. ثُمَّ ذلك الإيجازُ الذي تتَّسمُ به اللُّغةُ العربيَّةُ والذي لا شبيهَ له في سائرِ لُغاتِ العالَمِ والذي يُعَدُّ مُعجزةً لُغويَّةً كما قال البيرونيّ».

كما قال المُستشرقُ الألمانيُّ «فرنباغ» Franbagh: «ليست لُغةُ العربِ أغنَى لُغاتِ العالَمِ فحسبُ، بل إنَّ الذين نبغُوا في التَّأليفِ بها لا يكادُ يأتي عليهمُ العدُّ، وإنَّ اختلافَنا عنهم في الزّمانِ والسَّجايَا والأخلاقِ أقامَ بينَنا نحن الغُرباءَ عنِ العربيَّةِ وبين ما ألَّفوه حجابًا لا يتبيَّنُ ما وراءه إلَّا بصُعوبةٍ».

أمّا البروفيسور البلجيكيّ الأمريكيّ «جورج ألفريد ليون سارتون» George Alfred Leon Sarton (1884 – 1956م) فقد قال : "وهبَ اللهُ اللُّغةَ العربيَّةَ مُرُونةً جعلتْها قادرةً على أنْ تُدوِّنَ الوحيَ أحسنَ تدوينٍ.. بجميعِ دقائقِ



معانيه ولُغاتِه، وأنْ تُعبِّرَ عنه بعباراتٍ عليها طلاوةٌ وفيها متانةٌ". وحتى تكونَ العبارةُ سليمةً لا بُدّ أنْ يكونَ المقصودُ بالوحيِ السُّنَّةَ النَّبويَّةَ المُشرّفة، أمّا القُرآنُ الكريمُ فهو كلامُ الله سبحانه وتعالى.

ويُوضِّحُ المُستشرقُ الفرنسيُّ وعالِمُ الاجتماعِ «جاك أوغسطين بيرك» Jacques Augustin Berque (1910 – 1995م) أثرَ اللُّغةِ العربيَّةِ في بقاءِ شُعُوبِها، قائلًا: "إنَّ أقوى القُوى التي قاومتِ الاستعمارَ الفرنسيَّ في المغربِ هي اللُّغةُ العربيَّةُ، بلِ اللُّغةُ العربيَّةُ الكلاسيكيَّةُ الفُصحى بالذَّاتِ، فهي التي حالت دُونَ ذوبانِ المغربِ في فرنسا، إنَّ الكلاسيكيَّةَ العربيَّةَ هي التي بلْورتِ الأصالةَ الجزائريَّةَ، وكانت هذه الكلاسيكيَّةُ العربيَّةُ عاملاً قويًّا في بقاءِ الشُّعوب العربيَّة».

وعن تأثيرِ اللُّغةِ العربيَّةِ في اللُّغاتِ العالمَيَّةِ، فقد أشاد «ماريو أندرو باي» Mario Andrew Pei (1901 – 1978م) اللُّغويُّ الأمريكيُّ (من أصلٍ إيطاليٍّ)، مُؤلِّفُ كتابِ: "قصَّة اللُّغة" (1949م) ، بأنَّ العربيَّةَ هي اللُّغةُ العالميَّةُ في حضاراتِ العُصور الوُسْطَى، وكانت رافدًا عظيمًا للإنجليزيَّةِ في نهضتِها لكثيرٍ منَ الأوروبِّيَّات، وقد أورد قاموس Littre قوائمَ بما اقتبسَتْه هذه اللُّغاتُ من مُفرداتٍ عربيَّةٍ، وكانت أوَّلَها الإسبانيَّةُ ثُمَّ الفرنسيَّةُ والإيطاليَّةُ واليونانيَّةُ والمجريَّةُ، وكذلك الأرمينيَّةُ والرُّوسيَّةُ وغيرُها، ومجموعُها (27) لُغةً، وتُقدّرُ المُفرداتُ بالآلاف.

وبعد هذه الجولةِ السِّياحيَّةِ في الحديقةِ اللُّغويَّةِ الرَّائعةِ مع مُرشدِين مُنصفِين من غير أهلِها، فإنَّ الواجبَ يُحَتِّمُ علينا أن نَعْتَزَّ بقِيَمِنا ولُغتِنا وأن نَفْخَرَ بها ونجعلَها لُغتَنا في التَّخاطُبِ والكتابةِ؛ لأنَّها جُزْءٌ من كيانِنا وهُويَّتِنَا، ولقد صدق شاعرُ النِّيلِ «حافظُ إبراهيم» (1872-1932م) في قوله:

أَنا البَحرُ في أَحشـائِه الدُرُّ كـامِنٌ
فَهَل سَـأَلوا الغَـوّاصَ عَن صَـدَفاتي

أهم المراجع والمصادر:

1 – أنور الجندي: اللُّغة العربيَّة بين حماتها وخصومها، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريَّة، 1965م.

2 – أنور الجندي: أصول الثقافة العربيَّة، القاهرة: دار المعرفة، 1971م.

3 – أنور الجندي: الفصحى لُغة القرآن، الموسوعة الإسلاميَّة العربيَّة، الجزء العاشر، بيروت – لبنان: دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، 1982م.

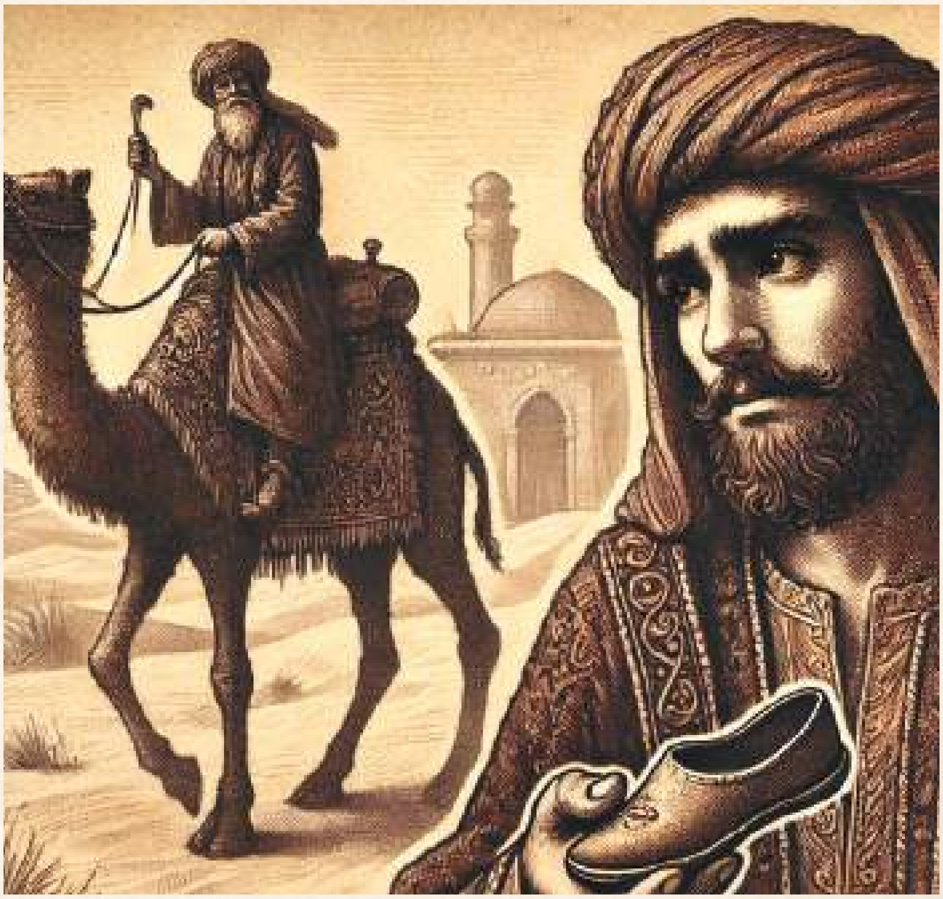
4 – أنور الجندي: الثقافة العربيَّة المعاصرة الإسلاميَّة: أصولها وانتمائها، بيروت – لبنان: دار الكتاب اللبناني، 1982م.

5 – أوغست فيشر: المعجم اللُّغوي التاريخي، تصدير: إبراهيم مدكور، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريَّة، 1968م.

6 – سيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق سعيد بيضون، كمال دسوقي، ط1، دار العالم العربي، بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1964م.

7 – نذير حمدان: اللُّغة العربيَّة، دمشق: دار القبلة الثقافيَّة الإسلاميَّة، 1990م.

رَجَعَ بِخُفَّي حُنَين



كانَ حُنَيْنُ إِسْكافِيًّا مِن أَهلِ الحِيرَة، وذاتَ مَرَّةٍ ساوَمَهُ أَعْرابِيٌّ على شِراءِ خُفَّينِ حتّى اخْتَلَفا، فَغَضِبَ حُنَينٌ منه فأَرادَ إِغاظَتَه، فَلَمّا سافَرَ الأعرابيُّ سَبَقَهُ حُنَينٌ إلى الطَّريقِ ورَمى أَحَدَ الخُفَّيْن، ثُمَّ أَلْقى الخُفَّ الآخرَ بَعْدَ بِضْعَةِ أمْتار، وانتَظَرَ مُتَخَفِّيًا إلى أنْ وصَلَ الأعرابيُّ إلى الخُفِّ الأَوَّلِ فَقالَ الأَخير: «ما أَشبَهَ هذا بِخُفِّ حُنَين، لو كانَ معَهُ الخُفُّ الآخرُ لَأَخَذْتُه» فَتَرَكَهُ واسْتَأْنَفَ طَريقَه، ولمّا رأى الخُفَّ الآخرَ ترَكَ راحِلَتَهُ بِما علَيها وأَخَذَه، ثُمَّ عادَ لِأَخْذِ الخُفِّ الأوَّل، عِنْدَها خَرَجَ حُنَينٌ من مَخبَئِهِ وأَخَذَ الرّاحِلَةَ بما عَلَيها وهَرَب، وهكذا عادَ الأعرابيُّ إلى دِيارِه دونَ الرّاحلةِ فَسَأَلَهُ قَوْمُه: «بِمَ جِئْتَنا مِنْ سَفَرِك؟»، فَقال: "جِئتُكُمْ بِخُفَّي حُنَين". وجَرَتْ مَثَلًا يُقالُ للخائبِ أو لِمَنْ يَرجِعُ دونَ تَحْقيقِ غايَتِه.

جَماليَّاتُ الأمْثالِ العَربيَّةِ



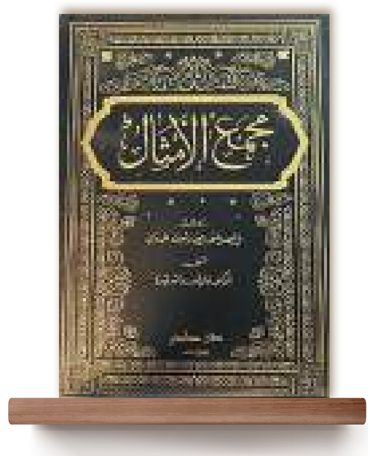
مُحمَّد عَطيَّة مَحمُود
كاتب وناقد مصري

«إذَا جُعِلَ الكَلامُ مَثلاً كَانَ أوضَحَ للمَنطِقِ، وآنَقَ للسَّمْعِ، وأوْسعَ لشُعوبِ الحَدِيثِ»
– ابنُ المُقفَّع

مِن بَليغِ القَولِ والإنْصاف: أنَّ الأمْثالَ العَربيَّة القَديمَةَ؛ كَنزٌ مِنْ كُنوزِ البَلاغَة والتُّراثِ والمُعاصرةِ مَعًا، حَيثُ تَتكئُ فِي تَجلّياتها مَع صُروفِ الحَياةِ وأحْوالها وتَقلُّباتها إلَى العَديد مِنَ المَنابعِ التَّاريخيَّةِ والإنسانيَّةِ والحيَاتيَةِ المُستَمدَّة مِن وَاقعٍ عَربيٍّ تَنتَمي إليْه تِلكَ المُفرداتُ الَّتي تُشكِّلُ البَلاغَةَ المُتَضافِرةَ مَع المَورُوث، ذَلكَ الَّذي يُعبِّر - إلَى حدٍّ بَعيدٍ - عَنِ البيئَةِ الحَاضنَةِ والمُترسِّمَة والمُوغلَةِ فِي الزَّمنِ مِن خِلالِ تِلكَ التَّشكيلاتِ اللُّغويَّةِ الخَارجَة مِن رَحِم إبدَاعٍ عَربيٍّ مُقتَرنٍ بلُغةِ الضَّاد.

ومُتميِّزٍ بالفِطْنَة واللَّماحيّة والقُدرَة عَلَى اخْتزالِ العِبارَةِ والصُّورَة مَعًا كجَماليَّاتٍ لهَا وَقعُها البَلاغيُّ والتَّأثيريُّ؛ لتَقديمِ هذَا الزُّخرُف العَميقِ للوَاقعِ، والَّذي تحْفظُه حَوائطُ الدَّهرِ ووعْـيُ العَربيِّ الشَّفاهيِّ المُتناقَلِ والمُتوَارَثِ والمَكتُوبِ الَّذي تُخلِّدهُ صَفحَاتُ الكُتبِ والأسْفارِ..

فتُمثِّل تِلكَ الخَبيئَةَ الَّتي تَمتَح مِنهَا الحِكمَةَ والعِبرَة والدَّلالَة عَبرَ الزَّمنِ كشلَّالٍ ينْبثِق مِن وِجدَانِ العَربي الحَامِل للِواءِ لُغَته الَّتي تُمثِّل هُويَّتهُ ووُجودَهُ، ولِسانَه الَّذي يُباري بِه، ويَحْمِلُ بِه ذَاكرة الزَّمانِ والمَكَان، ويصْبغُ بها العَديدَ مِن أحْوالِهِ وصُوَر وُجودِه تَمامًا كَالبَرديَّات والحَفريَّاتِ الَّتي كَانَ يَكتُبُ عليْها المِصريُّ القَديمُ أحْوالَه وأنَاشيدَه وعِباراتِه الخَالدَة الَّتِي رُبَّما كَانَت تُشكِّل عَبقَ هَذا التُّراث وهَذَا التَّاريخِ وهَذِه الثَّقافَة، الَّتي تُمجِّدُ ذَاتَها مِن خِلالِ أمْثالِها.. "فالأمْثالُ فِي أيَّةِ لُغةٍ مِنَ اللُّغاتِ هِي خُلاصَةُ تَجارِب الشُّعوبِ، وقَدْ صُبَّت فِي قَالِبٍ لَفظِيّ مُوجَزٍ، كَمَا أنَّ الأمْثالَ مِرآةٌ لِثقَافَة الأُمَّة واتِّجاهَاتها الفِكريَّة ونَظرَتها إِلَى الحَياة؛ لذَلكَ نَجدُها مَشحُونَةً بالأفْكارِ والنَّظرَة الصَّائبَة، بَلْ والحِكمَة، فمَا يَكادُ يَسمَعُها أهلُ اللُّغةِ أوْ يَقرؤُونَها حَتّى تَتداعَى المَعَانِي فِي أذْهَانهِم، فتُغنِي المُتحَدِث والكَاتِبَ عَن كَثيرٍ مِن الكَلمَاتِ» (1)



هَذا التَّأسِيسُ الَّذي يَجعَلُنا نَثِقُ بأهَميَّة تِلكَ الأمْثالِ فِي تَشكِيلِ الوَعيِ إضَافةً إِلَى تَنْمِيَة وتَعضِيدِ الذَّائقَةِ اللُّغويَّةِ الَّتي تُعبِّر عَن تِلكَ الثَّقافَة، وذَاكَ الالتِفاف حَولَ المَعانِي وبَلوَرتها، مِن خِلال كَلمَاتٍ واعِدةٍ بالمَزِيدِ مَن التَّفسِيرِ والتَّأويل ونَقل الصُّورةِ المُوجَزةِ الدَّالَّة عَلَى الحَالَة الَّتي رُبَّما يتَطابَق مَعهَا المَثَل، وكَجَماليّاتٍ للُغةٍ يتَصَاعَدُ إيقَاعُ الاستِمتَاعِ بهَا اعتِمَادًا أسَاسيًّا عَلى الإيجَازِ اللُّغويّ كمِرآةٍ للثَّقافَة، ومَا تَطرَحُه تِلكَ الأمْثالُ مِن خِلال دُروبِها المُتشَعِّبَة عَلَى شَرَفِ الكَلمَة المُعبِّرة، ومَا تَمتَحُ مِنه مِن خِلال ذَلكَ المَحصُولِ اللُّغويِّ المَجازيّ والمُختَزل كَبراعَة الشِّعر:

"ومِن هُنا كَانَت المَعرِفَةُ بالأمْثالِ ضَـرُورَةً، لَيسَ لأهْلِ اللُّغةِ النَّاطِقينَ بِها فَحسْب، بَل هِي أمْرٌ مُحتَّمٌ عَلى كُلِّ دَارسٍ للُّغةِ مِن غَيرِ أهلِهَا، إنْ لَم

يكُن لاستِعمَالِها فَمِن أجْلِ فَهمِ اللُّغة وثَقافَتِها فِي إطَارِها الطَّبيعِي، وقَدْ صَدقَ ابنُ المُقفَّع حِينَ قَالَ: "إذَا جُعِلَ الكَلامُ مَثلاً كَانَ أوضَحَ للمَنطِقِ، وآنَقَ للسَّمْعِ، وأوْسعَ لشُعوبِ الحَدِيثِ»(2)

ذَلكَ أدعَى أنْ يُقيمَ المَثلُ للشُّموليَّةِ الإنسَانيَّة بَراحَهَا المُتَّسعَ عَلى مَعنَى الوُجودِ مِن خِلالِ تِلكَ التِّيماتِ الَّتي تُعمِّقُ مِن العِلاقَاتِ المُمتدَّة، إلَى جِوارِ المَعرِفَةِ القَائمةِ عَلَى التَّميُّزِ والتَّمايُزِ مَعًا، مِن خِلالِ طَبيعَةِ تَعامُلِ تِلكَ البِيئَاتِ وتَوظِيفِها فِيمَا يَخدِم التَّواصُلَ والفَهم العَميق، كمِفتاحٍ مِن مَفاتِيحِ التَّعانُقِ مَعَ الآخَرِ؛ مَا يَجعَلُ مِن نَشرِ الثَّقافَةِ مُتاحًا وقَابلاً لِسُرعَةِ النَّقلِ والتَّطويرِ والتَّفَاهُم، بِحسَبِ مَا جاءَ بالمُعجَمِ الَّذي يَعنِينَا مِنهُ حِرصهُ البالِغُ عَلى تِلكَ الهَالَةِ مِن شَرَفِ اللُّغَةِ.

بَلاغَةُ المَثل

تَأتِي بَلاغةُ المَثلِ مِن خِلالِ تِلكَ التَّعرِيفَاتِ المُتواتِرةِ الَّتي جَاءتْ مِن خِلالِ أقْـوَالِ عُلَماءِ اللُّغَةِ والفَلاسِفَةِ عَلَى النَّحوِ الَّذي يَتشكَّل بِهِ قَوامُ هَذِهِ البَلاغَةِ مِن جِمَاعِ الخِبرَاتِ الَّتي وَضعَهَا هَؤلاءِ النَّاقِلونَ المُجسِّدونَ لِتلكَ البَلاغَةِ والخِبرَاتِ المُترَاكِمَة/ المُتوَارَثةِ الَّتي تُبْنَى عَليْها هَذِه البَلاغَة، وذَاكَ الهَدَفُ المُبتَغَى تَحقِيقُهُ مِن وَرَاءِ المَثلِ كأيْقونَةٍ لُغويَّةٍ؛ فيقُولُ المُبرّد: "المَثلُ مَأخُوذٌ مِنَ المِثالِ، وهُوَ قَولٌ سَائِرٌ يُشبَّهُ بِه حَالُ الثَّانِي بالأوَّلِ، والأصْلُ فِيهِ التَّشبِيهُ"(3)

وهُوَ النَّموذَجُ القِياسِيّ أوِ القَاعِدَةُ القِياسِيَّةُ الَّتي يَكونُ عَليْها وَضعُ الأساسيَّاتِ الَّتي يُعبِّرُ بِها المَثلُ عَن وجُودِه كَثابِتٍ مِنَ الثَّوابِتِ المَوجُودَة، والَّتي تَصيرُ مِثالاً/ نَموذجًا دالًّا عَلَى الشَّيْء بِحيَثُ لا تَتغيَّرُ تِلكَ الدَّلالَةُ ولا تَتحوَّلُ عَن تِلكَ المَلامِحِ الَّتي تَكادُ تَكونُ وَاحِدَةً مَعَ اخْتلافِ الزَّمانِ وهُويَّة المَكانِ الَّتي تَرتبِطُ بِعَوامِلِ التَّورِيثِ والاسْتفادَةِ مِن خِبرَةِ المَثلِ، وأحْيانًا تَطويرِها أو تَحويرِها لِتنطبِقَ عَلَى الحَالِ الرَّاهِنَة، أوِ المُتوقَّعِ حُدوثُها كَتداعياتٍ جَديدَةٍ.. فِيمَا يَقولُ عَنهُ إبرَاهِيمُ النَّظَّام: "يَجْتَمِعُ فِي المَثلِ أرْبعَةٌ لا تَجْتَمِعُ فِي غَيرِه مِن الكَلام: إيجَازُ اللَّفظِ، وإصَابَةُ المَعنَى، وحُسنُ التَّشبِيه، وجَودَةُ الكِتابَةِ؛ فَهوَ نِهايَةُ البَلاغَةِ"(4)

حَيثُ يَعُدُّه فِي جُملَتِه بَلاغَةً صَافِيةً وضَافِيةً ومُمعِنةً فِي تَجسِيدِ المَعنَى عَلَى النَّحوِ المَجَازِي الَّذي تَطبَعُهُ اللُّغَةُ عَلى مُكوّناته، الَّتي رُبَّما كَانتْ طَلسَمًا لَا يحْتاجُ إلَى تفسِيرٍ مِن طَلاوتِه وعُذوبَةِ لَحنِه وكَمالِ مَعانِيه؛ فالإيجَازُ مُرتَبطٌ بإصَابَةِ كَبدِ المَعنَى/ الحَقِيقَة، وسُرعَةِ الوُصولِ إلَى الهَدَفِ، إلَى جِوارِ استِخدَامِ المُحسّناتِ اللُّغويَّةِ الَّتي تُعطِي للكَلِماتِ مَعنًى وجَوهَرًا يَلِيقَانِ بتِلكَ الغَايَةِ ببَراعَةِ



{وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ}

التَّشبيهِ وحُسنِ الصِّياغَةِ النِّهائيَّةِ الَّتي تُعادِلُ جَودَةَ الكِتابَةِ؛ لتَكتَملَ فِي النِّهايَةِ تِلكَ اللَّوحَةُ البَلاغيَّةُ، كَما يَأتي فِي قَولِ "ابْنِ السِّكِّيت": "المَثَلُ لَفظُهُ يُخالِفُ لَفظَ المَضرُوبِ لَه، ويُوافِقُ مَعناهُ مَعنَى ذَلكَ اللَّفظ، شَبَّهوهُ بالمَثَلِ الّذِي يُعمَلُ عَليْه لغَيرِه»(5)

وهِيَ الدَلالَةُ البَلاغيَّةُ العَكسيَّةُ الَّتي يُثيرُها وجُودُ هَذا المَثَلِ وَسطَ جُملَةٍ مِنَ المُتَناقِضاتِ، أوْ مَا قَد نُسمِّيه "إسْقَاطًا دَلاليًّا" ونَوعًا مِن أنْواعِ الإزاحَـةِ، أوْ إطْلاقَ سَهْمِ العِبارَةِ إِلَى البَعيدِ، كَنوعٍ مِنَ التَّمويه، أوْ قَلْبَ الدَّلالَة لتَكُونَ رَمزًا مَعنَويًّا يُفهَمُ عَلى سَبيلِ المُراوَغَة، أو بِمعْنَى التَّطابُقِ كَمَا فِي قَوْلِ المَيْداني: «المَثل يُمثَّلُ بِه الشَّيْءُ أي يُشبِهُه» (6) وكأنَّما هُنا يُوجدُ تَماثُلٌ أوْ مُحاكَاةٌ كالَّتي تَأتِي مِن خِلالِ المِرآةِ حَالَ النَّظرِ فِيهَا والتِماسِ السِّماتِ والأوْضاعِ نَفسِها، وإنْ كَانَ انْعكاسًا مُتطابقًا، وهُو مَا قَدْ يَنْحرِف عَنهُ إِلى حَدٍّ مَا قَوْلُ "أبِي هِلالِ العَسكَري": "أصْلُ المَثلِ مِن التَّماثُلِ بَينَ الشَّيئَينِ فِي الكَلامِ كَقوْلِهم كَما تَدينُ تُدانْ»(7)

رُبَّمَا كانَ المَقصُودُ بِهِ ذَاكَ الوَازِعَ مِن العَقيدَةِ (أوِ الضَّميرَ) الَّتي تَعمَلُ عَملَ الحِكْمَةِ وتُؤصِّلُ فِي النَّفسِ ذَاكَ المَجرَى الَّذي يُراقِبُ فيه المَرْءُ ذَاتَهُ حَتَى يَكونَ أحرَصَ عَلَيْهَا مِنَ الانْحِرافِ، وكَنوْعٍ مِن التَّرسِيخِ الأَخْلَاقِي المَانِعِ أوِ الحَامِي مِن الزَّللِ والوقُوعِ فِي مِثلِ ذَلكَ المِثالِ. ولَيسَ أبْلَغَ مِمّا أتَى بِه (القُرآنُ الكَريمُ) مِن خِلالِ آيَاتِه المُحكمَاتِ بذَلكَ اللِّسانِ العَربِي المُبينِ، فِي قَولِه جَلَّ وعَلا: {ولَقدْ ضَرَبنَا للنَّاسِ فِي هَذَا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَل}(8)، أوْ كَما جَاءَ فِي الحَديثِ الشَّريفِ والسُّنَّة المُطهَّرةِ عَلَى لِسانِ سَيِّدِ الخَلْقِ مُحمَّد صلَّى اللهُ عَليه وسلَّم: "الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِنِ"؛ مِمَّا يُجسِّدُ أهميَّةَ المَثلِ والحِكمَة فِي تَقديمِ الصُّورِ القِياسيَّةِ/ النَّموذَجيَّةِ الَّتي تَستَلزِمُها مِعيَاريَّةُ الحُكمِ عَلَى الأَشياءِ، وكَفَلْسَفةٍ للتَّعامُلِ مَعَ الحَالَة مِن مَنظُورِها القِيَمِيّ الَّذي رُبَّما أسهمَ فِي انتِظامِ عَمليَّةِ الفَهمِ والوَعْي وإيصَالِ الرَّسائلِ الوَاضِحَة والمُشفَّرةِ عَلَى حَدّ السَّواء.

وكَمَا نَراهُ في مُحكَمِ التَّنزِيلِ: {ألَمْ تَرَ كَيْفَ ضَربَ اللهُ مَثلًا كَلمَةً طَيِّبةً كشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُها فِي السَّماءِ}(9) حَيثُ يَبدُو الإعْجَازُ عَلَى المُستَويَينِ: المَجازيّ، والدَّلاليّ.. إضَافةً إلَى المُستَوَى المَادِّي مَع عُمْقِ العلاقَةِ الميتَافيزِيقيَّةِ الَّتي تَتجلَّى فِيها الرُّوحُ في رَمْزِ الشَّجرَةِ، وإحْلالهَا فِي رُوحِ الكَلمَة، لتَنقلَ رُوحَ النِّبراسِ المُتمَثِّلة فِي قُدسيَّةِ القُرآنِ الكَريمِ، إلى رُوحِ التُّراثِ المَوجُودَةِ فِي المَثلِ، وفِي الشَّجرَة كَرمزٍ مِن رُمُوزِ العَطاءِ فِي البِيئَة العَربيَّةِ، وهِي تَنبُتُ فتُحيلُ الصَّحراءَ إلَى وَاحةٍ غنّاء..

الأمثالُ، والشِّعرُ

لَا شكَّ في أنَّ العَديدَ مِن الشُّعراءِ العَربِ عَلَى مَرِّ تَاريخِ الشِّعرِ ومَراحِله، قَدْ ضَمَّنوا أشْعَارَهم العَديدَ مِن الحِكم والأمْثالِ الَّتي تُؤثِّر فِي الوِجدانِ وتُقرِّبُ الصُّورَةَ الشِّعريَّةَ مِنَ الذِّهنِ، وتَخْدمُ المَوقِفَ الشِّعريَّ الَّذي يَكتَملُ أدَاؤهُ بهَذهِ التِّيمَةِ الثَّقافيَّةِ المُرتَبِطَة بالوَاقِعِ وبالتُّراثِ، وبالخِبرَة الحَياتيَّة، وبالتَّكوينِ

المَعْرفِي لتلكَ البيئَةِ الحَاضنَةِ والطَّبيعَةِ المُظاهِرةِ لحَياةِ الشَّاعِرِ أوْ مَنْ يُوجِّه إلَيهِم شِعرَه كخِطاب، أوْ كما يَقولُ: "فِي كَثيرٍ مِن القَصائِدِ نَرى أنَّ هَذِهِ الحِكم والأمْثال نَابعَةٌ مِنَ الغَرَضِ الذي يَتنَاوَلهُ الشَّاعِرُ، ووَليدَةُ التَّجربة الشِّعريَّةِ الَّتي يَمُر بها الشَّاعِرُ، ومُعبِّرةٌ عَنِ المَوقِفِ الشُّعُوري الَّذي يَتعرَّضُ لَه، ومِن ثَمَّ كَانتْ الحِكَمُ والأمْثالُ فِي الشِّعرِ غَيرَ مُتكلَّفةٍ وذَاتَ أثَرٍ كَبيرٍ فِي نَفسِ القَارئِ أوِ السَّامِعِ، وعِندَما نُظِمَت شِعرًا كَانتْ أكْثرَ قَبولاً وأكْثرَ إثَارةً للعَاطِفَة»(10)

ويُذكَرُ مِن هَـؤلاءِ: "زُهَيْر بنُ أبي سُلْمَى" كنَمُوذَجٍ للشِّعرِ الجَاهِلِي، كَمَا فِي قَوْلِه ضَاربًا المَثَلَ بالحَضِّ عَلَى الشَّجَاعَةِ والتَّحلِّي بأخْلاقِ الفرسَان فِي دِفاعِهم عَن أعْراضِهم وذَواتِهم وأوطَانِهم، وعَلَى العَكسِ تَمامًا لا بُدَّ مِنَ المُداورَة والالْتفَاف واستِخدَام الدَّهاءِ فِي حَالٍ أُخرَى مِن أحْوالِ الصِّراعِ مَع الآخَرين، وهُو مَا يُوازِي العَمَلَ بمُقتَضَى الحَالِ:

ومَـنْ لَـمْ يَـذُدْ عَـنْ حَـوْضِـه بِـسِلاحِـه يُـهَـدَّم وَمَـنْ لا يَـظْـلِـم الـنَّـاسَ يُظْلَم
ومَــنْ لَــمْ يُـصَـانِـع فِـي أمُــورٍ كَـثـيـرَةٍ يُضَرَّس بأنْيَابٍ ويُوطَأ بمَنْسِم (11)

وكَمَا فِي قَوْلِ شُعراءِ العَصْرِ العبَّاسِي مِثل: "أبي العتاهيَّة"، والَّذي تَتجَلَّى فِيهِ الحِكْمةُ الفَلسَفيَّةُ العَميقَةُ لتَضربَ مَثَلا عَلى حَالةٍ مِن حَالاتِ عَدم استِقرَارِ أحوَالِ الحيَاةِ وتَقلُّبها وضَرُورَةِ تَقبُّلِ المَرءِ لكُلِّ تِلكَ الأحوَالِ، ومِن ثَمَّ مُعايَشتِها وتَحمُّلِ الحَياةِ الَّتي قَد تَبلُغ قَسوَتُها دَرجَةً تُوازِي حُنُوَّها فِي أحوَالٍ وأحْوالِ:

رُبَّ أَمْرٍ يَسُوءُ ثُمَّ يَسُرّ   وَكذاكَ الأمُورُ حُلوٌ ومُرّ (12)

وكَذلِكَ فِي قَولِ «أبي العَلاءِ المعَرِّي»، حِينَ يُقارِبُ الوَازِعِ الضَّميري الَّذي تَبلُغهُ حَالةُ الصَّفاءِ مَع الخَالِقِ ومَخافَةِ مَغبَّةِ عِقابِه، وهُو الحِسُّ الشِّعري الَّذي يتَّكِئُ إلَى حِسٍّ عَقِيديّ دِينيّ مُتوغِّلٍ وكَاشِفٍ فِي ضَميرِ الشَّاعِرِ وبيئَتِه الحَاضنةِ الَّتي شَكَّلتْ وَعيَه، وهُو الانْدفَاعُ نَحوَ التَّطهُّرِ ونَزعَةِ الإيمَانِ فِي مُواجَهةِ الفَسادِ والبَاطِلِ، بالدَّعوَةِ للتَّقوَى:

أصُـولٌ قَـدْ بُـنِـيـنَ عَـلَـى فَـسَـادٍ
وتَـقْـوَى الـلـهِ سُـوقٌ لا تَـبُـور (13)

وُصُولا إلَى أمِيرِ شُعرَاءِ العَصرِ الحَديثِ "أحْمَد شَوْقي"، فِي "نَهْج البُردَة"، الَّذي يَتشبَّثُ بالمَثَلِ الأعْلَى أوِ القُدوَةِ المُتمثِّلة فِي الرَسُولِ (مُحمَّد) صَلَّى اللهُ عَليْه وسلَّم، وهُو يَمتدِحُه بأنَّهُ "عَلَّمنَا بِناءَ المَجدِ حَتَّى أخَذْنا إمْرَة الأرْضِ اغْتصَابًا"، وهُو البَيتُ الشِّعريّ الَّذي ألْحَق بِه بَيتًا آخَر يَتشبَّعُ بالمُثُلِ والحِكْمَة المُتوارِثةِ فِي تَتبُّعِ نَهجِه صلّى الله عليه وسلّم: وَمَا نَيْلُ المَطَالِبِ بالتَّمَنِّي وَلكِنْ تُؤخَذُ الدُّنْيَا غِلابًا (14) وهُو ممَّا يُعزِّزُ مِن قِيمَةِ ارتباطِ الأمْثالِ بالشِّعرِ الَّذي يُعدُّ (دِيوَان العَربِ الأوَّل)، ويُعدّ بذَلكَ تَمجِيدًا للأمْثالِ كقِيمَة مُضافَةٍ لمَا يُمكِنُ أنْ يُقدِّمهُ الشِّعرُ مِن مُواكَبةٍ للوَاقِعِ، وانطِلاقًا إلَى الخَيالِ الشِّعريِّ الوَاسِعِ؛ فَمَا بَينَ هَذَينِ النَّهْجينِ مِن جَمعٍ؛ لَهوَ مِن عبقريّة اللُّغةِ العَربيَّةِ وقُدرتِها عَلَى صِياغَةِ المَثلِ القِيمِيّ فِي سَائِر صُورِه.

الأمْثالُ، والبيئَةُ

تَرتَبطُ الأمْثالُ العَربيَّةُ بالبِيئةِ الطَّبيعيَّة الَّتي كَانتْ تُمثِّل مِرآةً تَعكسُ مَظاهِرَ الطَّبيعَةِ مِن جَميعِ جَوانِبها، فتَتجَلَّى فِيهَا رُموزٌ مَفتُوحَةٌ عَلى مَدَى الصَّحرَاءِ، كالسَّماءِ الصَّافيَةِ لَيْلا ونَهَارًا، والشَّمسِ والقَمرِ والنُّجوم، ومَا تَأتِي بِهِ تَغيُّراتُ الطَّبيعَةِ مِن غَضبٍ أحيانًا، ومَا

العَـديـدُ مِـن الـشُّـعـراءِ الـعَـربِ عَـلَـى مَـرِّ تَـاريـخِ الـشِّـعـرِ ومَـراحِـلـه، قَـدْ ضَمَّنوا أشْعَارَهم العَديدَ من الحِكم والأمْثالِ الَّتي تُؤثِّر في الوجدانِ وتُقرِّبُ الـصُّـورَةَ الـشِّـعـريَّـةَ مِـنَ الذِّهنِ.

المُبرِّد:
«المَثلُ مَأخُوذٌ مِنَ المِثال، وهُـوَ قَـولٌ سَـائِـرٌ يُشبَّهُ بِه حَـالُ الثَّاني بـالأوَّلِ، والأصْلُ فِيهِ التَّشبِيهُ»

يَعيشُ خِلالَ ذَلكَ مِن: حَيوَانٍ، ونَباتٍ، وحَشرَاتٍ، وطَيْرٍ، تُكسِبُها تِلكَ الطَّبيعَةُ بُعدها: (الأنْثروبُولوجِي، والمِيثولُوجِي) الَّذي يَعتَمدُ عَلَى هَذِه الرُّموزِ والحِكاياتِ المُختَزلَةِ فِي أمْثالٍ تَضْرِبُ فِي عُمقِ التُّراثِ والبِيئةِ المُحمَّلةِ برُموزِها الغَنيَّةِ، وتَرتَبِطُ فِيهَا البَلاغَةُ بالتُّراثِ:

«لا يَنتَطِحُ فِيهِ عَنزَان»- «إذَا ذَكرْتَ الذِّئبَ؛ فأعِدَّ لَه العَصَا» - «إذَا تَفرَّقتِ الغَنمُ؛ قَادَتها العَنْزُ الجَربَاء» - «لا نَاقَةَ لِي فِيها ولا جَملَ».. إلَى غَيرِ ذَلكَ كَثيرٌ مَن الأمْثالَ الَّتي تَناوَلتِ الحَيوانَ والطَّيرَ والحشرَاتِ كمُفرَدَات، وارتِباطَها بعمليَّةِ الصَّيدِ والقَنصِ الَّتي تَتميَّزُ بِها تِلكَ البِيئةُ الصَّحراويَّةُ والبَدويَّة: "السِّنُّورِ الصَّيَّاح لا يَصْطادُ شَيئًا"- "لو كَانَ فِي البُومَةِ خَيرٌ؛ مَا تَركَها الصَّيَّادُ" - «كالجَرَادِ لا يُبقِي ولا يَذَرُ»..

كَمَا تَأتِي نَماذجُ أخرَى للأعْلامِ الَّتي مجَّدتهَا الأمْثالُ العَربيَّةُ عَلَى نَحوِ مَا يرْبِطُها بذَاكِرةِ الوَعْي الجَمْعيِّ، ومَا بِها مِن تَندُّرٍ وإشَارَاتٍ صَارخَةٍ تَنْطبِقُ عَلَى المَزيدِ مِنَ الحَالاتِ الإنْسانيَّةِ، مَا نلمَحُ من خِلالِه مَدى ذَكاءِ العَربِي فِي التَّكيُّفِ مَع أوضَاعِه وحَالاتِه الَّتي يَستدعِي لَها قَرائِنَ وأمْثلَةً مُستمدَّةً مِن مَاضٍ يَجمَعُ بَينَ اللُّغةِ وبَينَ التُّراثِ الشَّعبِي: "ومَا يَومُ حَليمَةَ بِسرٍّ» - «عَلَى أهْلِها تَجنِي بَراقِشُ»- "عِندَ جُهَينَةَ الخَبرُ اليَقِينُ»

وكنَماذِجَ أُخرَىَ للتَّفكُّهِ والتَّندُرِ مَعًا: «كُلُّ كَلْبٍ ببابِهِ نَبَّاح» - "مَن غَربلَ النَّاسِ نَخلوُه" - "زَوجٌ مِن عُودٍ خَيرٌ مِن قُعودٍ" -«أسَدٌ عَليَّ، وفِي الحُروبِ نَعامَةٌ».

مَا يَشي باتِّساعَ المُعجَمِ اللُّغوي للأمْثالِ واستِيعابِه للثَّقافةِ البِيئيَّةِ المُتوارَثةِ الَّتِي لا تَزالُ تَحملُ المَزيدَ مِنَ الإشَارَاتِ والإحَالاتِ، مَا يُبقِي فِي الذَّاكرةِ دَوْمًا هَذِهِ الحَصِيلةِ البَلاغيَّةَ المَوسُومَةَ بالتَّنوُّعِ وجَمَالياتِ التَّناوُلِ، والتَّشبُّعِ بثَقافَةِ المَكانِ وفَضاءاتِ اللُّغةِ الَّتي تُمثِّلها بتَصويرٍ فَنِّيّ بَلاغِيٍّ بَديعٍ، تَبدُو فِيه سِماتُ العَرَبِيِّ القَديمِ مِن لَماحيَّةٍ وصَفاءِ ذِهنٍ وذَكاءٍ تُسبِغُها عَليْهِ الطَّبيعَةُ وحَياةُ البَداوةِ الَّتي تستَقِي الحِكْمَةَ مِن ظَواهِرَ تَتوَالَى عَلَى وَعيِه؛ فتَصنَعُ مِنهُ بَلاغَةً مُقترنةً بتَجرِبةٍ حيَاتيَّةٍ مُتميّزةٍ، بفِطْنةٍ وسُرعَةِ بَديهَةٍ، إضَافةً إلَى مَا يَرتَبطُ بكُلِّ هَذه الأمْثالِ مِن حِكاياتٍ تحملُ عَبقَ التَّاريخِ وأسْــرارُهُ المُتعلِّقَةَ بفَضاءٍ مَكانِيٍّ مُترَامِي الأطْرافِ شَاهِدٍ عَلَى الزَّمنِ بتَحوُّلاتِه وأثَرِه فِيه، وتُسجِّلُ فِيه آدَابَها وطُقوسَها وأحْكامَها ووقَائِعَها الشَّهيرَة المُختَزلَةَ فِي عِبارَاتٍ وَجيزَةٍ، يتَّسِعُ لَها فَضاءُ المَعنَى.

ومِن هُنا فإنَّ الاهْتمَامَ بتِلكَ الأمْثال القَديمَة؛ لَهُو إحْياءُ للُّغةِ العَربيَّةِ فِي جَانبِها الشَّفاهِي المَورُوثِ، وإعْلاءٌ لقِيمَةِ تَمسُّكِ الأُمَّةِ بهُويتِها المُقتَرنَةَ بتُراثِها ومَا تُحاولُ الأيَّامِ والسِّنونُ رَصدَهُ وإضَافَتهُ إلَى مُعجَمِها الثَّريّ، مع إبرَازِ أهَمّ مَا تتميَّزُ بِه اللُّغةُ مِن غِنًى وقُدرَةٍ عَلى التَّطويرِ مَعَ الاحتِفاظِ بمَنابِعِها المُقدَّسةِ وجِيناتها المَورُوثَةِ الدَّالَّة عَلَى ارتباطٍ جَذرِيٍّ لا يَتحوّلُ مَهمَا تَداخَلتْ مَعهُ ثَقافَاتٌ مُختلفَةٌ للشُّعوبِ، ومَهمَا ازْدادَت شَبكاتُ التَّواصُلِ الَّتي لا تَستطِيعُ نَزعَ الهُويَّةِ، ولا تَفريغَ تَاريخِ اللُّغةِ العَربيَّةِ مِن مُحتوَاه وتَطوُّراتِ بَلاغَتِها الَّتي تَستَقِي عَبقَ مَجدِ الجُذورِ، وتَحملُ تَاريخًا مِن المَجدِ لِلُغةِ الضَّادِ الَّتي حَصدَت وسجَّلتْ وحَفِظَت العَديدَ مِن عَاداتِ وتَقاليدِ أهلِهَا وخواصِّهِم، وكتَمجِيدٍ لآثَارِهِم الَّتي احتَضَنت اللُّغةَ العَربيَّةَ الأُمَّ برصَانَتِها ومُعاصَرَتِها وجِدِّيتِها، تِلكَ اللُّغة المَرِنة الَّتي تَصلُح لكُلِ زَمانٍ.

الهوامش:

(1) (د.محمود إسماعيل الصيني، ناصف مصطفى عبد العزيز، مصطفى أحمد سليمان)، معجم الأمثال العربية، مكتبة لبنان، ط1 1992

(2) المرجع السابق – المقدمة- ز

(3) المرجع السابق – المقدمة – ط

(4) المرجع السابق – المقدمة – ط

(5) المرجع السابق – نفس الصفحة

(6) نفسه

(7) نفسه

(8) سورة الروم – الآية 58 (قرآن كريم)

(9) سورة إبراهيم – الآية 24 – (قرآن كريم)

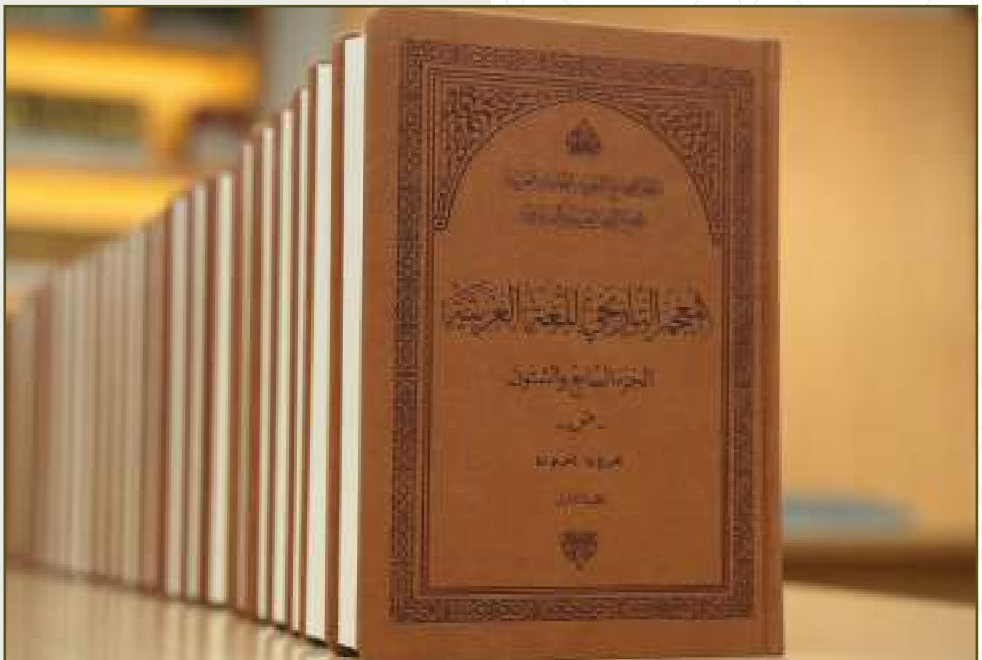
(10) معجم الأمثال العربية – المقدمة – ل

(11) المرجع السابق – نفسه

(12) المرجع السابق – نفسه

(13) المرجع السابق – نفسه

(14) المرجع السابق - نفسه



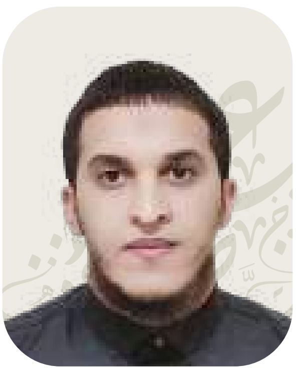
مُعجَميّات

- القَوْل المُبَثّث في معرفة فنّ الكلِم المُثلّث
- من المُعجمِ التّاريخيّ للّغة العربيّة:
  رحلة مع الجـــذر (س ب م)

القولُ المُبَثَّثُ في معرفةِ فنِّ الكلِمِ المثَلَّثِ

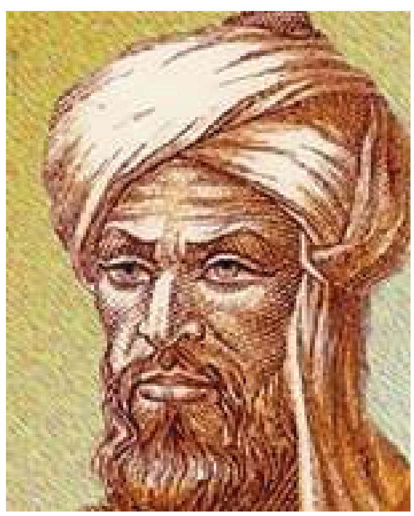
الجزء الأول

إنّ المتأمِّلَ في رفوفِ المكتبةِ العربيّةِ قديمِها وحديثِها يرفعُ السّتارَ عنِ العديدِ منَ اللآلئِ المجسّدةِ في هذه اللّغةِ العظيمةِ؛ هذه اللّغةِ العربيّةِ المقدّسةِ التي رفضَ علماؤنا القُدامى إلّا أن يكونَ لها في الإنتاجِ عديدُ التّآليفِ التي تحافظُ على هُويّةِ هذه اللّغةِ، فكانتِ المُعجماتُ العربيّةُ برمّتِها نموذجًا راقيًا من هذه التّآليفِ، وإذا وقفْنا في رحابِ المعجميّةِ العربيّةِ فإنّ لها رياضًا وحياضًا، وخَمائلَ وغياضًا، وطَرائقَ وشِعابًا، وشَواهقَ وهِضابًا، يتفرّعُ عن كلِّ أصلٍ منها أفنانٌ وفُنونٌ، وينشقُّ عن كلِّ دَوْحةٍ منها خيطانٌ وغُصونٌ، فكانتِ القرونُ الهجريّةُ الأولى نموذجًا راقيًا لمن يَمّمُوا رَحْلَهُم نحوَ التّأليفِ المعجميِّ؛ حيث يعدُّ العملُ المعجميُّ العربيُّ إنجازًا عظيمًا رائدًا منذ نشأةِ حركةِ التّأليفِ عند العلماءِ العرب.



د. إسلام حبّ الدّين
جامعة محمّد البشير الإبراهيميّ - الجزائر

فقد خلّفُوا تراثًا معجميًّا في غايةِ الدّقةِ والوفرةِ، واختلفت طرقُ البحثِ والجمعِ والوضعِ، وتنوّعت أغراضُ إنشائِها، كما تعدّدت مناهجُهم فشكّلتِ المعجماتُ والقواميسُ العربيّةُ خزانةً ثريّةً على مرِّ العصور، ليمتدّ هذا التّراثُ إلى المحدَثين الذين أبَوا إلّا أن يواصلوا المسيرةَ من خلال زيادةِ وتيرةِ التّأليفِ المعجميِّ، واقتفاءِ أثرِ سلفِهم والسّيرِ على نهجِهم تارةً ومخالفتِهم تارةً أخرى، فكان نتاجُهم الغزيرُ مرآةً صادقةً تعكسُ جدّيّتَهم؛ إذ إنّ التّأليفَ المعجميَّ المتجدّدَ خيرُ شاهدٍ على حياةِ اللّغةِ وتطوّرِها وتفاعلِها مع مستجدّاتِ العصر، فكلّما ظهرت مُعجماتٌ عربيّةٌ جديدةٌ، وقواميسُ عربيّةٌ متخصّصةٌ ومتنوّعةٌ فإنّ ذلك ينمُّ عن حياةِ اللّغةِ العربيّةِ وتطوّرِها.



ابن خلّكان

مقدّمةٌ:

تعدُّ العربيّةُ من أجلّ العلومِ فائدةً، وأفضلِها عائدةً، إذ تزخرُ بفنونٍ جمّةٍ، وعلومٍ عـدّةٍ، ومن أجلِّ تلك الفنونِ: فنُّ المثلّثاتِ اللّغويّةِ، وهي مظهرٌ من مظاهرِ الدّرسِ اللّغويِّ عند العربِ عامّةً (1)، والدّرسِ المعجميِّ خاصّةً، لتكونَ المثلّثاتُ اللّغويّةُ فنًّا من فنونِ التّأليفِ المعجميِّ، ومنَ التّصانيفِ الجليلةِ التي اجتمع لنا فيها المختلفُ منَ المعاني والمتّفقُ منها، مرتّبةً في كلّ بابٍ وَفقَ ترتيبٍ معيّنٍ، مع ذكر المعاني والشّواهدِ منَ القرآنِ والحديثِ والشّعرِ، وعلى هذا نصرّحُ بأنّ فنَّ المثلّثاتِ اللّغويّةِ فنٌّ مُعجميٌّ مبنيٌّ على رؤيةٍ صحيحةٍ دقيقةٍ تنمُّ عن فطنةِ مؤلّفيها وتبحّرِهم وموسوعيّةٍ تعكسُها شواهدُهم منَ المأثورِ من أقوالِ العربِ ومؤلّفاتِ علماءِ



اللّغة، من هنا يندرجُ المثلّثُ اللّغويُّ في خانة المعجماتِ نظرًا لأنّه كتابٌ يشرحُ المادّةَ اللّغويّةَ تتعدّدُ فيه الشّواهدُ، وَفقَ عرضٍ منهجيٍّ.

ومنَ المتعارَفِ عليه في العلوم الإنسانيّةِ أن تُعطى للظّاهرةِ المرادِ دراستُها تعريفاتٌ معيّنةٌ؛ ممّا يتيحُ إطارًا نظريًّا ومنهجيًّا ومعرفيًّا لرصدِ حدودِ الظّاهرة ومعالجتِها، وفيما يأتي رصدٌ لأهمّ التّعريفاتِ التي تطرّقَ إليها علماؤنا في مفهومِ المثَلّثاتِ لغةً واصطلاحًا.

أ. لغةً:

قبْلَ الحديثِ عن علمٍ منَ العلوم أو فنٍّ منَ الفنون وسبرِ أغوارِه لابدّ من أن نطرقَ بابَ المعجم لكي نحدّدَ المصطلحاتِ بدقّةٍ، إذ تهمسُ اللّغةُ المعجميّةُ في آذاننا بأنّ المثلّثَ كما وردَ في لسان العربِ: "المثلّثُ ما كان منَ الأشياءِ على ثلاثةِ أثناءٍ"(2) .

ب. اصطلاحًا:

المثلّثُ كما ذكره ابنُ السِّيد البطليوسيّ هو: "ما اتّفقت أوزانُه وتعادلت أقسامُه، ولم يختلف إلّا بحركة فائِه فقط، أو بحركة عينِه فقط، أو كانت فيه ضمّتان تقابلان فتحتَين وكسرتَين»(3).

قال ابنُ مالكٍ الطّائيُّ: «إنّ تثليثَ الكَلِمِ فنٌّ تميل نفوسُ الأذكياء إليه، ويعذرُ من قويَ حرصُه عليه، فإنّ فوائدَه في سُبلِ الأدب كثيرةٌ، وإصابةَ النّفعِ به غيرُ عسيرةٍ، فمن فوائدِه: انقيادُ المتجانساتِ لطالبِيها، وامتيازُ الملتبسات بكشْفِ معانيها»(4)

والمقصودُ بالمثلّثاتِ اللّغويّةِ: "أنْ نأتيَ بكلمةٍ ومع تغيير تشكيلِ حرفٍ يتغيّر المعنى، فالكلمةُ نفسُها بالفتح لها معنًى مختلفٌ عنِ الكسر وعنِ الضّمّ"(5).

ج. واضِعُها:

تُثبتُ جلُّ المصادر أنّ أوّلَ من فتح لهذا الفنّ بابَه هو إمامُ اللّغة والأديبُ النّحويُّ أبو عليّ محمّدُ بنَ المستنير الشّهيرُ بقُطرب.

قال ابنُ مالك: «وأوّلُ من عُنِيَ بهذا الفنّ محمّد بنُ المستنير -وهو الشّهير بقطرب-، لكنّه لم يتأتَّ له منه إلّا قدرٌ يسيرٌ»(6).

وقال العلامةُ الصّفديُّ: «وهو أوّلُ من وضعَ المثلّثَ في اللّغة»(7) .

وقال ابنُ خلّكان: «وهوَ أوّلُ من وضعَ المثلّثَ في اللّغةِ، وكتابُه وإن كان صغيرًا لكنْ له فضلُ السّبقِ» (8).

هـ. في رحابِ مثلّثِ قُطرب:

تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنّ مثلّثَ قُطرب هو في الأصل تصنيفٌ نثريٌّ مِنَ الأديبِ النّحويِّ قُطرب وليس نَظْمًا كما يتوهّمُ بعضُهم(9)، وقد نظمَه بعد ذلك ثلّةٌ منَ العلماء، "فوقع كثيرٌ منَ النّاس في الالتباسِ، حيث نسبوا النّظمَ إلى



قُطربَ نفسِه، وليس كذلك، وإنّما النَّظمُ لغيره»(10).

وفي السّياق نفسِه يقول عدنانُ عمر الخطيب: «... فعمِل كتابًا منثورًا في المثلّثاتِ صغيرًا، كان له فيه فضيلةُ السّبقِ لا الاستيعابِ؛ ذلك أنّ كتابَه لم يحوِ أكثرَ من 32 مثلّثًا، ومع ذلك فقد نال عينَ الرّضا عند الأئمّةِ العلماءِ، فتناولوه بالشّرحِ والنّظمِ وما إليهما» (11).

ومن بين النّاظمين لمثلّث قُطرب (12):

- سديدُ الدّين أبو القاسم عبدُ الوهاب بنُ الحسن بنِ بركاتٍ المهلبيُّ البهنسيُّ (13) (ت: 685هـ).
- عبدُ العزيز بن أحمدَ الدّيرينيُّ (ت: 694هـ).
- برهانُ الدّين بن إبراهيمَ الأزهريُّ (ت: 1079هـ).
- ابنُ العمادِ (ت: 1089هـ).
- إبراهيمُ الأزهريُّ (ت: 1100هـ).

ومن بين الشُّرّاح(14):

- أبو عبد الله بن جعفر المعروفُ بالقزّاز القيروانيُّ (ت: 412هـ).
- ابنُ السِّيد البطليوسيّ (ت: 521هـ).
- ضياءُ الدّين أبو العزّ عبدُ المغيث البغداديُّ الحنبليُّ (ت: 583هـ).
- زكرياءُ الأنصاريُّ الشّافعيُّ (ت: 910هـ).
- جلالُ الدّين السّيوطيُّ (ت: 911هـ).

وقد شرحَه نظمًا كلٌّ من(15):

- محمّد بنُ عليّ بنِ إبراهيمَ بنِ زُريق (ت: 977هـ)، وهذه الأبيات الأخيرةُ من نظمِه:

وابنُ زُريق نظمَا
شرحًا لما تقدّما
فربّما ترحّما
عليه أهلُ الأدبِ

- عبدُ العزيز المكناسيُّ المغربيُّ (ت: 880هـ)، وهذه الأبيات الأُولى منها:

وَبَعْدُ فَالقَصْدُ بِمَا
أَرَدْتُهُ شَرْحًا لِمَا
قَدْ كَانَ قَبْلُ نُظِمَا
مُثَلَّثًا لِقُطْرُبِ
مُقَدِّمًا فَتْحًا عَلَى
كَسْرٍ فَضَمٍّ مُسْجَلاَ
سَمَّيْتُهُ بِالمَوْرِثِ
لِمُشْكِلِ المُثَلَّثِ

وممّن اتّخذَ مثلّث قُطرب نواةً ومصدرًا للتّأليف وزادَ عليه: (16)

- ابنُ السِّيد البطليوسيُّ (ت: 521هـ) في المثلّث.
- ابنُ مالك (ت: 672هـ) في إكمالِ الإعلامِ بتثليثِ الكلام.
- أبو طاهرٍ مجدُ الدّين محمّد بنُ يعقوبَ بنِ محمّد بنِ إبراهيمَ الشّيرازيُّ الفيروزآباديُّ (ت: 816/817هـ) في المثلّثِ المختلفِ المعاني: الدّررُ المبثّثةُ في الغُررِ المثلّثة.
- حسن قويدر (ت: 1262هـ) في نيلِ الأربِ في مثلّثاتِ العربِ.
- الشّيخ الهادي الأبياريُّ (ت: 1305هـ) في نفحة الإكمالِ في مثلّثِ الكلام.

تهدفُ هذه الدّراسةُ إلى تبيانِ دلالةِ المثلّثاتِ اللّغويةِ الواردةِ في النّظم المشهورِ (المورّثُ لمشكل المثلّث) لعبد العزيز المكناسيّ المغربيِّ (ت: 880هـ)؛ حيث تمّ شرحُ المثلّثاتِ بالعودةِ إلى أمّاتِ المُعجماتِ معتمدًا في ذلك التّسلسلَ التّاريخيَّ للمُعجماتِ، ودراستُها دراسةً تاريخيّةً مُستشهدًا بأقدم شاهدٍ في كلّ عصرٍ منَ العصور الخمسةِ، وفي هذا المقالِ نقفُ عند لفظةِ: (السّلام).



1: سلام	اسم

1-1: ※ **السَّلامُ**: التَّحِيَّةُ.

(ق.س) (480ق.هـ/169م) إلى (1ق.هـ/621م)

قالَ لَقيطُ بْنُ يَعْمُرَ الإيـادِيُّ (249ق.هـ=380م) يُحَرِّضُ قَوْمَهُ على الفُرْسِ، ويُنْذِرُهُمْ عِنْدَما غَزاهُمْ أنوشروان:

سَلامٌ في الصَّحيفَةِ مِنْ لَقيطٍ
عَلى مَنْ بِالجَزيرَةِ مِنْ إيادِ

لقيط بن يعمر، ديوان لقيط بن يعمر. تح: ألتونجي، ص: 72.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

وفي القُرْآنِ الكَريمِ (11هـ=632م) قالَ اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ (الرّعد: 24).

وقالَ النَّبيّ ﷺ (11هـ=632م):

«يا عائِشُ، هذا جِبْريلُ يُقْرِئُكِ السَّلامَ».

صحيح البخاريّ. تح: البغا، ج: 3، ص: 1374.

قالَ مُدْرِكُ بْنُ عَمْرو (ت: 20هـ=641م):

فَتَغْدو وتَغْدي بِالسَّلامِ كَأَنَّها
عَقيلَةُ بَيْضٍ لَمْ تُدَنَّسْ ثِيابُها

الشّيباني، الجيم. تح: الأبياري، ج: 3، ص: 20.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المُقَفَّع (ت: 142هـ=759م) ناصِحًا:

«لا تَكونَنَّ نَزْرَ الكَلامِ والسَّلامِ، ولا تَبْلُغَنَّ بِهِما إفْراطَ الهَشاشَةِ والبَشاشَةِ؛ فإنَّ إحْداهُما مِنَ الكِبْرِ، والأُخْرى مِنَ السَّخَفِ».

ابن المقفع، الأدب الكبير. تح: المرصفي، ص: 30.

(د م) (657هـ/1259م) إلى (1213هـ/1798م)

قالَ الرَّسْعَنيُّ (ت: 661هـ=1263م) يُفَسِّرُ آدابَ الزِّيارَةِ وأَحْكامَها:

«الاِسْتِئْذانُ يَكونُ بِالسَّلامِ فَقَطْ».

الرّسعني، رموز الكنوز. تح: دهيش، ج: 5، ص: 230.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1444هـ/2022م)

قالَ الإمامُ الشَّوْكانيُّ (ت: 1250هـ=1834م) عَلى لِسانِ سُلْطانِ اليَمَنِ يَخُصُّ وَزيرَ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ ضياءَ الحاج يوسُف في خِطابٍ:

«سَلامٌ عابِقُ الأَرَجِ وتَحِيّاتٌ تَحْمِلُ النَّصْرَ والفَرَجَ».

الشّوكاني، البدر الطالع. دار المعرفة، ج: 2، ص: 366.

1-2: ※ **السِّلامُ: الحِجارَةُ.**

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبي الصَّلْتِ (ت: 9هـ=630م) يَذْكُرُ سَفينَةَ نَبِيِّنا نوحٍ - عَلَيْهِ السَّلامُ - وَمَنْ نَجا بِها:

«وإذْ هُمْ لا لَبوسَ لَهُمْ تَقيهِمْ
وإذْ صُمُّ السِّلامِ لَهُمْ رِطابُ»

ديوان أمية بن أبي الصّلت. تح: سجيع الجبيلي، ص: 23.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الخَليلُ بْنُ أَحْمَدَ الفَراهيدِيُّ (ت: 170هـ=787م):

«والسِّلامُ: الحِجارَةُ، لَمْ أَسْمَعْ واحِدَها، ولا سَمِعْتُ أَحَدًا يُفْرِدُها، ورُبَّما أُنِّثَ عَلى مَعْنى الجَماعَةِ، ورُبَّما ذُكِّرَ، وقيلَ: واحِدَتُهُ: سَلِمَةٌ"(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ).

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 7، ص: 265.

قالَ الشّاعِرُ (ت: 170هـ=787م) مِنْ شَواهِدِ الخَليلِ بْنِ أَحْمَدَ الفَراهيدِيِّ:

«※زَمَنَ الفِطَحْلِ إذِ السِّلامُ رِطابُ※».

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 7، ص: 265.

1-3: ※ **السُّلامُ: العِظامُ التي بَيْنَ كُلِّ مَفْصِلَيْنِ مِنْ مَفاصِلِ الأَصابِعِ والواحِدَةُ سُلامى.**

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

وقالَ النَّبيّ ﷺ (11هـ=632م):

«كُلُّ سُلامى مِنَ النّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ الشَّمْسُ».

أحمد بن حنبل، مسند أحمد. تح: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ج: 13، ص: 512.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الخَليلُ بْنُ أَحْمَدَ الفَراهيدِيُّ (ت: 170هـ=787م):

«والسُّلامى: عِظامُ الأَصابِعِ والأَشاجِعِ والأَكــارِعِ، وهِيَ كَعابِرُ كَأَنَّها كِعابٌ، والجَميعُ: السُّلامِياتُ».

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 7، ص: 265.

قالَ أَبو مَيْمُونِ النَّضْرُ بْنُ سَلَمَةَ العِجْلِيُّ (ت: 209هـ=825م) يَصِفُ الخَيْلَ:

«لا يَشْــتَكينَ عَمَلاً ما أَنْقَيْنْ ما دامَ مُخٌّ في سُلامى أَوْ عَيْنْ».

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 5، ص: 219.

(د م) (657هـــــــ/1259م) إلى (1213هـ/1798م)

قــالَ ابْــنُ مــالِــكٍ الـطّـائِـيُّ (ت: 672هـ=1274م):

«والمُشْطُ (بِالضَّمِّ وَحْدَهُ) سُلامِياتُ ظَهْرِ القَدَمِ».

ابـن مالك، إكمال الأعلام بتثليث الكلام. تح: سعد بن حمدان الغامدي، ج: 2، ص: 639.

في ختام هذا الجزء الأوّل من مقال: القولُ المبثّثُ في معرفة فنّ الكلم المثلّث وما ذُكر فيه؛ نقولُ لكلِّ قارئ: يكفيكَ منَ القلادة ما أحاطَ بالعنقِ، ومنَ الدّراري مـا لاحَ في الأفق، سائلاً المولى عزَّ وجــلَّ قَبــول ما حبّرتْهُ الأقلامُ، والظّفرَ بالعنايةِ من ذوي العقــولِ الرّاجحةِ والأفهام.

1- ينظر: عدنان عمر الخطيب، مربّع في مثلثات قطرب اللّغويّة عبد العزيز بن أحمد الدّيريني (ت: 694هـ)، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، م: 81، ج: 3، تموز 2006م، ص 598.

2 – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، [د.ط]، [د.ت]. ج2، ص 123. مادة [ث ل ث].

3 – ابن السِّيد البطليوسي، كتاب المثلث، تح: صلاح الفرطوسي، وزارة الثّقافة، سلسلة كتب التّراث، رقم: 111، 1401هـ/ 1981م، دار الرّشيد، بغداد، ص 47.

4 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الجيانيّ (ت: 672هـ)، إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تح: سعد بن حمدان الغامدي، مكتبة المدني، جدّة - السّعوديّة، ط1، 1404هـ/1984م، ج2، ص 3.

5 – هشام بن محمّد حيجر الحسني، أربع رسائل في شرح مثلّث قطرب، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1431هـ/ 2010م، ص 5.

6 – ابن مالك الطائيّ، إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تح: سعد بن حمدان الغامدي، مكتبة المدني، جدّة - السّعوديّة، ط1، 1404هـ/1984م، ص 3.

7 – صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ/2000م، ج5، ص 14.

8 – أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عبّاس، دار صادر بيروت، 1972م، ج4، رقم الترجمة: 635، ص 312.

9 – ينظر: هشام بن محمّد حيجر الحسني، أربع رسائل في شرح مثلّث قطرب، أربع رسائل في شرح مثلّث قطرب، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 1431هـ/ 2010م، ص6.

10 – المرجع نفسه، ص 6.

11 – عدنان عمر الخطيب، مربّع في مثلثات قطرب اللّغويّة عبد العزيز بن أحمد الدّيريني (ت: 694هـ)، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، م: 81، ج: 3، تموز 2006م، ص 598.

12 – ينظر: المرجع نفسه، ص 599.

13 – وفي بعض المصادر يذكر باللام بدل الهاء (البلنسيّ).

14 – ينظر: عدنان عمر الخطيب، مربّع في مثلثات قطرب اللّغويّة عبد العزيز بن أحمد الدّيريني (ت: 694هـ)، ص 599. وينظر كذلك: هشام بن محمّد حيجر الحسني، أربع رسائل في شرح مثلّث قطرب، ص 8.

15 – هشام بن محمّد حيجر الحسني، أربع رسائل في شرح مثلّث قطرب، ص 7.

16 – ينظر: عبد الحيّ بن أحمد بن العماد الحنبليّ (ت: 1032هـ)، منظومة شرح مثلّثات قطرب، تح: وليد عبد اللّه المنيس، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت – لبنان، ط1، 1428هـ/2007م، ص 16. وينظر: عدنان عمر الخطيب، مربّع في مثلثات قطرب اللّغويّة عبد العزيز بن أحمد الدّيريني (ت: 694هـ)، ص 599.

فــروقٌ لُغــويّة

الخَصْلَةُ، والخُصْلَةُ

الخَصْلَةُ (بفتح الخاء): خُلُقٌ في الإنسانِ، يَكونُ فَضيلةً أو رَذيلةً، الجمْع (خِصَالٌ)، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم:

«أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، ومَن كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّى يَدَعَهَا: إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ». رواه البخاريّ

الخُصْلَةُ (بضمّ الخاء): الشَّعَر المجتمع أو طرف الشّعَر المتدلِّي، وتأتي بمعنى القطعة من اللّحم، والجمع (خُصُلٌ).

****

الجحد والإنكار

الجحد: أخصّ من الإنكار، فهو إنكار الشّيء الظّاهر البيّن مع العلم به، والشّاهد قوله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤]

الإنكار: يكون مع ما هو ظاهر وخفي، فهو أعمّ من الجحد، قال الله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل:83]

الشّك والظّنّ

الشّك: هو خلاف اليقين، ويكون التّردّد فيه بين أمرين دون أن يرجَح أحدهما على الآخر. قال تعالى: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ} [يونس: ٩٤]

الظّنّ: هو التّردّد بين أمرين رجح أحدهما على الآخر فالرّاجح ظنٌّ والمرجوح وهمٌ.

قال عليه الصلاة والسلام: «يا أبا بكرٍ ما ظَنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما» رواه البخاريّ

****

الاستهزاء والسخرية

الاستهزاء: يقع على الإنسان من غير أن يَسبِقَ منه فعل يُستَهزأُ به من أجله ومنه قوله تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٧٩].

السخرية: تدل على فعل يسبق من المسخور منه فيستدعي السخرية، ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنبياء: 41].

من المُعجمِ التّاريخيّ للّغة العربيّة

رحلة مع الجذر (س ب ح)

المُعْجَمُ التَاريخيُّ للُّغَة العَرَبيَّة حِصْنُ اللُّغَة الحَصين، وحارِسُها الأَمينُ، يَضُمُّ بينَ جَنَباتِه مُفْردات اللُّغَة العربيَّة وأَلْفاظَها وتراكيبَها، بمعانيها الدَّقيقة، وشواهدِها الاستعماليَّة الأنيقة، ويَكْشِفُ عن ماضي اللُّغَة التَّليد، ويُعزِّزُ حاضِرَها الزّاهرَ المجيد، ويُبينُ عَنْ أَصْلِ الوَضْعِ اللُّغويِّ لِمُفْرداتها، ويُبرِزُ تَطَوُّرَ دِلالاتِها، مَعَ تَتَبُّعٍ تاريخيٍّ خلالَ الأَزْمِنَة والعُصور، شامِلٍ لِكُلِّ ما نَطَقَتْ بِه العَرَبُ مِنْ مَنْظومٍ ومَنْثورٍ، مَعَ عِنايَةٍ بالِغَة في التَّدقيق، وجُهْدٍ غايةٍ في التَّحقيق، يُقَدِّمُ المعلوماتِ بِنَسْجٍ مُحْكَمٍ فائقٍ، في قالبٍ إخراجيٍّ رائق.

وفي هذا المقالِ نُحَلِّقُ بكم في جَوِّ سَماءِ المعجمِ التّاريخيِّ لِلُّغة العربيَّة، ونُطَوِّفُ في أرْجاءِ الجذرِ (س ب ح)، نَتَأَمَّلُ ما حواهُ مِنْ عُلومٍ وفوائِد، وما اكْتَنَزَهُ مِنْ دُرَرٍ وفرائِد.



د. بهاء الدين دنديس
باحث لغوي في مجمع اللغة العربية بالشارقة

وعِندَما يَسْبَحُ الفِكْرُ في أَلْفاظِ الجذْرِ (س ب ح) ويَغوصُ في مَعانيه، ويَتَأَمَّلُ دلالاتِ مَبانيه، يَسْتَخْرِجُ دُرَرًا يَنْثُرُها في مَعانٍ كُلِّيَّةٍ أَرْبَعَةٍ وهيَ: 1. السَّعْيُ. 2. التَّعَبُّدُ. 3. العَوْمُ. 4. الإسْراعُ.

والمُعْجَمُ التّاريخيُّ للُّغة العَرَبيَّةِ احْتَفى بِالجذرِ (س ب ح) وسَطَّرَ لَهُ سيرَةً تاريخيَّةً عَطِرَةً، ودَوَّنَ لَهُ مَعانيَ أَنيقةً نَضِرَةً، فمِن دلالاتِ الفعل سبحَ: التَّصَرُّفُ في طَلَبِ المَعاش، ويَشْهَدُ لِذلِكَ المَعْنى ما وَرَدَ في آياتِ الوَحْيِ المُنَزَّلِ، ففي سورةِ المُزَّمِّلِ بَعْدَ أَنْ جاءَ الأَمْرُ بقيامِ اللَّيْلِ، وتَقْسيمِ الأَعْمالِ والواجباتِ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ، بحَيْثُ يَكونُ اللَّيْلُ للنَّوْمِ والرّاحَةِ والعِبادَةِ والصَّلاةِ، والنَّهارُ للنَّشاطِ وطَلَبِ المَعاشِ والمَشْيِ في مَناكِبِ الأَرْضِ والسَّعْيِ للرِّزْقِ.

عَدَدُ المَداخِلِ: 21

1: سَبَحَ	فعل

1-1: ※ **سَبَحَ** (بِفَتْحِ الباءِ) فُلانٌ يَسْبَحُ (بِفَتْحِ الباءِ) سَبْحًا، وسُبْحانًا (عَنِ ابْنِ سيدَه): تَصَرَّفَ في طَلَبِ مَعاشِه.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرْآنِ الكَريم (11هـ=632م) قالَ اللهُ ﷻ يُخاطِبُ النَّبِيَّ ﷺ:

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ (المزمِّل: 7)

*****

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الزَّجّاجُ (ت: 311هـ=923م) يُفَسِّرُ قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ (المزّمِّل: 7):

«سَبْحًا طويلاً؛ فَراغًا وتَصَرُّفًا». **(وهذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقيَّةِ العُصورِ)**

الأزهري، تهذيب اللغة. تح: عبد الله درويش، ج: 4، ص: 337.

*****

والمُتَبادَرُ إلى الذِّهنِ مِن مَعاني الفعلِ (سبح): العَوْمُ، ومِن استعمالاتِه بهذا المَعْنى ما جاءَ على لِسانِ الشّاعِرِ عَبيدِ بنِ الأَبْرَصِ، يَفْخَرُ بِتَمَكُّنِه في نَظْمِ الشِّعْرِ:

1-8: و—— فُلانٌ بِالنَّهْرِ أَو بِالبَحْرِ، وفيهِ، سَبْحًا، وسِباحَةً: عامَ.

(ق س) (480ق هـ/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قالَ عَبيدُ بْنُ الأَبْرَصِ (ت: 25ق.هـ=598م) يَفْخَرُ بِشِعْرِهِ:

سَلِ الشُّعَراءَ هَلْ سَبَحُوا كَسَبْحِي * بُحورَ الشِّعْرِ أَوْ غاصُوا مَغاصي؟**

ديوان عبيد بن الأبرص. تح: عدرة، ص: 73.

*****

وما وَرَدَ في السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ عَنِ النَّبيِّ المُكَرَّمِ مُحَمَّدٍ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، يَقُصُّ عَلى أَصْحابِهِ رُؤْيا رَآها:

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ النَّبيُّ ﷺ (ت: 11هـ=632م) يَذْكُرُ رُؤْياهُ وقَدْ أَتاهُ آتِيانِ:

«فَأَتَيْنا عَلى نَهْرٍ مِثْلِ الدَّمِ، فَإذا في النَّهْرِ رَجُلٌ يَسْبَحُ، وإذا عَلى شاطِئِ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجارَةً كَثيرَةً، وإذا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ ما يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتي ذَلِكَ الَّذي قَدْ جَمَعَ الحِجارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا».

البيهقي، الجامع. تح: الندوي، ج: 7، ص: 358.

*****

والفعلُ (سبح) يُسْتَعمَل بِمَعنى الجَرَيانِ والدَّوَرانِ، ومن ذلكَ قَوْلُهُمْ: سَبَحَتِ النُّجومُ في أَفْلاكِها؛ إذا جَرَتْ فيها ودارَتْ، وقَدْ جاءَ هذا الاستِعمالُ في آياتِ القُرْآنِ كما في قَوْلِهِ تَعالى:

1-9: و ــــ النُّجومُ في الفَلَكِ: جَرَتْ في دَوَرانِها وانْبَسَطَتْ فيه.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرْآنِ الكَريمِ (11هـ=632م) قالَ اللهُ ﷻ:

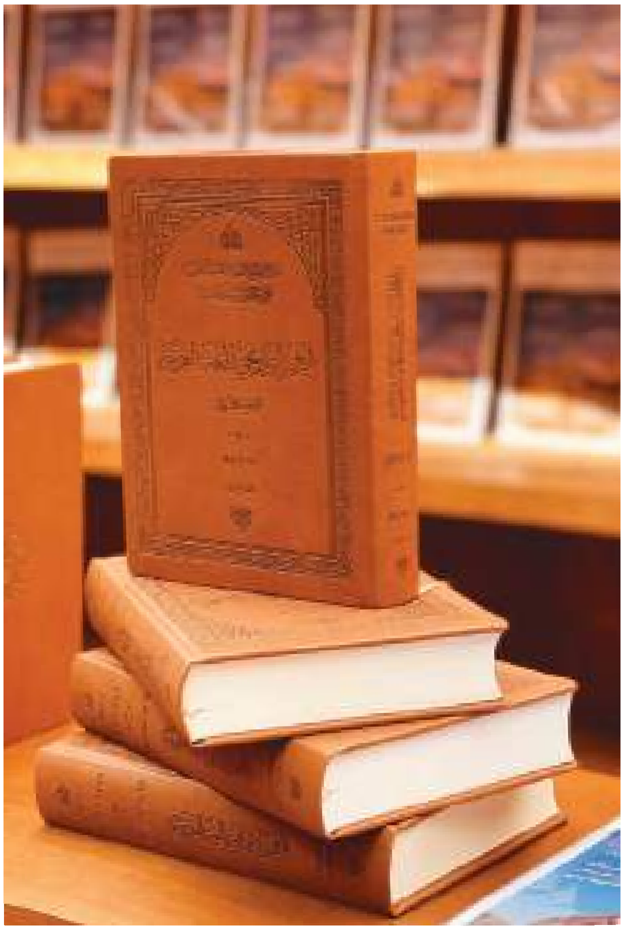
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: 33)

*****

والعَرَبُ تَقولُ لِمَن ذَهَبَ وتَباعَدَ: سَبَحَ فُلانٌ في الأَرْضِ، ومِنْ ذلكَ ما حَكاهُ الأَزْهَرِيُّ في "التَّهْذيبِ" عَنْ أَبي الجَهْمِ الباهِلِيِّ:

1-10: و ــــ فلانٌ في الأَرْضِ: ذَهَبَ فيها وتَباعَدَ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)



قالَ أَبو الجَهْمِ الباهِلِيُّ (ت: 228هـ=843م):

«سَبَحْتُ في الأَرْضِ وسَبَحْتُ فيها؛ إذا تَباعَدْتَ فيها».**(وهذه الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

الأزهري، تهذيب اللغة. تح: عبد الله درويش، ج: 4، ص: 337.

ومِنَ التَّراكيبِ الاسْتِعمالِيَّةِ للفعلِ (سبح) قَوْلُهُمْ: سَبَحَ ضِدَّ التَّيّارِ؛ إذا خالَفَ رَأْيَ الجَماعَةِ أَوْ عارَضَهُمْ، كما في النَّصِّ الآتي:

1-12: o **سَبَحَ ضِدَّ التَّيّارِ**: عارَضَ الرَّأْيَ السّائِدَ أو خالَفَ الواقِعَ الَّذي هُوَ فيه.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قال مُحَمَّد سَوادي (1378هـ=1959م، تاريخ الطَّبْعِ):

«أُريدُ أَنْ أَقولَ كَمُؤَرِّخٍ: إنَّ خُصومَ محمد سُرور يَقولونَ إنَّهُمْ كانوا يُحِبّونَ محمد سُرور الصَّغيرَ وهُوَ يَسْبَحُ ضِدَّ التَّيّارِ، وإنَّهُمْ لا يَرَوْنَ في مُحَمَّد سُرور الوَزيرِ ما يَدْعو إلى التَّقْديرِ».

سوادي، عند مشرق العروبة. الناشر العربي، ص: 140.

وقَوْلُهُمْ: سَبَحَ في أَحْلامِهِ أَوْ خَيالِهِ؛ إذا بالَغَ فيها ومَلَكَتْ عَلَيْهِ واقِعَهُ، كما في النَّصِّ الآتي:

*****

1-13: o **سَبَحَ في الأَحْلامِ** أَوْ **في الخَيالِ**: اسْتَغْرَقَ في أَحْلامِ اليَقَظَةِ.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قال أَحْمَد حَسَن الزَّيّات (1353هـ=1934م) يَتَحَدَّثُ عَنْ أَوَّلِ رِحْلَةِ طَيَرانٍ لَلطيفَةَ النّادي، ومُشاهَدَةِ النّاسِ لَها:

«وكانَتْ عُيونُ مِصْرَ حينَئِذٍ تَشْخَصُ إلى السَّماءِ مُغْرَوْرِقَةً بالأَمَلِ (...) ثُمَّ غابَتِ الأَصْواتُ في مَطاوي الفَضاءِ، واسْتَوْلى على المَطارِ اللَّجِبِ سُكونٌ وصَمْتٌ، حَتَّى إذا أَزِفَ مَوْعِدُ الرُّجوعِ سَرَحَتِ العُيونُ في الجَوِّ، وسَبَحَتِ النُّفوسُ في الخَيالِ».

مجلة الرسالة. العدد: 27، 1934م، ص: 4.

*****

وكَذا قَوْلُهُمْ: سَبَحَ في أَفْكارِهِ أَوْ مَعَ أَفْكارِهِ؛ إذا اسْتَغْرَقَ فيها وغاصَ عَميقًا في تَفْكيرِهِ، كَما في النَّصِّ الآتي:

1-14: o **سَبَحَ في أَفْكارِهِ** أو **مَعَ أَفْكارِهِ**: اسْتَغْرَقَ في تَفْكيرِهِ.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قالت سُهير القَلَماويّ (1353هـ=1934م، تاريخ النَّشْرِ) تُتَرْجِمُ قِصَّةً لشاتو بريان:

«وعِنْدَ الغُروبِ بَيْنَما كانَ ابْنُ حامِدٍ سائِرًا سابِحًا في أَفْكارِهِ، إِذْ تَنَبَّهَ على صَوْتِ النّاقوسِ يَدْعو النَّصارى إلى صَلاتِهِمْ (...) فيَرى في الكَنيسَةِ لوترك راكِعًا يُصَلّي».

مجلة الرسالة. العدد: 46، 1934م، ص: 877.

*****

ومِنَ التَّراكيبِ الاسْتِعْماليَّةِ في الدَّلالَةِ على شُرودِ الفِكْرِ والتَّعَلُّقِ بالأَحْلامِ والمُبالَغَةِ في التَّخَيُّلاتِ قَوْلُهُمْ: فُلانٌ يَسْبَحُ في الغُيومِ؛ إِذِ الغُيومُ توحي بالارْتِفاعِ الشّاهِقِ وتومئُ بِصُعوبَةِ بُلوغِها والوُصولِ إِلَيْها، فَضْلًا عَنِ السِّباحَةِ فيها، فمَنْ يَصِلُها لِيَسْبَحَ فيها فقَدِ ارْتَقى مُرْتَقًى صَعْبًا لا يُتَصَوَّرُ إلّا في الخيالِ ولا أَساسَ لَهُ في الواقِعِ المُشاهَدِ.

1-16: o **سَبَحَ في الغُيومِ**: اسْتَرْسَلَ في الأَحْلامِ وتَعَلَّقَ بِها، وكانَ شارِدَ الفِكْرِ تائِهًا في التَّأَمُّلاتِ والأَوْهامِ.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قال فليكس فارس (1355هـ=1936م) بَعْدَ أَنْ عَرَضَ دَعْوَتَهُ إلى إِنْهاءِ الخِلافِ بَيْنَ المُسْلِمينَ والأَقْباطِ في مِصْرَ:

«دَعْهُمْ يَهْزَؤونَ ويَقولونَ: إِنَّنا نَسْبَحُ في الغُيومِ. إِنَّ مِنَ الغُيومِ تَنْقَضُّ صَواعِقُ السَّماءِ».

فليكس فارس، رسالة المنبر إلى الشرق العربي. ص: 19.

*****

ومِنْ جَميلِ التَّعابيرِ وبَديعِ التَّصاويرِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اشْتَدَّ بُكاؤُهُ وفاضَ دَمْعُهُ: سَبَحَ في دُموعِهِ، كِنايَةً عَنْ كَثْرَتِها، كَأَنَّ هُمومَهُ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ حَتّى أَثْقَلَتْ دُموعُهُ عَيْنَيْهِ ففاضَتْ حَتّى صارَتْ كالبَحْرِ مِنْ كَثْرَتِها، فهُوَ في حُزْنٍ شَديدٍ عَميقٍ، كَما في النَّصِّ الآتي:

1-15: o **سَبَحَ في الدُّموعِ**: اشْتَدَّ بُكاؤُهُ وفاضَ دَمْعُهُ.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قال حُسَيْن شَوْقي (1354هـ=1935م، تاريخُ النَّشْرِ) في أَحْداثِ قِصَّةٍ خَياليَّةٍ عَنْ إِبْليسَ:

«أَخَذَ إِبْليسُ طَوالَ اللَّيْلِ يُفَكِّرُ في حالِهِ، لا يَدْري ما يَفْعَلُ، فَكَّرَ أَوَّلًا في قَتْلِ الزَّوْجِ لِيَتَقَدَّمَ بَعْدَ ذلِكَ إلى المَحْبوبَةِ في صورَةِ شابٍّ جَميلٍ سَرِيٍّ، ولكِنْ تَراءى لَهُ عِنْدَئِذٍ وَجْهُ المَحْبوبَةِ سابِحًا في الدُّموعِ على فَقْدِها زَوْجَها».

مجلة الرسالة. العدد: 84، 1935م، ص: 232.

*****

ومِنَ الأَوْزانِ الفِعْليَّةِ في الجِذْرِ (س ب ح) ما يَرِدُ على وَزْنِ (فاعَلَ)، الَّذي يَدُلُّ على المُشارَكَةِ، ومِنْ ذلكَ قَوْلُهُمْ: سابَحَ الفَرَسُ الشَّيْءَ؛ إذا سابَقَهُ، كَما جاءَ على لِسانِ جَريرٍ، يَصِفُ خَيْلَ قَوْمِهِ ويَفْخَرُ على الفَرَزْدَقِ والبُعَيْثِ:

3: سابَحَ	فعل

3-1: ✱ **سابَحَ** الفَرَسُ ونَحْوُهُ الشَّيْءَ: سابَقَهُ وأَبْعَدَ مَعَهُ السَّيْرَ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ جَريرٌ(ت: 110هـ=728م) يَصِفُ خَيْلَ قَوْمِهِ ويُفاخِرُ بِها الفَرَزْدَقَ والبُعَيْثَ:

✱مِنْ كُلِّ شَـقّاءَ تَراها خَيْفَقـا✱

✱تُسابِحُ البِيدَ بِــشَدٍّ أَنْفَقـا✱

ديوان جرير. تح: طه، ج: 2، ص: 794.

*****

ووَرَدَ مِنْهُ أَيْضًا الوَزْنُ (فَعَّلَ) مُضَعَّفُ العَيْنِ، ولَهُ عِدَّةُ دلالاتٍ، مِنْها: قَوْلُهُمْ: سَبَّحَ فُلانٌ؛ إذا قالَ: سُبْحانَ اللهِ، ومِنْ ذلكَ ما جاءَ في الآياتِ الكَريمَةِ والأَحاديثِ الشَّريفَةِ:

4: سَبَّحَ	فعل

4-1: ✱ **سَبَّحَ** فُلانٌ سُبْحانًا (المَصْدَرُ على غَيْرِ قِياسٍ، عن ثَعْلَب): قالَ سُبْحانَ اللهِ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرْآنِ الكَريمِ (11هـ=632م) قالَ اللهُ ﷻ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد:1)

وَقالَ النَّبيّ ﷺ (ت: 11هـ=632م):

«أيَعْجِزُ أحَدُكُمْ أنْ يَكْسِبَ في اليَوْمِ ألْفَ حَسَنَةٍ؟ قالَ: ومَنْ يُطيقُ ذلِكَ؟ قالَ: يُسَبِّحُ مِئَةَ تَسْبيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ ألْفُ حَسَنَةٍ، وتُمْحى عَنْهُ ألْفُ سَيِّئَةٍ».

مسند أحمد. تح: الأرناؤوط وآخرين، ج: 3، ص: 88.

*****

والتَّسْبيحُ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنى الصَّلاةِ، كما ورَدَ في قَوْلِ الأعشى:

4-2: و ـــ : صَلّى.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ الأعْشى (ت: 7هـ=628م):

وسَبِّحْ على حينِ العَشِيّاتِ والضُّحى***ولا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ، والله فاعْبُدا

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 3، ص: 152.

وكما في الآياتِ الكَريمَةِ والآثارِ الشَّريفَةِ:

وفي القُرْآنِ الكَريم (11هـ=632م) قالَ اللهُ ﷻ:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران: 41)

وَقالَ النَّبيّ ﷺ (ت: 11هـ=632م):

«مَنْ قَعَدَ في مُصَلّاهُ حينَ يُصَلّي الصُّبْحَ حَتّى يُسَبِّحَ الضُّحى، لا يَقولُ إلّا خَيْرًا غُفِرَتْ لَهُ خَطاياهُ، وإنْ كانَتْ أكْثَرَ مِنْ زَبَدِ البَحْرِ».

مسند أحمد. تح: الأرناؤوط وآخرين، ج: 24، ص: 388.

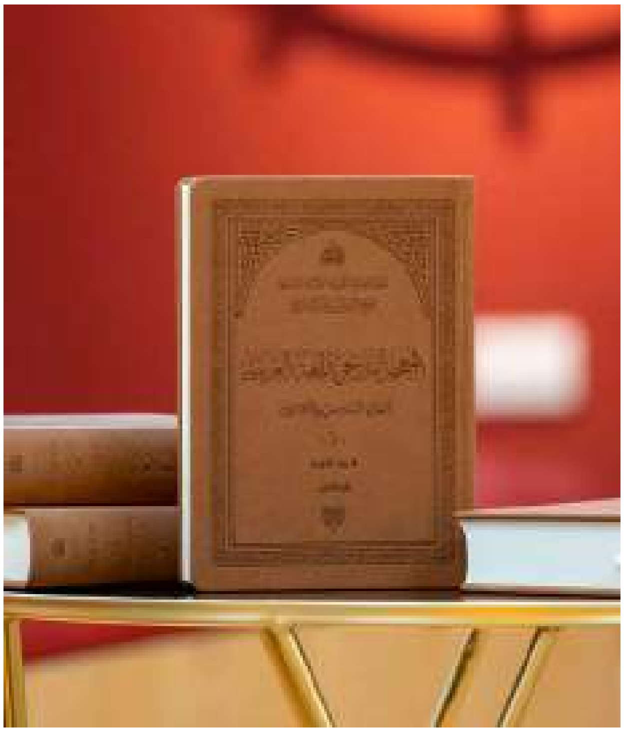
*****

ومِنْ مَعاني التَّسْبيحِ: التَّقْديسُ والتَّنْزيهُ، يقالُ: سَبَّحَ العَبْدُ رَبَّهُ: إذا نَزَّهَهُ عَنِ العُيوبِ والنَّقائِصِ، وقَدَّسَهُ، ومِنْ ذلكَ قَوْلُ عديّ بن زَيْد :

4-4: و ـــ اللهَ تَعالى، وبِهِ، ولَهُ: قَدَّسَهُ ونَزَّهَهُ عَنْ جَميعِ العُيوبِ والنَّقائِصِ.

(ق س) (480ق هـ/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ (ت: 35ق.هـ=588م):



لَيْسَ شَيْءٌ على المَنونِ بباقٍ***غَيْرُ وَجْهِ المُسَبَّحِ الخَلّاقِ

ديوان عديّ بن زيد. تح: المعيبد، ص: 150.

ويأتي بِمَعْنى التَّمْجيدِ والتَّعْظيم، ومِنْ ذلكَ:

*****

4-5: و ـــ : عَظَّمَهُ ومَجَّدَهُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرْآنِ الكَريم (11هـ=632م) قالَ اللهُ ﷻ:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الحاقة: 52)

وَقالَ النَّبيّ ﷺ (ت: 11هـ=632م) يَذْكُرُ ساعَةَ الزَّوالِ:

«ولَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إلّا وهُوَ يُسَبِّحُ اللهَ تِلْكَ السّاعَةَ».

الترمذي، الجامع الكبير. تح: معروف، ج: 5، ص: 200.

وقالَ ابْنُ عَبّاس (ت: 68هـ=688م) إذا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ:

«سُبْحانَ مَنْ سَبَّحَتْ لَهُ، سُبْحانَ اللهِ العَظيمِ».

موسوعة ابن أبي الدنيا. تح: الرقي، ج: 6، ص: 568.

ومِنَ التَّراكيبِ الاستعماليَّةِ للفعلِ المُضَعَّف (سبَّح)، ما جرى مَجْرى الأمْثالِ، وراحَ يُضْرَبُ فيما شابَهَهُ مِنَ الأحْوالِ، ومِنْ ذلكَ قَوْلُهُمْ: سَبَّحَ لِيَسْرِقَ، وهوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُنافِقُ ويُرائي، كما ذَكَرَهُ المَيْدانيُّ في «مَجْمَعِ الأمْثالِ» إذْ يَقولُ:

*****

4-6: ٥ **سَبَّح لِيَسْرِق**: مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُنافِقُ ويُرائي في عَمَلِه.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قال أبو الفَضْلِ المَيْدانيُّ (ت: 518هـ=1124م):

«سَبَّحَ لِيَسْرِقَ: يُضْرَبُ لِمَنْ يُرائي في عَمَلِه». (وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصور)

الميداني، مجمع الأمثال. تح: عبد الحميد، ج: 1، ص: 338.

*****

ومِنَ الأمْثالِ أيْضًا قَوْلُهُمْ: سَبِّح يَغْتَرّوا؛ يُضْرَبُ مَثَلًا فيمَنْ يَتَظاهَرُ بَيْنَ النّاسِ بِالصَّلاحِ مُكْثِرًا مِنَ التَّسْبيحِ مُسْتَغِلًّا مَنْزِلَتَهُ العَلِيَّةَ؛ لِيَخْدَعَ بِها النّاسَ ويُحقِّقَ مآرِبَ دَنيئَةً، وقَدْ شَرَحَ ابنُ رِفاعة الهاشِميُّ هذا المَثَلَ بِقَوْلِه:

4-7: ٥ **سَبِّحْ يَغْتَرّوا**: مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُريدُ أنْ يُنافِقَ، بِأنْ يُكْثِرَ مِنَ التَّسْبيحِ، فيَغْتَرَّ بِهِ غَيْرُهُ ويَثِقَ بِه، فيَخونَهُ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قال ابْنُ رِفاعَةَ الهاشِميُّ (ت: 373هـ=983م) يَشْرَحُ مَثَلًا:

«سَبِّحْ يَغْتَرّوا؛ أي: أكْثِرِ التَّسْبيحَ يَغْتَرّوا بِكَ، فيَثِقوا بِكَ، فتَخونَهُمْ». (وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصور)

ابن رفاعة، الأمثال. دار سعد الدين، ص: 144.

ومِنَ الأمْثالِ أيْضًا قَوْلُهُمْ: فَمٌ يُسَبِّحُ ويَدٌ تُذَبِّحُ، في الجَمْعِ بَيْنَ النَّقيضَيْنِ، وفيمَنْ يُظْهِرُ خِلافَ ما يُبْطِنُ، فأنّى لامْرِئٍ يُسَبِّحُ فَمُهُ بِحَقٍّ وصِدْقٍ، أنْ تُزْهِقَ يَداهُ أرْواحًا وتُذَبِّحَ؟!، ومِن ذلِكَ ما جاءَ عَلى لِسانِ أبي بَكْرٍ الخوارزْميّ:

*****

4-8: ٥ **فَمٌ يُسَبِّحُ ويَدٌ تُذَبِّحُ**: مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُظْهِرُ التَّقْوى والوَرَعَ، ويُخْفي الشَّرَّ والمَكْرَ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قال أبو بَكْرٍ الخَوارِزْمِيُّ (ت: 383هـ=993م) يَذْكُرُ ما تَقولُهُ العامَّةُ لِمَنْ يُظْهِرُ التَّقْوى ويُخْفي الشَّرَّ:

«فَمٌ يُسَبِّحُ، ويَدٌ تُذَبِّحُ». **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصور)**

الخوارزمي، الأمثال المولدة. المجمع الثقافي، ص: 139.

*****

والعَرَبُ تُسَمّي الخَيْلَ لِسُرْعَةِ جَرَيانِها: سابِحاتٍ، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُ امْرِئِ القَيْسِ، يَصِفُ سُرْعَةَ فَرَسِه:

6: سابحات	اسم

6-1: ❋ **السّابِحاتُ**: الخَيْلُ.

(ق س) (480ق هـ/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قالَ امْرُؤ القَيْس (ت: 80ق هـ=544م) يَصِفُ سُرْعَةَ فَرَسِه:

مِسَحٍّ إذا ما السّابِحاتُ عَلى الوَنى ❋❋❋ أَثَرْنَ الغُبارَ بِالكَديدِ المُرَكَّلِ

ديوان امرئ القيس وملحقاته. تح: عليان وآخرين، ص: 254.

*****

وقولُ النّابغة الجعديّ يَذكرُ ما يكونُ في الحُروب من هلاكٍ للخُيول الأصيلَة:

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ النّابِغَةُ الجَعْدِيُّ (ت: 50هـ=670م) يَذْكُرُ أَنَّ الحَرْبَ تَقْتُلُ السّادَةَ والخُيولَ الأَصيلَةَ:

أَلَمْ تَعْلَموا ما تَرْزَأُ الحَرْبُ أَهْلَها❋❋❋وعِنْدَ ذَوي الأَحْلامِ مِنْها التَّجارِبُ

لَها السّادَةُ الأَشْرافُ تَأْتي عَلَيْهِمُ ❋❋❋ فَتُهْلِكُهُمْ والسّابِحاتُ النَّجائِبُ

ديوان النّابغة الجعديّ. تح: واضح الصّمد، ص: 22.

وبذلكَ جاءَ أحَدُ الأقْوالِ التَّفسيريَّةِ لقَوْلِه جَلَّ جَلالُهُ يُقْسِمُ بالسّابِحاتِ: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ (النازعات: 3)؛ بِأَنَّها الخَيْلُ السّابِحَةُ في الغَزْوِ، كَما وَرَدَ عِنْدَ الشَّوْكانِيِّ في تَفْسيرِه «فَتْح القَديرِ»:

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قالَ الشَّوْكانِيُّ (ت: 1250هـ=1834م) يُفَسِّرُ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ (النازعات: 3):

«وقيلَ: [السّابِحاتُ] هِيَ الخَيْلُ السابِحَةُ في الغَزْوِ».

الشوكاني، فتح القدير، ص: 1580.

*****

و(السّابِحاتُ) تُطْلَقُ أيْضًا عَلى المَلائِكَةِ الكِرامِ الّتي تَنْزِلُ إلى الأرْضِ في مَهمّاتٍ، كَما جاءَ عَنِ الفَرّاءِ في كِتابِه "مَعاني القُرْآن" يذْكُرُ أحَدَ الأقْوالِ التَّفْسيريَّةِ للَفْظِ (السّابِحات) في قَوْلِ الله

تَعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات:3)

6-2: و___: المَلائِكَةُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

في القُرآنِ الكَريمِ (11هـ=632م) قالَ اللهُ ﷻ:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات:3)

*****

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الفرّاءُ (ت: 207هـ=822م) يُفَسِّرُ قَوْلَ اللهِ ﷻ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات: 3):

«والسّابِحاتِ سَبْحًا: المَلائكَةُ أَيْضًا، جَعَلَ نُزولَها مِنَ السَّماءِ كَالسِّباحَةِ". **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

الفرّاءُ، معاني القرآن. تح: النجار، ج: 3، ص: 230.

وقالَ ابْنُ عَرَبيّ (ت: 638هـ=1240م) يُعَدِّدُ مَهامَّ الملائكَةِ وأَوْصافَها:

«... إِذْ كانوا الصّافّاتِ والزّاجِراتِ والتّالِياتِ والمُرْسَلاتِ ...، والسّابِحاتِ والسّابِقاتِ، والمُدَبِّراتِ، وهَؤُلاءِ كُلُّهُمْ مَلائكَةُ التَّسْخيرِ».

ابن عربي، الفتوحات المكية. تح: شمس الدين، ج: 3، ص: 379.

وكما ذَكَرَهُ الشَّوْكانيُّ أَيْضًا:

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قالَ الشَّوْكانيُّ (ت: 1250هـ=1834م) يُفَسِّرُ قَوْلَ اللهِ ﷻ:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات: 3):

«والسّابِحاتُ: المَلائكَةُ تَسْبَحُ في الأَبْدانِ لإِخْراجِ الرّوحِ كَما يَسْبَحُ الغَوّاصُ في البَحْرِ لإِخْراجِ شَيْءٍ مِنْهُ».

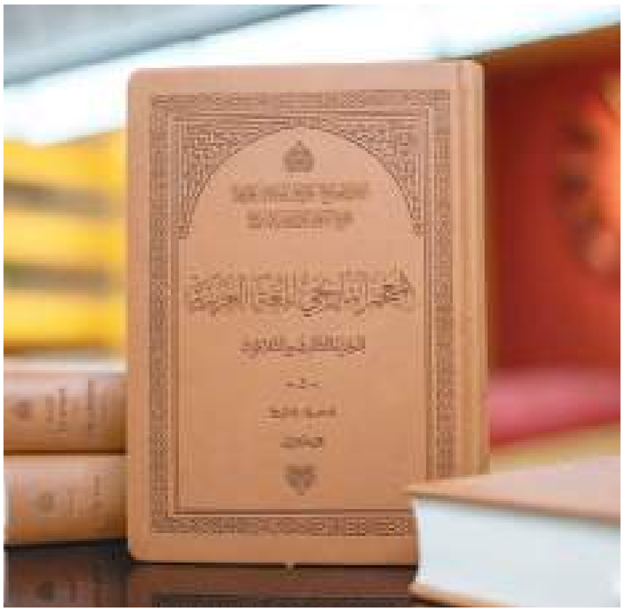
الشوكاني، فتح القدير، ص: 1580.

*****

و(السّابِحاتُ) تُطْلَقُ عَلى النُّجومِ، وقَدْ جاءَ هذا المَعْنى عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُما في تَفْسيرِ السّابِحاتِ إِذْ يَقولُ:

6-3: و___: النُّجومُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)



قال ابْنُ عَبّاس (ت: 68هـ=688م) يُفَسِّرُ قَوْلَ اللهِ ﷻ:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات: 3):

«والسّابِحاتِ سَبْحًا: فَالسّابِقاتِ سَبْقًا، كُلُّ هَؤُلاءِ النُّجومُ».

الفيروزآبادي، تنوير المقباس. ص: 633.

*****

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ أبو نُواس (ت: 198هـ=814م) يُلَبّي لَمّا حَجَّ:

لَبَّيْكَ إِنَّ الحَمْدَ لَكْ *** والمُلْكَ لا شَريكَ لَكْ

واللَّيْلَ لَمّا أَنْ حَلَكْ *** والسّابِحاتِ في الفَلَكْ

المعافى بن زكريا، الجليس الصالح. تح: عباس، ج: 3، ص: 342.

*****

و(السّابِحاتُ) تُطْلَقُ عَلى السُّفُنِ؛ كَوْنَها تَسْبَحُ في البَحْرِ، ومِنْ ذَلِكَ ما جاءَ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُما، في أَحَدِ الأَقْوالِ المَرْوِيَّةِ عَنْهُ في تَفْسيرِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات: 3):

*****

6-4: و___: السُّفُنُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ ابْنُ عَبّاسٍ (ت: 68هـ=688م) يُفَسِّرُ قَوْلَ اللهِ ﷻ:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات: 3):

«والسّابِحاتِ سَبْحًا هِيَ سُفُنُ غُزاةِ البَحْرِ».

الفيروزآبادي، تنوير المقباس. ص: 633.

*****

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)
قالَ الزَّجّاج (ت: 311هـ=923م) يُفسِّرُ قَوْلَ اللهِ ﷻ:
﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ (النازعات: 3):

«والسّابِحاتِ سَبْحًا: السُّفُنُ». (وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)

الزّجّاج، معاني القرآن. تح: شلبي، ج: 5، ص: 277.

*****

ولكُلِّ أصْبعٍ مِنْ أصابِعِ اليَدِ اسْمٌ عِنْدَ العَرَبِ، فيُسَمّونَ الأصْبَعَ ما بَيْنَ الإبْهامِ والوُسْطى: السَّبّابَةَ؛ لأنَّ أحَدَهُمْ إذا أرادَ أنْ يَسُبَّ اسْتَعْمَلَهُ يُشيرُ بِهِ إلى مَنْ يَسُبُّهُ، ولكنْ لَمّا جاءَ الإسْلامُ ارْتَقى بالنُّفوسِ وهَذَّبَ الأقْوالَ والألْفاظَ، وكَساها حُلَلَ الأدَبِ وأثْوابَ الفَضيلَةِ، وهذا اللَّفْظُ في الاستعمالِ النَّبَويِّ جاءَ يَعْلوهُ البَهاءُ ويَكْسوهُ الجَمالُ، فقَدْ غَيَّرَهُ النَّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ إلى السَّبّاحَةِ، اسْتِنادًا إلى ما يَقومُ بِهِ مِنْ مهمَّةٍ شَريفَةٍ جَليلَةٍ وهِيَ الإشارَةُ إلى وَحْدانيَّةِ اللهِ جَلَّ جلالُهُ وتَنْزيهِهِ عَنِ الشُّرَكاءِ، وما يَكونُ مِنِ اسْتِعْمالِ هذا الأصْبعِ في الصَّلاةِ الَّتي هِيَ مِنْ مَعاني التَّسْبيحِ، ومِنْ ذلكَ قَوْلُ النَّبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ:

10: سَبّاحَة — اسم

10-1: ❊ **السَّبّاحَةُ:** السَّبّابَةُ؛ وهِيَ الأُصْبُعُ الَّتي تَلي الإبْهامَ، يُشارُ بها عِنْدَ التَّسْبيحِ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)
قالَ النَّبِيُّ ﷺ (ت: 11هـ=632م):

«واللهِ، ما الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ السَّبّاحَةَ -أَوِ السَّبّابَةَ- في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِما يَرْجِعُ».

ابن المبارك، الزهد. تح: الأعظمي، ج: 1، ص: 295.

وَقالَ عَبْدُ الرَّحمنِ بْنُ أَبْزَى الخُزاعِيّ (ت: 73هـ=693م) يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ:

«كانَ يُشيرُ بِأُصْبُعِهِ السَّبّاحَةِ في الصَّلاةِ».

مسند أحمد. تح: الأرناؤوط وآخرين، ج: 24، ص: 82.

*****

والسُّبّوحُ مِنْ أسْماءِ اللهِ الحُسْنى، ومَعْناهُ المُنَزَّهُ عَنِ السّوءِ والعَيْبِ والنَّقْصِ، وعَنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بِإلَهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وصفاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ، وقَدْ كانَ النَّبيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَذْكُرُ هذا الاسْمَ في رُكوعِهِ وسُجودِهِ فيَقولُ: سُبّوحٌ قُدّوسٌ رَبُّ المَلائِكَةِ والرّوحِ، وقَدْ رَوى ذلكَ الإمامُ مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ حَيْثُ يَقولُ:

11: سَبُّوح / سُبُّوح — اسم

11-1: ❊ **السَّبُّوحُ والسُّبُّوحُ:** مِنْ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى وأوصافِهِ العُلى، ومَعْناهُ: المُنَزَّهُ عَنِ السّوءِ والعَيْبِ والنَّقْصِ والشَّريكِ، وَكُلِّ ما لا يَليقُ بِإلهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وصِفاتِهِ، وهُوَ الَّذي يُسَبِّحُهُ ويُقَدِّسُهُ ويُنَزِّهُهُ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)
قالَ النَّبِيّ ﷺ (ت: 11هـ=632م) يَذْكُرُ ما يَقولُهُ في سُجودِهِ:

«سُبُّوحٌ قُدّوسٌ، رَبُّ المَلائِكَةِ والرّوحِ».

مسلم، الصحيح. تح: عبد الباقي، ج: 2، ص: 51.

*****

ومِنَ التَّراكيبِ المَشْهورَةِ للجِذْرِ (س ب ح) قَوْلُهُم: سُبْحانَ اللهِ، وهوَ تَرْكيبٌ لِتَعْظيمِ اللهِ والثَّناءِ عَلَيْهِ ويُفيدُ تَنْزيهَهُ عَنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بِهِ جَلَّ جَلالُهُ، كما يُسْتَعْمَلُ هذا التَّرْكيبُ أيْضًا عِنْدَ التَّعَجُّبِ. ومِنِ اسْتِعْمالِهِ بِمَعْنى التَّعَجُّبِ ما جاءَ عَلى لِسانِ أُمِّ المُؤْمِنينَ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها لَمّا عَلِمَتْ بِحَديثِ النّاسِ عَنِ الإفْكِ الَّذي اتُّهِمَتْ بِهِ وهِيَ مِنْهُ بَريئَةٌ:

*****

12-2: o و**سُبْحانَ اللهِ**: لَفْظٌ لِتَنْزيهِ اللهِ ﷻ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وسوءٍ وكُلِّ ما لا يَليقُ بِهِ كَالصّاحِبَةِ والوَلَدِ والشَّريكِ، يُقالُ لِتَعْظيمِهِ والثَّناءِ عَلَيْهِ، ويُقالُ أيضًا عِنْدَ التَّعَجُّبِ مِنْ أَمْرٍ ونَحْوِ ذلِكَ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)
قالَتْ أُمُّ المُؤْمِنينَ عائِشَةُ (6هـ=626م) لَمّا عَلِمَتْ بِحَديثِ النّاسِ عن الإِفْكِ الَّذي اتُّهِمَتْ بِهِ وهِيَ مِنْهُ بَريئَةٌ:

«سُبْحانَ اللهِ! ولَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذا؟».

البخاري، الصحيح. تح: الناصر، ج: 3، ص: 173.

ومِنِ اسْتِعْمالِهِ بِمَعْنى التَّنْزيهِ والتَّقْديسِ ما جاءَ في آياتِ القُرْآنِ الكَريمِ، إذْ يَقولُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ:

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)
في القُرْآنِ الكَريمِ (11هـ=632م) قالَ اللهُ ﷻ:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: 91)

*****

ومِنَ التَّراكيبِ الاسْتِعماليَّةِ للَفْظِ (سُبْحان) قَوْلُ العَرَبِ في المُتَضادَّيْنِ يَجْتَمِعانِ: سُبْحانَ الجامِعِ بَيْنَ الثَّلْجِ والنّارِ، فمِنَ العَجيبِ أنْ يَجْتَمِعَ النّارُ والثَّلْجُ، ومِنْ ذلِكَ ما أَوْرَدَهُ أَبو بَكْرٍ

الخوارزميُ في كِتابِه "الأمْثالِ المُولَّدة"، يَذْكُرُ ما تَقولُهُ العامَّةُ في المُتَضادَّيْنِ يَجْتَمِعانِ:

12-5: ○ **سُبْحانَ الجامِعِ بَيْنَ الثَّلْجِ والنّارِ، وبَيْنَ الضَّبِّ والنّونِ**: مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْمُتَضادَّيْنِ يَجْتَمِعانِ. والنّونُ: الحوتُ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ أبو بَكْرٍ الخَوارِزْمِيُّ (ت: 383هـ=993م) يَذْكُرُ ما تَقولُهُ العامَّةُ لِلْمُتَضادَّيْنِ يَجْتَمِعانِ:

«سُبْحانَ جامِعٍ بَيْنَ الثَّلْجِ والنّارِ». (وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)

الخوارزمي، الأمثال المولدة. المجمع الثقافي، ص: 197.

*****

وسورَةُ الإسْراءِ تُسَمّى سورَةَ (سُبْحانَ)، حَيْثُ هِيَ السّورَةُ الوَحيدَةُ في القُرْآنِ الكَريمِ المُفْتَتَحَةُ بِهذا الوَزْنِ مِنَ التَّسْبيحِ، حَيْثُ يَقولُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ في مَطْلَعِها: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ **[الإسراء ١]**

12-6: ○ **وسورَةُ سُبْحانَ** (في عُلومِ القُرْآنِ): اسْمٌ مِنْ أَسْماءِ سورَةِ الإسْراءِ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ يَحْيى ابْنُ سَلَّامٍ القَيْرَوانِيُّ (ت: 200هـ = 815م) في مَطْلَعِ تَفْسيرِ سورَةِ الإسْراءِ:

«تَفْسيرُ سورَةِ سُبْحانَ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

تفسير ابن سلام، تح: شلبي، ج: 1، ص: 101.

ومِنَ الألْفاظِ المُتَمَحِّضَةِ للاسْمِيَّةِ الوارِدَةِ في الجِذْرِ (س ب ح) اللَّفْظُ (سبحة)، ولَهُ استعمالاتُهُ ودلالاتُهُ، فمِنْ ذلكَ أنَّ العَرَبَ تُسَمّي الثَّوْبَ مِنَ الجِلْدِ الأمْلَسِ، يَلْبَسُهُ الصَّبِيُّ أوْ تَتَزِرُ بِهِ الجارِيَةُ: سَبْحَةً وسُبْحَةً، ومِصْداقُهُ ما جاءَ على لِسانِ مالِكٍ الخُناعِيِّ بِقَوْلِهِ:

13: سَبْحَة/ سُبْحَة — اسم

13-1: ❋ **السَّبْحَةُ والسُّبْحَةُ**: الثَّوْبُ مِنَ الجِلْدِ الأمْلَسِ، يَلْبَسُهُ الصَّبِيُّ أوْ تَتَزِرُ بِهِ الجارِيَةُ.(ج) سِباح.

(ق س) (480ق هـ/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قالَ مالِكٌ الخُناعيّ (ت: 86ق.هـ=538م) يَمْدَحُ زُهَيْرَ بْنَ الأغَرِّ:

أَقَبُّ الكَشْحِ خَفّاقٌ حَشاهُ*** يُضيءُ اللَّيْلَ كالقَمَرِ اللِّياحِ

وصَبّاحٌ ومَنّاحٌ ومُعْطٍ ***إذا عادَ المَسارِحُ كَالسِّباحِ

ديوان الهذليين. تح: الشنقيطي، ج: 3، ص: 6.

*****

والسَّبْحَةُ اسْمُ فَرَسٍ شَقْراءَ لِرَسولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فقَدْ جاءَتْ تَسْمِيَتُها عَلى لِسانِ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

13-2: و—: فَرَسٌ شَقْراءُ لِرَسولِ اللهِ ﷺ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ أَنَسُ بْنُ مالِكٍ (ت: 93هـ=712م) يُجيبُ أبا لَبيدٍ عَنْ رِهانِ النَّبِيِّ ﷺ عَلى الخَيْلِ:

«نَعَمْ، واللهِ لَقَدْ راهَنَ عَلى فَرَسٍ لَهُ، يُقالُ لَها: سَبْحَةُ، فَسَبَقَ النّاسَ، فَهَشَّ لِذَلِكَ وأَعْجَبَهُ».

معمر بن المثنى، الخيل. ج: 1، ص: 9.

*****

والسَّبْحَةُ كذلكَ جُبَّةُ أَدَمٍ تُجْعَلُ عَلى عَيْنِ الدّابَّةِ ووَجْهِها للحِمايَةِ مِنَ البَرْدِ وغَيْرِه، قالَ أبو سَعيدٍ السُّكَّرِيُّ يَشْرَحُ بَيْتَ شِعْرٍ وَرَدَتْ فيها لَفْظَةُ (سَبْحة) بصيغةِ الجَمْعِ عَلى سِباحٍ، وفيهِ: وصَبّاحٌ ومَنّاحٌ ومُعْطٍ ... إذا عادَ المَسارِحُ كالسِّباحِ

13-3: و—: جُبَّةُ أَدَمٍ تُجْعَلُ عَلى عَيْنِ الدّابَّةِ ووَجْهِها لِلحِمايَةِ مِنَ البَرْدِ وغَيْرِهِ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ أبو سَعيدٍ السُّكّرِيّ (ت: 275هـ=888م):

«والسِّباحُ: قُمُصٌ مِنْ جُلودٍ تُجْعَلُ لِلصِّبْيانِ، والواحِدَةُ سَبْحَةٌ، جُبَّةُ أَدَمٍ تُصَيَّرُ عَلى عَيْنِ الدّابَّةِ ووَجْهِها لِتَسْتُرَها مِنَ البَرْدِ». **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

السكري، شرح أشعار الهذليين. تح: فراج، ج: 1، ص: 452.

وجاءَ في الاستعمالِ النَّبَوِيِّ تَسْمِيَةُ الصَّلاةِ النّافِلَةِ سُبْحَةً، فمِنْ ذلكَ ما وَرَدَ في الحَديثِ الشَّريفِ كَما أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزّاقِ في "مُصَنَّفِه" عَنِ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ أنَّهُ قالَ:

14: سُبْحَة — اسم

14-1: ❋ **السُّبْحَةُ**: صَلاةُ النّافِلَةِ أوِ التَّطَوُّعِ (ج) سُبُحاتٌ، وسُبُحاتٌ، وسُبَحٌ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ النَّبِيّ ﷺ (ت: 11هـ=632م):

«مَنْ صَلّى مَكْتوبَةً أوْ سُبْحَةً؛ فَلْيَقْرَأْ بِأُمِّ القُرْآنِ وقُرْآنٍ مَعَها، فَإِنِ انْتَهى إلى أُمِّ القُرْآنِ أَجْزَأَتْ عَنْهُ».

مصنف عبد الرزاق. دار التأصيل، ج: 2، ص: 215.

*****

والسُّبْحَةُ تُطْلَقُ عَلى الخَرَزاتِ المَنْظومَةِ في الخَيْطِ تُتَّخَذُ للتَّسْبيحِ والذِّكْرِ، فمِنْ ذلِكَ ما جاءَ عَنِ الأَصْمَعيِّ يَذْكُرُ حالَ امْرَأَةٍ رَآها في البادِيَةِ:

3-14: و—: خَرَزاتٌ مَنْظومَةٌ في خَيْطٍ أَوْ نَحْوِهِ لِلتَّسْبيحِ والذِّكْرِ. (مو)

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الأَصْمَعيُّ (ت: 216هـ=831م):

«رَأَيْتُ في البادِيَةِ امْرَأَةً عَلَيْها قَميصٌ أَحْمَرُ، وهِيَ مُخْتَضِبَةٌ وبِيَدِها سُبْحَةٌ».

الغزالي، إحياء علوم الدين. ج: 1، ص: 501.

وتُطْلَقُ السُّبْحَةُ عَلى العِقْدِ يَكونُ للزّينَةِ، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُ ابنُ بَطّوطَة يَصِفُ المَلِكَ المُتَرَهِّبَ جَرْجيسَ:

*****

4-14: و—: عِقْدٌ لِلزّينَةِ.

(د م) (657هـ/1259م) إلى (1213هـ/1798م)

قالَ ابْنُ بَطّوطَةَ (ت: 779هـ=1377م) يَصِفُ المَلِكَ المُتَرَهِّبَ جَرْجيسَ:

«ولَهُ لِحْيَةٌ بَيْضاءُ طَويلَةٌ، ووَجْهُهُ حَسَنٌ عَلَيْهِ أَثَرُ العِبادَةِ، وخَلْفَهُ وأَمامَهُ جَماعَةٌ مِنَ الرُّهْبانِ، وبِيَدِهِ عُكّازٌ، وفي عُنُقِهِ سُبْحَةٌ».

رحلة ابن بطوطة تحفة النّظّار. تح: العريان، ج: 1، ص: 361.

والعَرَبُ تُسَمّي القِطْعَةَ مِنَ القُطْنِ: سُبْحَةً، ومِنْ ذلِكَ ما أَوْرَدَهُ ابنُ سيدَهْ في "المُحْكَم" بقَوْلِه:

5-14: و—: القِطْعَةُ مِنَ القُطْنِ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ ابْنُ سيدَه (ت: 458هـ=1066م):

«والسُّبْحَةُ، القِطْعَةُ مِنَ القُطْنِ». **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

ابن سيده، المحكم. تح: هنداوي، ج: 3، ص: 213.

*****

ومِنَ التَّراكيبِ الاستِعماليَّةِ للَفْظِ (سُبْحَة)، ما جاءَ مِنْهُ مَجْموعًا عَلى سُبُحاتٍ، بِقَوْلِهِمْ: سُبُحاتُ الوَجْهِ، أَيْ مَحاسِنُهُ، لأَنَّكَ إذا رَأَيْتَ حُسْنَ الوَجْهِ وأَعْجَبَكَ بَهاؤُه قُلْتَ: سُبْحانَ اللهِ، كَما جاءَ عِنْدَ الخَليلِ في «العَيْنِ» إذْ يَقولُ:

7-14: ٥ سُبُحاتُ الوَجْهِ: مَحاسِنُهُ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الخَليلُ (ت: 170هـ=787م) يُفَسِّرُ قَوْلَ الراجِزِ: ذا سُبْحَةٍ لَوْ كانَ حُلْوَ المَعْجَمِ:

«أَيْ ذا جَمالٍ، وهَذا مِنْ سُبُحاتِ الوَجْهِ، وهُوَ مَحاسِنُهُ، ولأَنَّكَ إذا رَأَيْتَهُ قُلْتَ: سُبْحانَ اللهِ». **(وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)**

الخليل، العين. تح: المخزومي وآخر، ج: 1، ص: 239.

*****

وفي عِلْمِ الأَحْياءِ يُطْلَقُ عَلى الأَجْسامِ الدَّقيقَةِ الَّتي تَسْبَحُ في سيتوبلازْمِ الخَلايا: السَّبْحِيّات، ومِنْ ذلِكَ النَّصُّ الآتي:

15: سَبْحِيّات — اسم

1-15: ٭ **السَّبْحِيّاتُ** (في عِلْمِ الأَحْياءِ): أَجْسامٌ دَقيقَةٌ في سيتوبلازْمِ الخَلايا، تَظْهَرُ في شَكْلِ خُيوطٍ أَوْ حُبَيْباتٍ، أَوْ شَبَكَةٍ، وهِيَ أَنْواعٌ: سَبْحِياتُ أَلْفا، وبيتا، وجاما.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قالَ فيليب عَطيّة (1413هـ=1992م، تاريخُ الطَّبْعِ):

«مِنْ حُسْنِ الحَظِّ حَقًّا أَنَّ الحُمّى الروماتِزْمِيَّةَ كَما تُبَيِّنُ البُحوثُ الوَبائِيَّةُ لا تُصيبُ جَميعَ الأَطْفالِ الَّذينَ يُصابونَ بِالْتِهابِ الحَلْقِ واللَّوْزَتَيْنِ السَّبْحي النّاتِجِ عَنْ سَبْحِيّاتِ بيتا الـمُحَلِّلَةِ لِلدَّمِ مِنْ مَجْموعَةِ «لانْسفيلْد» الأولى».

فيليب عطية، عالم المعرفة، ع: 161، ص: 123.

*****

ومِنْ أَسْماءِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ والبَلَدِ الحَرامِ: سَبوحَةٌ وسُبوحَةٌ؛ لِكَثْرَةِ ما يَكونُ فيها مِنَ التَّسْبيحِ، أَوْ لِكَثْرَةِ ما يَكونُ فيها مِنَ النّاسِ وما تَشْهَدُهُ مَشاعِرُها مِنْ حَرَكَةٍ دائِمًا، أَوْ لأَنَّها مَكانُ طَلَبِ الحاجاتِ وقَضائِها، أَوْ كَأَنَّها -لاتِّساعِها- البَحْرِ يُسْبَحُ فيه، وهذا الاسْمُ أَوْرَدَهُ الفارابيُّ في «ديوانِ الأَدَبِ»، واسْتَشْهَدَ لَهُ الجَوْهَرِيُّ في «الصِّحاحِ»، كَما في النُّصوصِ الآتِيَةِ:

16: سَبوحَة/سُبوحَة — اسم

1-16: ٭ **سَبوحَة، وسُبوحَة**: مِنْ أَسْماءِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الفارابيُّ (ت: 350هـ=961م):

«سَبوحَةُ: البَلَدُ الحَرامُ». (وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْها المَعاجِمُ في بَقِيَّةِ العُصورِ)

الفارابي، معجم ديوان الأدب. تح: عمر، ج: 1، ص: 397.

وَقالَ الشّاعِرُ (393هـ=1003م، مِنْ شَواهِدِ الجَوْهَرِيّ) يَصِفُ نوقَ الحَجيجِ:

خَوارِجُ مِنْ نَعْمانَ أَوْ مِنْ سُبوحَةٍ ***إِلى البَيْتِ أَوْ يَخْرُجْنَ مِنْ نَجْدِ كَبْكَبِ

الجوهري، الصحاح. تح: عطار، ج: 1، ص: 372.

*****

والمُسَبِّحاتُ لَقَبٌ لِمَجْموعَةٍ مِن سوَرِ القُرْآنِ الكَريمِ مُفْتَتَحَةٍ بِالتَّسْبيحِ، وقَدْ جاءَتْ هذِهِ التَّسْمِيَةُ في الحَديثِ الشَّريفِ عَنِ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ:

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ النَّبِيُّ ﷺ (ت: 11هـ=632م) يُجيبُ رَجُلًا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقْرِئَهُ شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ:

«اقْرَأْ مِنَ المُسَبِّحاتِ».

القاسم بن سلام، فضائل القرآن. تح: الخياطي، ج: 2، ص: 71.

*****

والعَرَبُ تُسَمّي كُلَّ مُتَّسَعٍ مَسْبَحًا، ومِنْ ذلِكَ قَوْلُ ابْنِ مُقْبِلٍ يَصِفُ الصَّحْراءَ:

19: مُسَبِّحَة	اسم

19-2: o المُسَبِّحاتُ (في عُلومِ القُرْآنِ): السُّوَرُ الَّتي افْتُتِحَتْ بِالتَّسْبيحِ، وهِيَ: الإِسْراءُ، والحَديدُ، والحَشْرُ، والصَّفُّ، والجُمُعَةُ، والتَّغابُنُ، والأَعْلى.

20: مَسْبَح	اسم

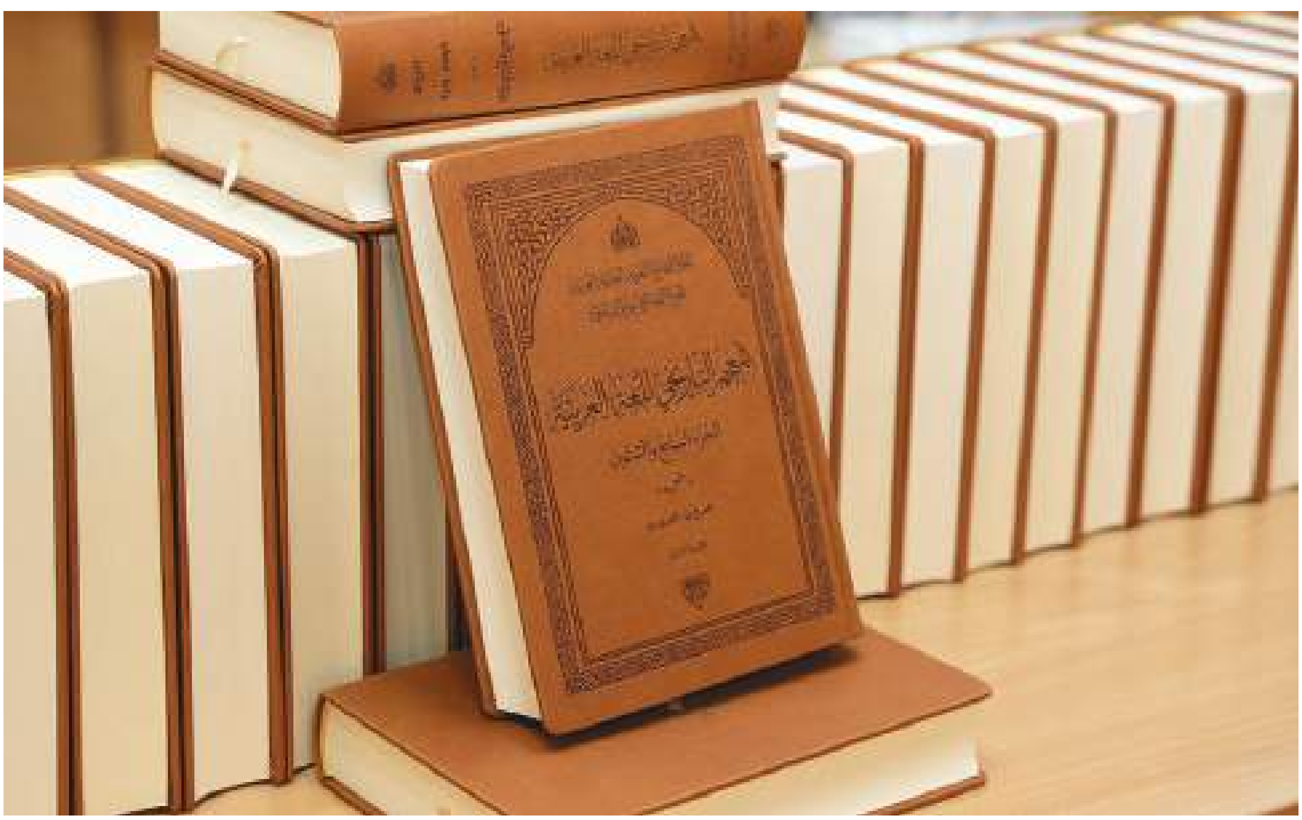
20-1: * المَسْبَحُ: المُتَّسَعُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ ابْنُ مُقْبِلٍ (ت: 37هـ=657م) يَصِفُ مَفازَةً:

وَخَوْقاءَ جَرْداءِ المَسارِحِ هَوْجَلٍ
بِها لِاسْتِداءِ الشَّعْشَعاناتِ مَسْبَحُ

ديوان ابن مقبل. تح: حسن، ص: 55.



*****

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)
قالَ الشّاعِرُ (291هـ=904م، مِنْ شَواهِدِ ثَعْلَب) يَصِفُ:

لَقَدْ كانَ فيها لِلأَمانَةِ مَوْضِعٌ
ولِلعَيْنِ مُلْتَذٌّ ولِلكَفِّ مَسْبَحُ

مجالس ثعلب. تح: هارون، ج: 2، ص: 571.

*****

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)
قالَ العَقّادُ (ت: 1384هـ=1964م) يَذْكُرُ نُصْحَ ديدالوسَ لِوَلَدِهِ كَيْ يَطيرَ في الهَواءِ:

أَكاروسُ هَذا مَسْبَحُ الطَّيْرِ فارْكَبِ
وتِلْكَ المَهاوي مِنْ خُضارَةَ فاجْنَبِ

[خُضَارَةُ: مِنْ أَسْمَاءِ البَحْرِ، ممنوعٌ مِنَ الصَّرْفِ؛ وسُمِّيَ بِذلكَ لِخُضْرَةِ مَائِهِ.]
العقاد، ديوان من دواوين، ص: 148.

*****

والمَسْبَحُ مَوْضِعُ السِّباحَةِ؛ سُمِّيَ بذلكَ لاتِّساعِه، وقَدْ جاءَ هذا الاسْتِعمالُ عَلى لِسانِ الحَريريِّ في "مَقاماتِه" إِذْ يَقولُ:

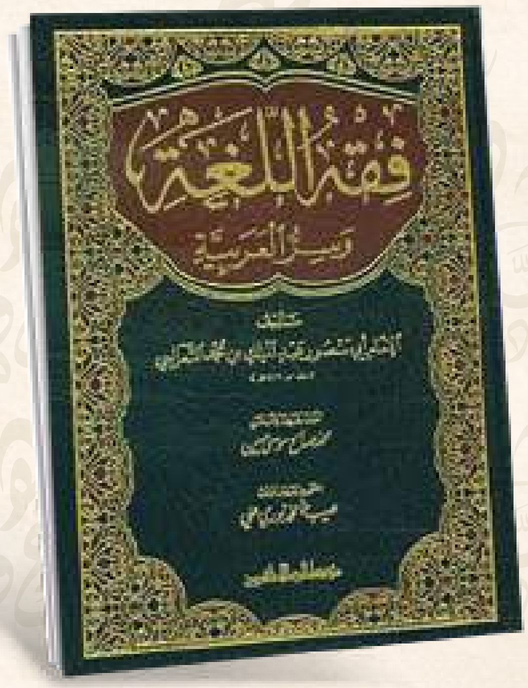
*****

2-20: و ـــ: مَوْضِعُ السِّباحَةِ.
(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)
قالَ الحَريريُّ (ت: 516هـ=1122م) يُجيبُ عَلى لِسانِ فِتْيَةٍ عَجَزوا عَنْ إِجابَةِ الحارِثِ بْنِ هَمَّامٍ عَنْ ماهِيَّةِ الرِّسالَةِ ذاتِ وَجْهَيْنِ:
«واللهِ ما لَنا في لُجَّةِ هَذا البَحْرِ مَسْبَحٌ، ولا في ساحِلِهِ مَسْرَحٌ، فَأَرِحْ أَفْكارَنا مِنَ الكَدِّ، وَهَنِّئِ العَطِيَّةَ بِالنَّقْدِ».
شرح مقامات الحريري. تح: شمس الدين، ج: 1ـ ص: 461.



وبِهذا نَصِلُ بِكُمْ إِلى بَرِّ الجَذْرِ (س ب ح)، بَعْدَ سِباحَةٍ ماتِعَة، وجَوْلَةٍ عِلْمِيَّةٍ نافِعَة، عَلَّنا نَكونُ قَدَّمْنا ما يَرْوي الغَليلَ، ويَشْفي العَليلَ، فَحَقُّ اللُّغَةِ على أبنائِها عَظيم، والوَفاءُ لَها طَبْعُ الكَريم، والمُعْجَمُ التّاريخيُّ لِلُغَةِ العَرَبيَّةِ قد أبانَ لأبناءِ اللِّسانِ العَربيِّ المَحَجَّةَ، وأَقامَ عَلَيْهِمُ البَيِّنَةَ والحُجَّةَ، فَلْيُشَمِّرْ أَصْحابُ الهِمَمِ العَلِيَّةِ، والأَفْكارِ النَّيِّرَةِ السَّنِيَّةِ، ولْيَنْبَرُوا لِتَثْويرِ ما يَحْوي هذا السِّفْرُ الجَليلُ مِنْ عُلومٍ ونَفائِسَ، ويَدْرُسوا ما فيهِ مِنْ أَساليبَ وخَصائِصَ، فالمُعْجَمُ التّاريخيُّ لِلُغَةِ العربيَّةِ بالبَحْثِ والتَّنْقيبِ حَقيق، وبالدِّارسَةِ والتَّمحيصِ خَليق.

مِن كِتابِ فقْهِ اللُّغة للثّعالِبيّ



قل ولا تقل:

* لا يُقال كأسٌ إلا إذا كان فيها شراب وإلّا فهي زُجاجة
* لا يُقالُ مائدةٌ إلا إذا كان عليها طعام وإلا فهي خِوان
* لا يُقال كُوزٌ إلّا إذا كانت له عُروة وإلّا فهو كوب
* لا يُقال خاتَم إلّا إذا كان فيه فصٌّ وإلّا فهو فَتْخَة
* لا يُقال نَفَقٌ إلّا إذا كان له منفذٌ وإلّا فهو سَرب
* لا يُقال عِهْنٌ إلّا إذا كان مصبوغاً وإلّا فهو صوف
* لا يُقال ركيّة إلَا إذا كان فيها ماءٌ قَلَّ أو كثر وإلا فهي بئر، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]

يا ربّـةَ الأقـــــلام



شعر: فاطمة أحمد فجر – دمشق

ولّـيْـتُ شطرَ حُـروفـكِ الإلهامَ وسَــريْـت أُدركُ للبَيان زِمـامـاً

صَبَأَ الّـذيـنَ تَراطـنوا وتَزَمزَموا وصَبـأْتُ، لكنْ ما اسْتَفَقْتُ هُياماً

يا أنـتِ! يا لُغةً تَـذوبُ بِمُـهجَتي فَتَسيلُ شـهـداً في فمي ومُداما

(جوديُّ)حرفكِسلسبيلُفَصاحتي فَقد استوى نطقي عليه وحاما

أَ حبيبـةَ المختار! إنّـي عاشقٌ يُزجي إلـى بلد النّخيل سَـلاماً

لغةُ الخلود! وسـرُّ كـلّ حقيقةٍ مَـنْ ذا يُضاهي في البيان هُماما

قـــالــــت:

فَـعَلامَ يُزهَدُ في عُلايَ وتَمتطي ... درجَ اللُّحونِ الفَـأفآتُ، علامَا؟؟؟

أَنـسيـتَ أنّـي للحبيبِ محمّدٍ ... نَسبٌ، وحِـبٌّ، دوحـةٌ وخُزامى ؟!

لّـذْ في حياتي يا بُنَـيَّ فإنّني ... أهَـبُ الحياةَ لِمَنْ يلوذُ مُقاما

أين الذّين عهِدْتُهم في حضرتي ... بِــرّاً، وتـقــوى، ذِمّـــةً وذِمــامـاً؟

دخلوا جِناني فاسْتطابوا عِذْقَها ... ثَـمرَ النّبـوغ تحنّكوا إكـراماً ؟؟

أينَ (ابْنُفارسَ) و(المَقـاييـسُ) الّتي ... قد أشعَلتْ جَمرَ البيـان فَهَاما؟

أين (ابنُ جنّيٍّ)، وأين (خصائصُ) ... نَسَجتْ لِحَرفي نغمةً و (مقاما)؟؟

أين (ابنُ منظورٍ) وأين (لسانُكم) ... أم قد جَعَلْتُم دُرَّهُ إعجاماً ؟؟

أين (الخليلُ)، و(عيْنُـهُ)، ومخارجٌ ... فيها الحُروف بِرقّةٍ تَتَنامى ؟!

مَنْ ذا يَخُوضُ اليومَ بحرَ لآلئي ... أَ أَرى على شُمِّ الأُنوفِ خِطاما؟!

قُـلـــتُ:

لا تسأليني يا حبيبة ُ عن عمىً ... ضَربَ العيونَ، وأغلَقَ الأفهاما

فاليومَ (بوصلةَ) البيانِ تَوجّهَتْ ... لِرُقِيِّ حرفكِ، مُنجِداً، وعِصَاما

فَ(ابْـنُ المباركِ مازِنٌ)علاّمةٌ ... في النّحو و التّحقيق قاد زِماما

ومَدائنٌ للشّعر فاح عبيرُها ... تِلقاءَ حرفك، وجّهوا الأفهاما

والمَجمعُ اللّغُويُّ أرسى صَرحَهُ ... حِصناً، وأمـنـاً، قُـوّةً، ودِعاما

يأوي إليه الظَامئون محبّةً ... والشّـاردون عن الهدى أعواماً

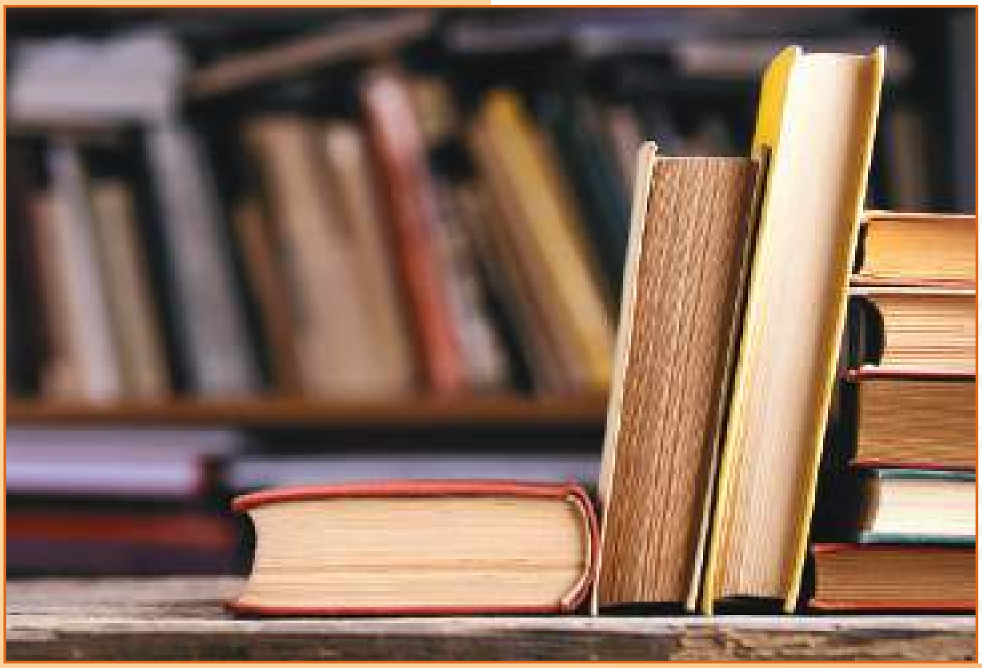
و لِ (زايد) الخيراتِ بصمة قائدٍ ... إذْ (أصّـلَ) التكريم والإكـراما

لُغتي تَشَقّقَ ثغرُها عن جوهرٍ ... ضاء الوُجودَ، و أعربَ الإعجاما

يا ربّة الأقـلام سحرُكِ مسّني ... فَنَفَثْتُ في عُقد البيان ضِراماً

بكرَ اللّغَاتِ! أتيتُ عرشَكِ طائعاً ... كيما أفوزُ حصافةً ومَقاما

إنّي تخيّرْتُ المشاربَ عَذبةً ... ونوَيْتُ تِلقاءَ اللّغاتِ صِياما



كُتُبٌ ودِراساتٌ

طَرَائِفُ عن كتابِ العيْنِ



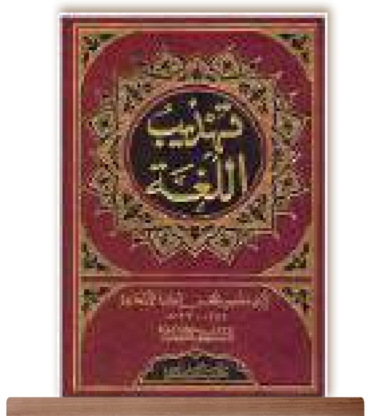
د. عبد الحليم عبد الله
رئيس قسم اللغة العربية
في جامعة أردهان

قبْلَ أن نبدأَ بالحديثِ عن كتابِ العين يجدرُ بنا أن نلقيَ الضَّوءَ على صاحبِه وهو العَلَمُ الفذُّ صاحبُ العبقريّةِ الفريدةِ الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديُّ (ت: 170ه)

وُلد الخليلُ في البصرةِ في العراق – على أرجحِ الرِّواياتِ - ومات فيها، وعاش زاهدًا تاركًا لزينةِ الدّنيا، محبًّا للعلمِ والعلماءِ. وكان شعثَ الرّأسِ، شاحبَ اللّونِ، قشفَ الهيئةِ، متمزّقَ الثّيابِ، متقطعَ القدمين، مغمورًا في النّاس لا يُعرفُ، قال النَّضْر بن شُمَيْل عنه: ما رأى الرّاؤون مثلَ الخليل. كان شاعرًا ونحويًا، قال العلماءُ عنه وعن سيبويه بأنّه ألَّف كتابًا في النّحو بألْفِ ورقَةٍ من علم الخليل، وليس هذا فحسبُ بل يُعدُّ الخليلُ عالمًا بارزًا وإمامًا من أئمّةِ اللّغةِ والأدبِ، فقد اخترعَ نظامَ علاماتِ التّشكيلِ في النّصّ العربيِّ، ووضعَ علْمَ العروضِ والأوزانِ الشّعريّةِ. وأثّرت نظرياتُه اللّغويّةُ في تطوّرِ العروضِ في الفارسيّةِ والتّركيةِ والأرديّةِ، لقد كان عالمًا موسوعيًا بكلِّ ما تَعنيه الكلمةُ من معنى، ومن أهمِّ إنجازاته حصرُه مفرداتِ اللّغةِ العربيّةِ جميعَها بخوارزميّةٍ حاسوبيّةٍ عجيبةٍ قبل أن تُخترعَ الخوارزمياتُ بزمن.

وجعلَها في كتاب العينِ، فكان بذلك رائدَ التّصنيفِ المعجميِّ العربيّ بلا منازعٍ، غيرَ أنَّ بعضَ اللّغويّين شكّكوا في نسبةِ كتابِ العين إلى الخليلِ، وهذا ما سنتوقّفُ عنده لاحقًا في هذه المقالة، ولكنْ ممّا لا شكَّ فيه أنَّ كتابَ العين أثرٌ عظيمٌ، ومعجمٌ غيرُ مسبوقٍ في تاريخ الصّناعةِ المعجميّةِ العربيّةِ، فإذا نظرَ إليه المرءُ من هذه الزّاويةِ ازداد به إعجابًا، من قَبيل أنّه معجمٌ ناضجٌ متكاملٌ شكّلَ الأساسَ الذي انطلقَ منه اللّغويّون في التّأليفِ وصناعةِ المعاجم، غيرَ أنّ اللّغويّين قدِ انقسموا إلى ثلاثةِ أقسامٍ في نسبةِ كتابِ العين إلى الخليل.

فالقسمُ الأوّلُ منهم يقول بأنّ كتابَ العين هو من تأليفِ الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ (ت: 170هـ) كاملاً، لكنَّ الأقدارَ أهلكتْه، فقام اللّيثُ بكتابة نصفِه من حفظِه مثلما كتبَه الخليلُ،



وجمعَ على النّصفِ الثّاني أدباءَ زمانه ليعملوه على نهج الخليلِ، فخرج القسمُ الثّاني منَ الكتاب أقلَّ جودةً منَ النّصف الأوّلِ. وقد حدّث عبدُ الله بنُ المعتز في (كتاب الشعراء) عنِ الحسن بن عليّ المهلّبي قال: كان الخليلُ منقطعًا إلى اللّيث بنِ رافع بن نصر بنِ سيار، وكان اللّيثُ من أكتبِ النّاس في زمانه، بارعًا في الأدب بصيرًا بالشّعر والغريبِ والنّحو، وكان كاتبًا للبرامكةِ وكانوا مُعجبين به، فارتحلَ إليه الخليلُ وعاشرَه فوجده بحرًا فأغناه، وأحبّ الخليلُ أن يُهدي إليه هديةً تشبهُه، فاجتهدَ الخليلُ في تصنيفِ (كتاب العين) فصنّفَه له وخصَّه به دونَ النّاس، وحبّره وأهداه إليه، فوقعَ منه موقعًا عظيمًا وسُرّ به وعوّضَه عنه مئةَ ألف درهم واعتذرَ إليه، وأقبل اللّيثُ ينظرُ فيه ليلاً ونهارًا، لا يملُّ النّظرَ فيه حتى حفظَ نصفَه، وكانت ابنةُ عمِّه تحتَه، فاشترى اللّيثُ جاريةً نفيسةً بمالٍ جليل، فبلغَها ذلك – الطُّرفةُ هنا – فغارت غيرةً شديدةً فقالت: والله لأغيظنّه ولا أُبقي غايةً، فقالت: إن غظتُه في المال فذاك ما لا يُبالي به، ولكنّي أراه مكبًّا ليلَه ونهارَه على هذا الدّفترِ، والله لأفجعنَّه به، فأخذتِ





الكتابَ وأضرمت نارًا وألقتْه فيها، وأقبلَ اللّيثُ إلى منزله، ودخل إلى البيتِ الذي كان فيه الكتابُ، فصاح بخدمِه وسألهم عنِ الكتاب، فقالوا: أخذتْه الحرّةُ، فبادرَ إليها، وقد علم من أين أُتيَ، فلمّا دخلَ عليها ضحكَ في وجهها، وقال لها: ردّي الكتابَ فقد وهبتُ لك الجاريةَ وحرّمتُها على نفسي، وكانت غضبَى، فأخذت بيده وأدخلتْه البيتَ الذي أحرقتْه فيه، وفيه رمادُه، فسُقط في يد اللّيثِ، فكتبَ نصفَه من حفظِه، وجمعَ على الباقي أدباءَ زمانه، وقال لهم: مثّلوا عليه واجتهدُوا، فعملوا هذا النّصفَ الذي بأيدي النّاس، فهو ليس من تصنيفِ الخليل ولا يُشقّ غبارُه، وكان الخليل قد مات.

وقسمٌ ثانٍ قال بأنَّ الخليلَ قد شرعَ في تأليف كتابِ العين فوافتْه المنيةُ قبل أن يتمَّه فأكملَه تلميذُه اللّيث بنُ المظفّر على نهج الخليلِ ومنَ المادّة اللّغويّةِ التي أخذها الخليلُ من أفواهِ الأعرابِ في الباديةِ.

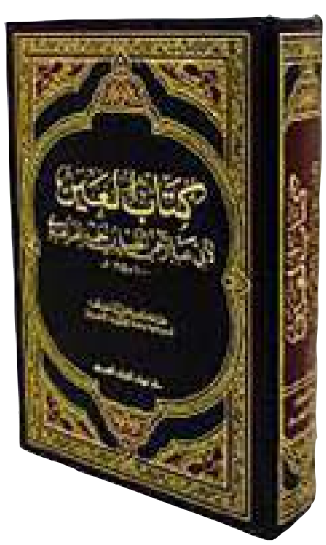
وقسمٌ ثالثٌ قال بأنَّ كتابَ العين كلَّه من عمل اللّيثِ، ونحلَه إلى الخليل بنِ أحمدَ، ولعلَّ الفقيهَ إسحاقَ بنَ إبراهيمَ بنِ راهَوَيْه الحنظليَّ (ت: 238هـ) من أوائلِ من أثاروا هذه الشّبهةَ، إذ قال: "كان اللّيثُ رجلًا صالحًا ومات الخليلُ، ولم يفرغْ من "كتاب العين" فأحبّ اللّيثُ أن يُنفّقَ الكتابَ كلَّه فسمّى لسانَه الخليلَ فإذا رأيتَ في الكتابِ "سألت الخليل" أو "أخبرني الخليل" فإنّه يعني الخليلَ نفسَه، قال: وإذا قال "قال الخليل" فإنه يعني لسانَ نفسِه. قال: وإنّما وقعَ الاضطرابُ فيه من خليلِ اللّيثِ".

وقال أبو عمرٍ الزّاهدُ المعروفُ بغلام ثعلب (ت:345هـ): حدّثني فتى قدمَ علينا من خراسان وكان يقرأُ عليّ "كتاب العين"، قال: أخبرني أبي عن إسحاقَ بنِ راهويه قال: كان اللّيثُ بنُ المظفّر بنِ نصر بنِ سيار صاحبُ الخليل رجلًا صالحًا، وكان الخليل قد عملَ من "كتاب العين" بابَ العين فأحبّ اللّيثُ أن ينفّقَ سوقَ الخليل.

وكذلك الأزهــريُّ (ت:370هـ) صاحبُ معجمِ تهذيبِ اللّغة نسبَ كتابَ العين إلى اللّيث بنِ المظفّر (ت:180هـ) لا إلى الخليلِ. إذ قال: "ومنَ المتقدّمين اللّيثُ بنُ المظفّر الذي نحلَ الخليلَ بنَ أحمد تأليفَ "كتاب العين" جملةً لينفّق كتابَه باسمِه ويُرغّبَ فيه من حوله".

وقال اللّيثُ بنُ المظفّر بن نصر بنِ سيار: كنت أصيرُ إلى الخليل بنِ أحمدَ، فقال لي يومًا: لو أنَّ إنسانًا قصدَ وألّفَ حروفَ (ا ب ت ث) على ما أمثّله لاستوعبَ في ذلك جميعَ

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ كتابَ العين أثرٌ عظيمٌ، ومعجمٌ غيرُ مسبوقٍ في تاريخ الصّناعةِ المعجميّةِ العربيّة، فإذا نظرَ إليه المرءُ من هذه الزّاويةِ ازداد به إعجابًا



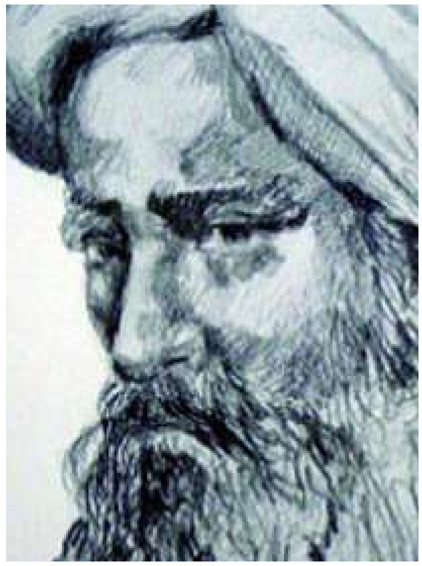
كلامِ العرب، وتهيّأ له أصلٌ لا يخرج منه شيءٌ البتّة، فقلت له: وكيف يكونُ ذلك؟ قال: يؤلّفه على الثّنائيّ والثلاثيّ والرّباعيّ والخُماسيّ؛ فانّه ليس يُعرفُ في كلام العرب أكثرُ منه. قال اللّيثُ: فجعلتُ أستفهمُه ويصفُ لي ولا أقفُ على ما يصفُ، فاختلفتُ إليه في هذا المعنى أيامًا، ثم اعتلَّ وحججتُ فما زلتُ مُشفقًا عليه وخشيتُ أن يموت في علّتِه فيبطلَ ما كان يشرحُه لي، فرجعت منَ الحجّ وصرتُ إليه فإذا هو قد ألّف الحروفَ كلَّها على ما هي في الكتاب، وكان يملي عليّ ما يحفظُ، وما شكّ فيه يقول لي: سل عنه، فإذا صحّ فأثبتْهُ، إلى أن عملتُ الكتابَ.

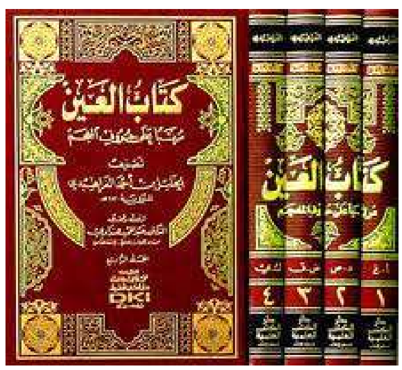
ومنَ الطّرائف أيضًا أنَّ مهاجاةً وقعت بين نَفطَويه النّحويّ (ت: 323هـ)، وابنِ دُريد (ت: 321هـ) واضعِ مُعجمِ جمهرةِ اللّغة، قال نَفطويه في هجاء ابنِ دُريد:

ابنُ دُرَيْدٍ بَقَرَه ...
وَفِيْهِ لُؤْمٌ وَشَرَّه
وَيَدَّعِي بِجَهْلِهِ
وَضْعَ كِتَابِ الجَمْهَرَة
وَهُوَ كِتَابُ العَيْـ
ـنِ إلّا أَنَّهُ قَدْ غَيَّرَه

ردّ ابنُ دُريد على نفطويه بقوله:

لوْ أنزلَ الوحيُ على نفطويه
لَكانَ ذاكَ الوَحْيُ سُخْطًا عَلَيْه
وَشاعِرٌ يُدْعَى بِنِصْفِ اسْمِه
مُسْتَأهلٌ لِلصَّفعِ فِي أخْدَعَيه
أفٌّ عَلَى النَّحْوِ وَأرْبَابِهِ قَدْ





صَارَ مِنْ أرْبَابِهِ نِفْطَوَيْه
أحْرَقَهُ اللَّهُ بِنِصْفِ اسْمِه
وَصَيَّرَ البَاقِي صُرَاخًا عَلَيْه

أنشد الخوارزميُّ لبَعضِ أهلِ عصرِهِ أبياتًا في هجاءِ أَبي مَنْصُور الأزهري، صاغها ونَمَّطها مؤلِّفُها على نمط أبيات نَفطويه في هجاء ابنِ دُريد. قال:

الأزهريُّ وزغةْ
وحمقُه حمقُ دغةْ
ويدّعي من جهله
كتابَ تَهْذِيبِ اللُّغَةْ
وهُوَ كتابُ العينِ إلاَّ
أنّه قد صبغهْ



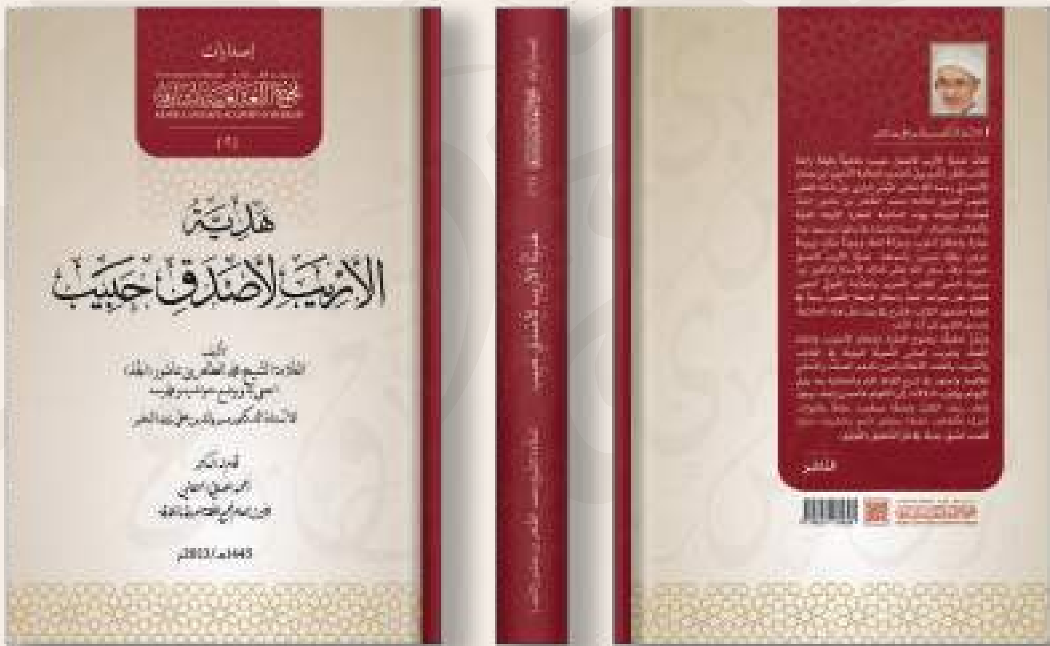
وأوردَ ياقوتُ الحمويُّ هجاءً – لم ينسبْه – في الصّاغاني، أيضًا صاغها مؤلّفُها على نمطِ أبياتِ نَفطويه في هجاء ابنِ دُريد. قال:

في الخارزنجي بلهْ
وفيه حمقٌ وولهْ
ويدّعي بجهله
وضْعَ كتابِ التّكملهْ
وهو كتابُ العين إلّا
أنّه قد نقلهْ

على أنّ كلَّ ما أوردناه آنفًا من طرائفَ لا يعدو أن يكون طرائفَ اجتمعت كلُّها حول كتابِ العين، إلّا أنّ لكلٍّ منَ المعجماتِ السّابقةِ دورَه التّاريخيَّ، إذ أفادَ من سابقِه، وأفاد منه لاحقُه، لكنّه نوعٌ منَ التّهاجي بين الشّعراء والأقران، أمّا عنِ القصّةِ التي رواها ابنُ المعتزّ عن تسرّي اللّيثِ بجاريةٍ وإحراقِ زوجتِه كتابَ العين لإحراقِ قلبِه فيه فهي إن كانت حقيقةً فيجدرُ بالمعدِّدين الانتباهُ إلى نفائسِهم لئلّا تحترقَ قلوبُهم كما احترقت قلوبُنا على كتابِ العين.

الإصـدار الثّـانـي للمجـمـع:

كتاب هديّة الأريب لأصدق حبيب



كتابُ "**هديّة الأريب لأصدق حبيب**" حاشيةٌ دقيقة رائعة لكتاب "قَطْر النّدى وبلّ الصّدى" للعلاّمة النّحويّ ابن هشام الأنصاريّ رحمه الله تعالى. قيّضَ الباري جلّ شأنه للقطر المنهمر الشيخ العلاّمة محمد الطّاهر بن عاشور الجدّ فجادت قريحته بهذه الحاشية العطرة الأنيقة الغنيّة باللّطائف والفوائد، البديعة المتميّزة في بنائها ونسجها بَهاءَ عبارة، وإحكامَ أسلوبٍ، وجزالةَ لفظ، وجودَةَ سَبْكٍ، وروعةَ عرضٍ، وقوّة تحرير، وأسماها: "هديّة الأريب لأصدق حبيب"، وقد سخّر الله تعالى كذلك الأستاذ الدّكتور زيد مبروك الخير الكاتب النّحرير والعلاّمة اللّغويّ الخبير فشمّر على سواعد الجدّ واستثار قريحة التّعبير، وجدَّ في تجلية مضمون الكتاب، فأبدع في بيان نصّ هذه الحاشية، وأوصل القارئ إلى لُبّ اللّباب.

وتميّزَ تحقيقُه بوضوح العبارة، وإحكام الأسلوب، وانتقاء اللّفظ، وتقريب المعاني النّحويّة المبثوثة في الكتاب، والتّعريف بالعلماء الأعلام الذين ذكرهم المصنّفُ والمُحشّي كلاهما، واجتهد في شرح ألفاظ المتن والحاشية بما يزيل الإبهام، ويُقرّب الدّلالات إلى الأفهام، فأحسن وأجاد، وجوّدَ وأفاد، وجاء الكتابُ واضحًا ممحّصا، حافلاً بالفوائد، مُترعًا باللّطائف، مُفعمًا بحقائق النّحو والصّرف، حائزا قصب السّبق، بديعًا في فنّ التّحقيق والتّوثيق.



قِراءَةٌ في كتابِ:

اللُّغَةُ هُوِيّةٌ ناطقةٌ

للدّكتور عبد اللّه البريدي

تَتَرَكَّزُ الكتابةُ في كتابِ: "اللّغةُ، هُويةٌ ناطقةٌ" للباحثِ السّعودي الدّكتور عبدِ الله البُريدي حول قضايا لها ارتباطٌ جوهريٌّ باللّغة، وما تَحوزُه من رُؤى وتصوُّراتٍ. بهذا المعنَى، تستطيعُ اللّغةُ بطابعِها الحيِّ والنّوعيِّ أن تكونَ مجالاً خِصبًا لإنتاجِ الأفكارِ وبَلورةِ عوالمِ النّصوصِ الممكنةِ والمُضمرة. إنَّ الباحثَ، ها هنا، يسعَى إلى إعادةِ التّفكيرِ في مُكوِّنِ اللّغةِ باعتبارِها تَتَعَيَّنُ أفقًا لتشكيلِ هُويتِنا ومنظورِنا للحياة، وهوما يَسْمَحُ ببناءِ مجتمعٍ قادرٍ على الدّفاعِ عنِ اللّغةِ على اعتبارِ أنّها ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ ولا يُمكنُ فهمُ مقتضياتِها بمعزلٍ عن تحوّلاتِ المجتمعِ ومفارقاتِه، ومن ثمَّ، فإنّه لا وجودَ لمجتمعٍ دون لغةٍ.. ودونَ سياسةٍ لُغويّةٍ تحفظُ لها كينونتَها ووجودَها.

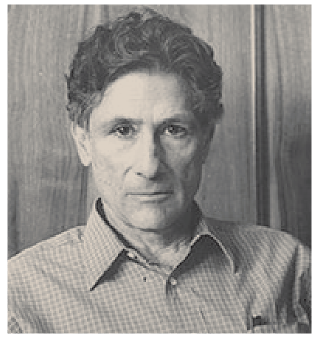


د. رشيد الخديري
باحث من المغرب

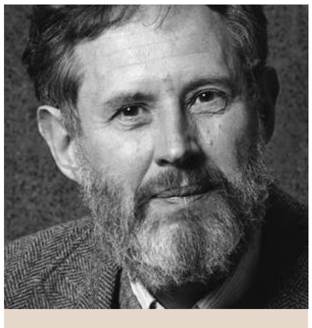
1. اللُّغةُ أفقًا لتشكيلِ الهُويةِتُشَكِّلُ مسألةُ اللّغةِ والهُويةِ المحورَ الأساسَ لهذا الكتابِ، وهو ما يُؤكِّدُه الباحثُ عبدُ الله البريدي في أكثرَ من موضعٍ. يقولُ في هذا الشأن: «من أهمِّ دوافعِي لإعدادِ هذا الكتابِ لفتُ الأنظارِ إلى ضرورةِ التّعاطِي العلميِّ مع مسألةِ (اللّغةِ والهُويةِ)، الذي يقتضي أمورًا عدّةً، ومنها: ابتكارُ وتبنّي منظومةٍ إصطلاحيّةٍ متكاملةٍ متماسكةٍ، الإفادةُ الجادّةُ منَ المنهجيّةِ العلميّةِ كما في العلومِ الاجتماعيّةِ والإنسانيّةِ، والاغـتـرافُ الذّكيُّ منَ الحقولِ المعرفيّةِ التي عالجت جوانبَ عديدةً في تلك المسألة وعلى رأسِها (علمُ النّفس الاجتماعيّ)، ومنها الفلسفةُ وعلمُ الاجتماع والأنثرُبولوجيا...»(1)، وعليه، فإنَّ اللّغةَ هي صانعةٌ للهويّةِ أو قُلْ للهويّات، سواءً أكانت فرديّةً أم جماعيّةً أم كونيّةً. من زاويةٍ أخرى، عدَّ المفكّر الفرنسيُّ أليكس



الدكتور عبد الله البريدي



إدوارد سعيد



مارتن بيرنال



تزيفيتان تودرو

ميكشيللي الهُويّةَ "منظومةً منَ المعطياتِ المعنويّةِ والاجتماعيّةِ التي تنطوِي على نسقٍ من عملياتِ التّكاملِ المعرفيِّ، ولكنْ لا يمكنُ لمثلِ هذه المنظومةِ أن تكونَ في حيّزِ الوجودِ ما لم يكنْ هناك شيءٌ مّا يُعطيها وحدتَها ومعناها، ويتمثّلُ ذلك في الرّوحِ الدّاخليّةِ التي تَنطوِي على خاصّةِ الإحساسِ بالهُويّةِ والشّعورِ بها، فالإحساسُ بالهُويّةِ مركّبٌ منَ المشاعرِ المادّيةِ، ومركّبٌ من مشاعرِ الانتماءِ، والتّكاملِ، والإحساسِ بالاستمراريّةِ الزّمنيّةِ، والتّنوّعِ، والقيمِ، والاستقلالِ، والثّقةِ بالنّفسِ، والإحساسِ بالوجودِ"(2). وهذا التّوجّهُ المنفتحُ على القيمِ الإنسانيّةِ هو الذي يُمَكِّنُ من صَوغِ هُويّةِ الأفرادِ والجماعاتِ والمجتمعاتِ، لذا، لا بدَّ من ردْمِ الهُوّة بين الذّات والآخرِ والدّفعِ بهذه الحواريّةِ إلى المزيد منَ الانخراطِ الثّقافيِّ في مسعًى لتحصينِ الهُويّات منَ الاغترابِ والاندثارِ.

إنَّ الهُويّةَ وَفقَ هذه التّوصيفاتِ هي مزيجٌ مركّبٌ منَ المعطياتِ المعرفيّةِ والذّاتيةِ، تتشكّلُ وتنطوِي على مجموعةٍ منَ الأنساقِ والقيمِ



والأحاسيسِ، غيرَ أنَّ هذا لا ينفي وجودَ تعريفاتٍ أخرى للهُويّةِ تبعًا وارتباطًا بحقلٍ معرفيٍّ معيّنٍ، ويعني ذلك، أنّ ثمةَ تعدّدًا وتنوُّعًا في المفاهيمِ والتّصوّرات، ولا يمكنُنا الحديثُ عن وجودِ هُويّةٍ واحدةٍ، وإنّما هناك هُويّاتٌ عديدةٌ، غيرَ أنَّ ما يثير الانتباهَ هو أنَّ معظمَ الدّراساتِ التي أُنجزت حول الهُويّةِ، انطلقت ممّا هو سلوكيٌّ سيكولوجيٌّ، خاصّةً على مستوى تشكُّلِ الهُويّةِ الفرديّةِ، وتُعدّ نظرياتُ إريك أريكسون من أهمِّ النّظريات في هذا المجالِ، فهو يؤكّدُ على النّزعةِ الفطريّةِ لتشكُّلِ الهُويّةِ الفرديّةِ، فهي

> ”
> **يؤكّدُ إريك أريكسون على النّزعةِ الفطريّةِ لتشكُّلِ الهُويّةِ الفرديّةِ، فهي تتأسس من خلال المراحلِ التي يَسلكُها الإنسانُ.**

لا تتشكّلُ بتأثيرِ المحيطِ الاجتماعيِّ فقط، ولكنّها تتأسّسُ من خلال المراحلِ التي يَسلكُها الإنسانُ، وهنا يتحدّثُ عنِ استحالةِ صناعةِ هُوياتٍ جديدةٍ واختلاقِها؛ لأنّها في النّهاية، ستكونُ هُوياتٍ مزيّفةً وفاقدةً للإحساس، ذلك الرّكنِ الأساسِ في تشكيلِ الهُويّةِ.

يقول النّاقدُ الفرنسيُّ تزيفيتان تودروف في كتابه «تفاعلُ الثّقافات»

إنَّ: «الهُويةَ تولدُ من إدراكِ الاخـتـلافِ»(3)، وهذا يقودُنا إلى مسألة الوعيِ في تشكيل الهُويّاتِ، فيحدثُ أن تشتقَّ بعضُ الجماعات هُويتَها الخاصّةَ عبرَ اختلاقِ واجتراحِ خصوصيّاتٍ لها. في المقابل، هناك اشتقاقاتٌ سلبيّةٌ للهُويّةِ من خلال «وعْيِها بخصوصياتِها التي تتمثّلُ فيما لا يَنتمي إلى الآخرين. وهذا يستلزمُ القولَ بأنَّ الهُويّةَ ليست حقيقةً موضوعيّةً وواقعيّةً وثابتةً، بل هي تمتلكُ واقعيّةً متخيّلةً، إن صحَّ هذا التّركيبُ، تتحصّلُ عليها من خلال عمليّةٍ يسمّيها إدوارد سعيد وكيث وايتلام "الاختلاقُ»Invention ويُسمّيها مارتن برنال "التّلفيقُ» أوِ «الفبركةُ» Fabrication ويسمّيها بعضُ الانثروبولوجيين بالتّشكيلِ الرّمزيّ للماضي والهُويّةِ"(4)، ومنَ المؤكّدِ في ضوءِ هذه المعطياتِ، أن تتأثّر الهُويّةُ خارجَ هذه الفعاليةِ الثّقافيّةِ، وتصيرُ عرضةً للتّهميشِ والاغترابِ والتّفكّكِ، لهذا نرى، من جهةٍ أخـرى، ضـرورةَ الحفرِ في تضاريسِ هذه الذّات لكي تَتَمَكَّن من بناءِ هُويّتِها الخاصّة.

2. التّنظيمُ الهيكليُّ للكتابِ:

يقعُ الكتابُ في مقدّمةٍ وأربعةِ فصولٍ وخاتمةٍ. فقد جاء الفصلُ الأوّلُ تحت عنوان: «نحوَ مزجِ اللّغةِ بالهُويّةِ»، إذ تَرَكَّزَ فيه البحثُ حول إشكالاتِ اللّغةِ والهُويّةِ من منطلقٍ اصطلاحيٍّ ومنهجيٍّ وتطبيقيٍّ، وقد سعى الدّكتور عبدُ الله البريدي إلى بلْورةِ مقاربةٍ تعريفيّةٍ جديدةٍ لكلٍّ منَ اللّغةِ والهُويّةِ على أساسٍ منَ الفهمِ العميقِ لكليهما، فجاءت هذه المقاربةُ وَفقَ المحاورِ الآتية:



> «الهُويةَ تولدُ من إدراكِ الاخـتـلافِ»، وهـذا يـقـودُنـا إلـى مسألة الـوعـيِ فـي تشكيل الهُـويّـاتِ، فيحدثُ أن تشتقَّ بعضُ الجماعات هُويتَها الخاصّةَ عبرَ اخـتـلاقِ واجـتـراحِ خصوصيّاتٍ لها

* تعريفُ اللّغةِ مجرّداً منَ الهُوية: وهو محاولةٌ للتّمييز بين ثلاثةِ محاورَ أساسيّةٍ، وهي: اللّغةُ باعتبارِها حقيقةً اجتماعيّةً، والكلامُ، بوصفِه سلوكًا إنسانيًّا، ثمّ الهُويّةُ باعتبارِها تَتَعَيّنُ شعورًا بالانتماءِ.

* تعريفُ الهُويّة مجرّداً منَ اللّغة: وتمّ التّركيزُ فيه على الطّرحِ النّظريِّ والمفاهيميِّ للهُويّةِ، عبْرَ سَيرورةٍ منَ التّحوّلاتِ التّاريخيّةِ والشّخصانيّةِ.

* الامتزاجُ الوشائجيُّ بين اللّغة والهُويةِ: ويتمحورُ حول العلاقة الجدليّةِ الملتبسةِ بين اللّغةِ والهُويّةِ، فاللّغةُ هُويّةٌ وليست فقط مجرّدَ أداةٍ للتّواصل، لذلك، فمنَ الطّبيعيِّ، أن تكونَ الهُويّةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ مُشَكَّلَةً على أساسِ اللّغة ووَفْق تراتبيّةٍ معيّنةٍ مُلْزِمَةٍ لثبوت الهُويّةِ وتَجَذُّرِها في التّاريخ الإنسانيِّ (أنا عربيٌّ أوّلًا، ومسلمٌ ثانيًا، ومغربيٌّ ثالثًا).

* عودٌ على لحُمة: إعادةِ مزجِ اللّغة بالهُويةِ: وخُصّصَ هذا المحورُ للحديث مرّةً أخرى عن مسألة اللّغةِ

استدلَّ الباحثُ عبدُ اللهِ البريدي بعددٍ منَ المواقفِ التي تشيرُ إلى الانتهاكاتِ الجسيمةِ التي تطالُ استخدامَ اللّغةِ العربيّةِ

والهويةِ بوصفها سؤالاً يُعَزِّزُ المكانةَ المحوريّةَ للّغة في تشكيل الهُويةِ، وجعلِها نَاطقةً، وهو ما يُساعدُنا في فهمِ الذّاتِ واستكشافِ مُستنداتها. لِنقلْ، إنَّ اللّغة هويّةٌ ناطقةٌ، فهي رموزٌ وإشاراتٌ وأداةٌ لتوصيل الأفكارِ والمعاني.

الفصلُ الثّاني الذي جاء تحت عنوانِ :«انتهاكاتُ هُويتِنا النّاطقة»، فيتناولُ أهمَّ الأخطارِ التي تواجهُ اللّغة، ولا سيّما اللّغةُ العربيّةُ، وقدِ استدلَّ الباحثُ عبدُ الله البريدي بعددٍ منَ المواقفِ التي تشيرُ إلى الانتهاكاتِ الجسيمةِ التي تطالُ استخدامَ اللّغةِ العربيّةِ منها: نُطقُ الكلماتِ الأجنبيّةِ باللّغةِ العربيّةِ - كتابةُ أحرفِ اللّغة العربيّة بلُغاتٍ أخرى، إضافةً إلى الانتهاكاتِ التي تعرفُها اللّغةُ على مستوى الفضاءِ الثّقافيّ والفنيّ، ثمّ المخاطرِ التي تُهَدِّدُ استعمالَ اللّغةِ في العالمَ الافتراضيّ، وهي تحدّياتٌ تُواجهُ لغةَ الضّاد كتابةً واستعمالاً، ممّا يستوجبُ الحرصَ الشّديدَ في أثناء استخدامِها تَجَنُّبًا للوقوعِ في عددٍ من التّجاوُزات. أمّا الفصلُ الثّالث، فقد حَمَلَ عنوانَ: «مُعيقاتُ هُويتِنا النّاطِقة»، تمّ التّركيزُ فيه على الصّراعِ الهُويّاتيّ للّغة من منطلقِ ثنائيةِ الهُويةِ اللّغويّةِ الفرديّةِ والهُويّةِ اللّغويّةِ الجماعيّة، فمنَ المعلوم أنّه "منَ المستحيل تقديمُ العالمَ في لغةٍ واحدةٍ. والفهمُ الحقيقيُّ إنّما يُبنَى من خلالِ الكشفِ عن زوايا العالمِ المتعدّدة»(5)، وهو ما يجعلُ الهُويّةَ الفرديّةَ لا تَتَشَكَّلُ بعيدًا عنِ الهُويّةِ الجماعيّةِ، بل تنصهرُ فيها وتذوبُ في أُفقِ ترسيخِ الهُويّةِ اللّغويّةِ، والخلاصةُ أنَّ مسألَةَ الصّراعِ الهُويّاتيّ لا تصلُ إلى مستوَى الوعيِ المُتَعَمِّقِ النَّفعيّ ما لم يكن هناك ترسيخٌ لقيمِ مجتمعِ المعرفة. في حين دار البحثُ في الفصل الرّابعِ الذي حَمَل عنوانَ: «تعزيزُ هُويتِنا النّاطقةِ في مساراتٍ مختلفةٍ» حولَ الهُويّةِ النّاطقةِ في مجالاتِ السّياسةِ والتّعليمِ والإعلامِ والعالَمِ الافتراضيّ، ومن شأنِ ذلك، تعزيزُ الشّعورِ بالانتماءِ داخلَ الفضاءِ العربيِّ ودفْعِ الشّبابِ العربيِّ إلى الانخراطِ الفعّالِ والإيجابيِّ في تطويرِ اللّغةِ العربيّةِ ودفْعِها إلى الأمامِ.

وإجمالاً، يُمكنُ عدُّ هذا الكتابِ بمنزلةِ دعوةٍ صريحةٍ للاهتمامِ باللّغةِ العربيّةِ وتعزيزِ موقعِها ضمْنَ لغاتِ العالم، لا سيما أنَّ اللّغةَ العربيّةَ، قد بدأتْ تعودُ إلى تألّقِها، والدّليلُ على ذلك احتفاءُ العالمِ باليومِ العالميّ للّغة العربيّةِ المقرّرِ 18 ديسمبر من كلّ سنةٍ، عرفانًا وامتنانًا بأهمّيةِ هذه اللّغةِ وأثرِها في ثَراءِ الفضاء اللّغويّ والثّقافيّ للكونِ، وهو ما يَتَطَلَّبُ اهتمامًا متزايدًا بها على المستوياتِ كافّةً.

هوامش الدراسة:

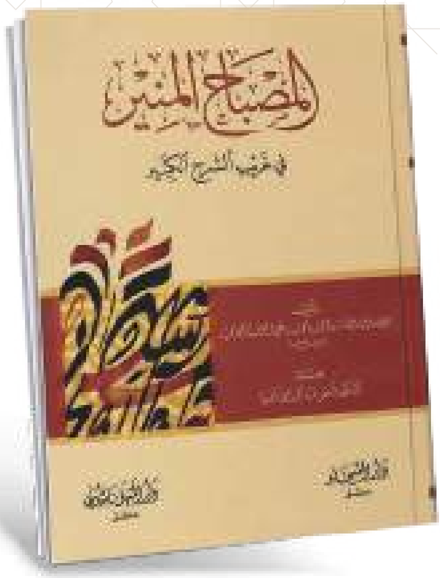
(1) عبد الله البريدي: اللغة هوية ناطقة، منظور جديد يمزج اللغة بالهوية وبالحياة، (المقدمة) كتاب المجلة العربية، 197، العدد 436، أبريل 2013، ص: 12-13.

(2) أليكس ميكشيللي: الهوية، ترجمة: علي وظيفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ط 1، 1993، ص 129.

(3) تزيفيتان تودروف: تفاعل الثقافات، ترجمة: مجموعة من الباحثين - مجلة فصول، العدد 2، المجلد 12، -1993، ص 125.

(4) نادر كاظم: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2004، ص 58-59.

(5) ديفيد هارفي: حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة: محمد الشيا، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، 2005، ص: 49.



كتابُ «المصباحُ المنيرُ» ومميّزاتُه الثّلاثةُ

مؤلّفُ الكتاب: هو أَحمدُ بن مُحمَّد الفيومي الْحَمَوِيّ.

نشأ بالفيُوم بمصر، ثم انتقل إلى القاهرة ليتَّصل بحاملِ لواءِ العربيّةِ في عصرِه أثيرِ الدّين أبي حيّانَ محمّد بنِ يوسفَ الغرناطيِّ (ت: 745هـ) فأخذ عنه حتى صار من أعلام المحققين. ثمَّ ارتحل إلى حماة فاستوطنَها، وبها ذاع صيتُه، وعُرِفت مكانتُه، وَلمّا بنى الْمُؤَيَّد إِسْمَاعِيلُ بنُ عليّ الأيوبيُّ (ت: 732هـ) جَامعَ الدّهشةِ قَرَّرَهُ فِي خطابتِها، فاشتهر بخطيبِ الدّهشة. يقول الحافظُ ابنُ حجر: "كان فَاضلاً عَارِفًا بِاللّغَةِ وَالْفِقْه ... وَكَأَنَّهُ عَاشَ إِلَى بعد سنة: (770هـ)"(1).

يعدُّ كتابُ "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير" من أجلِّ الكتبِ التي عُنيَت بشرح غريبِ لغةِ الفقهاء.



عبد العزيز محمد يحيى
باحثٌ وخريجُ المحظرة الشّنقيطيّةِ

فقد عمدَ مؤلّفُه إلى "فتح العزيز في شرح الوجيز" للشّيخ عبد الكريم بنِ محمّد الرّافعيّ (623 هـ) المعروفِ بـ: الشرح الكبير فشرح ما يُحتاجُ إلى الشّرح من غريب لغتِه، ولم يلتزم ذكرَ كلِّ ما وَقَع فيه منَ الغريب.

وأضافَ إليه ما يراه نافعًا ومفيدًا من لغة غيره= حتى صار كتابًا مطوّلًا، وجَمَع أصلَه من نحو سبعينَ مصنّفًا مطوَّلًا ومختصرًا(2)، ثمّ إنّه رأى تقاصرَ الهمَم عن تحصيلِ ذلك الجمعِ المطوَّل= فاختصرَه في المصباحِ الذي بين أيدينا، وفي ذلك يقول: "فإنِّي كُنتُ جمعتُ كتابًا في غريب شرح الوجيز للإمام الرَّافعيِّ، وأوسعتُ فيه من تصاريفِ الكلمة، وأضفتُ إليه زياداتٍ من لُغة غيرِه، ومنَ الألفاظ المُشتبهاتِ والمُتماثلات، ومن إعراب الشَّواهدِ وبيانِ معانيها وغيرِ ذلك ممَّا تدعُو إليه حاجةُ الأديب الماهِر ... غيرَ أنَّهُ افترقت بالمادَّة الواحدة أبوابُهُ، فوعرت على السَّالك شعابُهُ ... فجرَّ إلى ملل، ينطوي على خللٍ، فأحببتُ اختصارهُ على النَّهج المعرُوف، والسَّبيل المألُوفِ، ليسهُلَ تناوُلُهُ بضمِّ مُنتشرِه، ويَقصرَ تطاوُلُهُ بنظم مُنتثرِه»(3).

وهو -كما قال ابنُ حجر- «كثيرُ الْفَائِدَة حسنُ الْإِيرَاد»(4)، مع إتقان الصّناعةِ الصّرفيّةِ، وجودةِ الضّبط، ووضوحِ العبارة، وسهولةِ المأخذ، فلا غنًى للدّارسين عنه.

هذا وقد تيسّر لي أثناءَ تحقيقه الوقوفُ على ثلاث نسخٍ بخطِّ جامعِه الفيومي، وهي مرتّبةٌ بحسب تاريخِ نسْخِها إلى ثلاثةِ أقسام:

• **النّسخةُ الأولى:** وهي أوّلُ إبـرازةٍ له، وعنها أُخذ جلُّ نسخِه

الموجودةِ في المكتبات، وهي التي اعتُمد عليها في إخراجه أوّلَ ما خرجَ.

وقد أتمَّ تبييضَها -كما ذكر- في العشر الأواخر من شعبان المبارك سنة 734 هـ.

• **النّسخةُ الثّانيةُ:** وهي ثاني إبرازةٍ له، وقد زاد فيها ونقص وبدَّلَ، ويمكن عدُّها تسويدًا لما بعدَها.

وأتمّها في العشر الأواخرِ من ذي الحجّة سنة 737 هـ.

• **النّسخةُ الثّالثةُ:** وهي الإبرازةُ الأخيرةُ، وفيها تغيّراتٌ كثيرةٌ بالزّيادةِ والنّقص وتغييرِ الصّياغةِ، وحلّاها بحواشٍ نفيسةٍ، منَ الشّواهد والنّقولِ النّادرةِ وجمعِ النّظائر ...إلخ

وقد انتهى من تبييضِها في العشر الأواخر من رمضان المعظم سنة 743 هـ.

فمن أمثلةِ ذلك في كتاب الألف فقط:

- **زيادةُ بعضِ النّصوص:** وقد تنوّعت إلى أنواع:

فمنها زيادةُ مادّةٍ برأسِها:

«الإباضُ: حبلٌ يشدُّ به رسغُ البعير إلى ركبتِه، وبه سمّيَ الرّجلُ، والإباضيةُ فرقةٌ منَ الخوارجِ نسبةً إلى عبد الله بنِ إباضٍ التّميميِّ»(5).

«وأَرَّجان مدينةٌ من فارس ووزانُها فعَّلان، ولا يقال أفعلان لأنّه يؤدّي إلى أن يكون الفاءُ والعينُ من موضعٍ واحدٍ، ولا يكادُ يوجدُ، ويؤيّدُه أنَّ بعضَهم يخفّفُ، فيبقَى فعلان»(6).

ومنها ما كان للتّوضيح والتّبيين: «لكن إن ذُكر المصدرُ مع مثالٍ دخلَ في التّمثيل وإلاَّ فلا [ذِكرَ له في الكتاب]»(7).

«وقولُهم: في العشر الآخِرِ على فاعل أوِ الأَخِير أوِ الأوسط أوِ الأُوَّل -بالتثقيل(8)-= عامّيٌّ؛ لأنَّ المرادَ بالعشرِ الليالي، وهي جمعٌ مؤنّثٌ، فلا توصفُ بمفردٍ بل بمثلِها، [فيقالُ: العشرُ الأواخِرُ أوِ الأُخَر]»(9).

ومنها الاستدراكُ: "ولم يأتِ من حلقيِّ الفاء إلا أبى يأبى، [وألَب يألِب ويألَب إذا أسرع]، وعضّ يَعَضّ في لغة، وأَتَّ الشعرُ يَأَتّ إذا كثر والتفَّ، وربما جاء في غير ذلك قالوا ودَّ يودُّ في لغة"(10).

- **حذفُ بعضِ النّصوص:** فقد تراجعَ المؤلّفُ عن بعض نصوصِه إمّا بسبب أنه جاء ببديلٍ عنها، وإما أنّه وجدَها غيرَ خادمةٍ لبحثه.

فمنَ الأول:

«والأَبْواءُ وِزان أفعال موضع بين مكّة والمدينة ويقال له وَدّان. «استغنى عنه بما يأتي في ودَّان»(11).

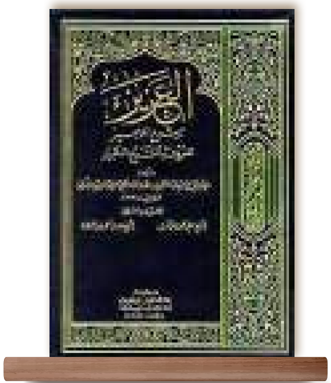
«والأَرْبُون بفتح الهمزة والرّاء والأَرْبَان وزان عُسْفَان لغتان في العَرَبُون». استغناء بما يأتي في عـ ـربـ ـن.

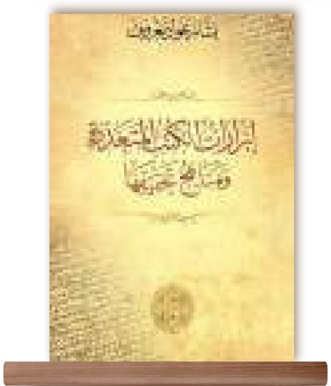
ومنّ الثّاني:

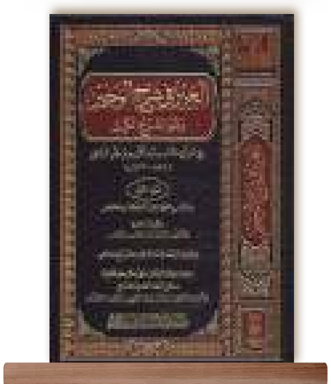
«أبان: اسمُ جبل، وبه سمّي الرّجل، ونونُه أصليةٌ، ووزنه فَعال مثل: سلام؛ ولهذا يُصرف».

«روي عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما أنّ أولادَ آدم عشرةُ أجزاء فيأجوجُ ومأجوجُ تسعةٌ وباقي الخلق جزءٌ واحدٌ»(12)

«...وتأَتّى في أمره ترفّق»(13).







"المُرْجِئَةُ: طائفة يرجِئُون الأعمالَ أي يؤخّرونها فلا يرتّبون عليها ثوابًا ولا عقابًا بل يقولون: المؤمنُ يستحقّ الجنّةَ بالإيمان دون بقيةِ الطّاعات، والكافرُ يستحقُّ النّارَ بالكفر دون بقية المعاصي"(14).

- **إعادةُ الصّياغة وإصلاحُ**

السّياق: وقد قام بذلك إمّا بسببِ أنه يطلب الاختصارَ، وإمّا أنّه للجرْيِ على اصطلاحِه، وإمّا لغيرِ ذلك.

«وأَبَـدَ الشيءُ [من بَابَي ضرب وقتل](15)»

«والأَجْرُ والأُجرة والإِجَارَة بمعنًى، وجمع الأجر أُجُورٌ»(16).

"أَرَّخْت: الكتابَ -بالتّشديد في الأشهر، والتّخفيفُ لغةٌ حكاها ابنُ القطّاع-: إذا جعلت له تاريخًا، وهو بيانُ انتهاءِ وقته، وهو مُعَرَّبٌ، وقيل عربيّ».(17)

- **الحواشي والهوامشُ:** وهي تحتوي على نقولٍ وشواهدَ وتحقيقاتٍ وفوائدَ، فمن ذلك:

«في البارع عن أبي زيد: الوليمةُ والمأدبةُ كلُّ طعامٍ صُنع لعرسٍ كان أو غيرِه»(18)

«وقال لقيط بن يَعْمُر الإيّاديّ:

هيهاتَ لا مَالَ من إبِلٍ ولا زرع
يَبقَى لِغَابِرِكُم إن أنْفُكُم
جُدِعَا»(19)



«كلُّ طعامٍ صُنع لدعوةٍ، مأدُبة ومأدَبة، وما صُنع لعرسٍ وليمةٌ، وللبناء وَكِيرَة، وللولادة خُرسٌ، وما تأكلُه النُّفساء خُرْسَة، وللختان إعذارٌ، وللقادم من سفر نَقيعةٌ، وطعام المِلاك يُسمّى النّقيعةَ أيضًا، وكلُّ طعام يُصنع لمصيبة يُسمّى وَضيمةً، قال:

كلّ الطَّعَام تَشْتَهي رِبيْعَة

الخُرْسُ والإعْذارُ والنَّقِيْعَةُ

وسمع في الشّعر مأدوبةٌ، قال:

زَجِلٌ عجزُه يُجاوبه دُفّ
لخُونٍ مأدوبةٍ وزَمير

وصف سحابا له زجل أي صوت، وعجزُه: آخره يعني أنه يجاوبه صوتُ رعدٍ آخر من بعض نواحيه كأنّه قرع دفٍّ يقرعه أهلُ عرس، والمأدوبة التي يُدعى النّاسُ إليها، والزَّمير: الزَّمْرُ»(20).

«ويُستعملُ الإخوة والإخوان في النّسب والصّداقة، [وفرَّق] بعضُهم فخصّ الإخوةَ بالنّسب، والإخوانَ بالصّداقة [وهو] قول الجوهري: وأكثرُ ما يُستعملُ الإخـوان في الصّداقة، والإخوةُ في الولادة، قال الأزهريّ: وهو غلطٌ، بل يقال في النّسب والأصدقاء إخوةٌ وإخوانٌ، قال الله في النسب: {أَو بُيُوتِ إِخوَٰنِكُم} [النور: 61] وقال في الصداقة: (إِنَّمَا ٱلمُؤمِنُونَ إِخوَةٌ) [الحجرات: 10]» (21).







«هو أزد بنُ الغوث بنِ نبت بنِ مالك بنِ كهلان بنِ سبأ، والأزدُ تجمع قبائلَ وعمائرَ كثيرةً في اليمن، يقال أزدُ شنوءة وأزدُ عمان وأزدُ السّراة، يقال: رجلٌ شنوءةٌ للذي يتقزّزُ عنِ الأدناس أي يتباعدُ، قال أبو عبيد: وأحسب شنوءة من ذلك.

وقد تُبدل الهمزةُ وتدغمُ، قال الشّاعر:

نحن قريش وهمُ شَنُوَّه
بنا قريشا ختم النُّبُوَّه

أنشده الجوهريّ.

وقيل لهم أزد عُمان لأنّهم لما خربت السدّ وافترقوا نزلوا عُمان، وقيل: أزدُ السراة لأنهم نزلوا المشارقَ الجبلَ الذي يسمّى السّراة قرب عُمان»(22).

وممّا تقدّم يَتَبَيَّن لك **ضرورة إعادة تحقيقِه وإخراجِه على ضوء هذه النّسخةِ؛ لأنَّ ما سواه مرجوعٌ عنه، فهي التي ارتضاها المصنّفُ وحقّقها وعلّقَ عليها،** «حتى صارت ناسخةً للإبرازات المتقدّمة، إذ لا يعقلُ أن يعتمدَ المحققُ شيئًا حذفه المؤلّفُ، أو جملةً لم يرتضِها فعدَّلها، أو يُهملَ مادّة زادَها وارتضاها فصارت جزءًا منَ النّصّ»(23).

والله الموفق والهادي.



(1) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر العسقلاني: (1/372).
(2) ينظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة: (6/522)، ومعجم المصباح المنير ومكانته في المكتبة اللغوية العربية، أ.عبد السلام غجاتي، مجلة الآداب، العدد 9، جامعة منتوري/ قسنطينة ص: (291-292).
(3) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي مخطوط بخط مؤلفه (2/أ)
(4) الدرر الكامنة: (1/372).
(5) المرجع السابق: (2/ب).
(6) المرجع السابق: (6/ب).
(7) المرجع السابق: (2/أ).
(8) في الإبرازة الأولى: (بالتشديد).
(9) المرجع السابق: (5/أ)
(10) المرجع السابق: (3/أ)
(11) المرجع السابق: (3/أ).
(12) المرجع السابق: (4/أ).
(13) المرجع السابق: (3/ب).
(14) ضرب عليه في الثانية، ولم يذكره في الأخيرة.
(15) وقع في الإبرازتين الأولى والثانية: (يَأْبِدُ ويأبُدُ)، والمثبت هو الذي في الأخيرة الجاري على اصطلاحه.
(16) في الأولى: (ويستعمل الأجر بمعنى الإجارة وبمعنى الأجرة، وجمعه أجور)، حذف وغيَّر السياق طلبا للاختصار ودفعا للتوهم.
(17) في الأولى: (وهو مُعَرَّبٌ، وقيل عربي، وهو بيان انتهاء وقته)، فقدم التصور على الحكم في الأخيرتين.
(18) المرجع السابق: (5/ب)
(19) المرجع السابق: (3/أ).
(20) المرجع السابق: (5/ب).
(21) المرجع السابق: (5/ب).
(22) المرجع السابق: (7/ب).
(23) ينظر: إبرازات الكتب المتعددة ومناهج تحقيقها، د. بشار عواد معروف، ط1، 1440هـ-2018م، مكتبة الامام البخاري.

وقفةٌ مـعَ الأعْـمـالِ الـفـائِزةِ فـي جـائِـزَةِ الـشّـارقَة للـدّراسـاتِ الـلّـغَويّة والـمُعجَميّة

فَرع الدِّراسات اللُّغويَّة (الدَّورة الرّابعة– 2021)

كتاب: أُصول النَّحْو العَرَبِيّ (بناء معاصر لِعِلْم الاسْتِدْلالِ اللُّغويّ)

للأستاذ الدُّكتور: محمَّد عبد العزيز الرِّفاعي



هبة هشام
باحث لغويّ في مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

سَعَتْ جائزةُ الشّارقَة للدِّراسات اللُّغويَّة والمعجميَّة منذ انطلاقَتِها الأولى إلى إحياء اللُّغَة العَربيَّة، والتَّمكين لها ولفنونها المتنوِّعَة، فخَصَّصَت محوَرًا للدِّراسات اللُّغويَّة تُشجِّعُ من خلاله العُلَماءَ والباحثينَ على رَفْدِ المكتَبَةِ العربيَّة بالمزيد من الأبْحاث والدِّراسات القيِّمَة ذات الصِّلَة، وتَشْحَذُ الهِمَمَ لإبراز المُنْجَزات العِلْميَّة الرَّصينَة الباحثَة في واقع اللُّغَة، وسُبُلِ تَعْزيزِ مَكانَتِها وحُضورها بَيْنَ شَرائحِ المُجْتَمَعِ كافَّةً. وانْتَقَتْ مِنْ بين المشارَكاتِ اللُّغويَّةِ الرَّصينَة، دراسَةَ الأستاذ الدُّكتور محمَّد عبد العزيز الرِّفاعيّ بِعُنْوان: (أصول النَّحو العربيّ- النَّظريَّة والمنهج) حائزَةً المَرْكَزَ الثَّاني ضِمْنَ فِئَةِ الدِّراساتِ اللُّغَويَّةِ في جائزَةِ الشّارقَةِ للدِّراساتِ اللُّغَويَّةِ والمُعْجَميَّة خلالَ دَوْرَتِها الرّابعة للعام 2021م.

وتحتَ مِحْوَرِ الدِّراساتِ النَّحويَّة الحديثة وخدمة اللُّغة العربيَّة، وذَلِكَ لما تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ أَصالَةٍ في الطَّرْحِ، وجِدَّةٍ في اخْتِيارِ مَيدانِ البَحْث، انْطلاقًا مِنْ غايَةٍ كُبرى تمثَّلت في قراءَةِ عِلْمِ أُصولِ النَّحْوِ قراءَةً تَنْظيريَّةً مَنْهَجيَّةً تُغَطِّي أبعادَه الرَّئيسيَّةَ الثَّلاثَة: النِّظام والنَّظَريَّة والمَنْهَج.

تُعَدُّ هذه الدِّراسَةُ مُحاوَلَةً جَديدةً شامِلَةً لِتَأْسيس ما أَسْماهُ الباحِثُ بِعِلْمِ (الاستدلالِ اللُّغويّ)؛ ذلكَ أنَّ أُصولَ النَّحْوِ إنَّما تَقومُ على الاسْتِدْلالِ الَّذي يُمثِّلُ جَوهَرَ التَّقْعيدِ وأَساسَه، وقد ارتأى الباحِثُ اسْتِعْمالَ



حاولَتِ الدِّراسةُ استِنباطَ نِظامَ الاسْتِدْلالِ اللُّغويّ، وكشْفَ نظريّاتِه ومناهِجَه، وإجراءاته المُخْتَلِفة وضوابطَها، من خلال تحقيق عدَّة أهداف منها: تحديد الرُّؤيَة الكُلِّيَّة لأصولِ النَّحْوِ عندَ نُحاتِنا، ورسْمُ الصّورَةِ العامَّة لِنظامِ الاسْتِدْلالِ اللُّغويّ، وتَحْديد جُمْلَةِ المَراحِلِ الَّتي تَمُرُّ بها عمَلِيَّة الاسْتِدْلالِ اللُّغويّ مع بَيانِ مَجْموعَةِ الإجْراءاتِ الّتي تَجري في هذِهِ المَراحِل، وما تمتَلِكُه هذه الإجـراءاتُ مِنْ نَظَريّاتٍ وتَصَوُّراتٍ ومناهجَ وأُسُسٍ تُمَثِّلُ ضوابطَ عامَّةً أو قواعد كُلِّيَّة، إضافة

وَصْفِ (الاسْتِدْلالِ اللُّغويّ) على الرَّغمِ مِنْ إعادَتِه لقراءَةِ أُصولِ النَّحوِ تَنْبيهًا على أنَّ عملَ هذه الأُصولِ لا يَنْحَصِرُ في الدَّرْسِ النَّحْويِّ وَحدَه، بل تَمْتَدُّ تطبيقاتُهُ إلى فُروعِ الدَّرسِ اللُّغَويِّ المخْتَلِفَة، وعليهِ

إلى إعادَةِ تقويمِ العِلَلِ النَّحويَّة ذاتِ السُّمْعَةِ غير المُحَبَّبَةِ إلى نُفوسِ قُدامى النُّحاة وعددٍ من المُحدَثين، وتحديدِ موقِعِها مِنْ بِنْيَةِ هذا العِلْم، وتحديدِ العلاقَةِ بينها وبينَ العامِلِ مِنْ جِهَة، وبينها وبين

التَّأويلِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى، ناهيكَ عن التَّمييز بوضوحٍ بينَ مكوِّناتِ نظامِ الاستدلالِ اللُّغويّ في عِلْمِ أُصولِ النَّحْوِ، ومحاولةِ اسْتِنْباطِ آليَّةِ الاسْتِدْلالِ اللُّغويّ أو المنهجِ العامّ الّذي اتَّبَعَهُ اللُّغويّون العرب في تقعيدِهم لِلُّغَةِ من خلالِ تنْظيمِ مفاهيمِ الاسْتِدْلالِ وعناصِرِه المختلِفَة بطريقَةٍ ترسم حدودَها، وتكشِفُ عن طريقَةِ عَمَلِها، وتُحَدِّدُ علاقتها ببعضِها البَعض. جاءَت هذه الدِّراسَة على ما اقْتَضَتْ طبيعَتُها في مقدّمَة وقِسْمَينِ عَريضَين، خُصِّصَ أوَّلُهُما للإطارَين النَّظَريّ والمنهَجيّ للدِّراسَة، وهو على بابَين تناوَلا هذين الإطارَين، بينما عُنِيَ ثانيهما بالدِّراسةِ التَّحليليَّةِ للاسْتِدْلالِ أو أُصولِ النَّحوِ وفقَ ما تقرَّرَ في القسمِ الأوَّلِ بإطارَيه النَّظريِّ والمنهجيِّ، وخاتمة تتضمَّن أبرز النَّتائج، مع مجموعة قيِّمَة من الجداولِ والرُّسوم التَّوضيحيَّة.

وقد رَتَّبَها الباحث على النَّحوِ الآتي:

القِسْمُ الأوَّل: الإطاران النَّظريّ والمنهَجيّ لأصولِ النَّحو (علم الاستدْلال)، وقَدْ قَسَمَه الباحِثُ على بابَين، تناولَ الأوَّلُ مِنْهُما الإطارَ النَّظريّ، وانْدَرَجَ تحتَه فَصْلان: اعتَنى الأوَّلُ منهُما بمناقَشَةِ المفاهيمِ الأساسيَّة العامَّة لِعِلْمِ أُصولِ النَّحو، بينَما تَناوَلَ الفَصْلُ الثّاني النَّظريَّة العامَّة لأصول النَّحو (الاستدلال)، أمّا البابُ الثّاني فقد تَناوَلَ فيه الباحِثُ الإطار المنهجيّ، وانْدَرَجَ تَحْتَه فَصْلان: ناقَشَ الفَصلُ الأوَّلُ بِنيَةَ أصول النَّحو (الاسْتِدْلال) فبَحَثَ بِنيَةَ أُصولِ النَّحْوِ بينَ التُّراث والدَّرس المعاصِر، وعرَضَ الباحثُ رُؤْيَتَهُ الخاصَّة مِنْ ناحِيَةِ البنيةِ والمَصادِرِ اللُّغَوِيَّة وغير ذلك، بَيْنَما رَكَّزَ الفصلُ الثّاني على دِراسَةِ المنهَجِ العامّ لأُصولِ النَّحوِ وحُجيَّةِ مَصادِرِه.

القسم الثّاني: الدّراسَة التَّحليليَّة، وفيه ثلاثةُ أبواب، تناولَ الأوَّلُ مِنْهُما إجراءاتِ مرحلَةِ الكَلامِ غيرِ المحدود، وانْدَرَجَ تحتَه فَصْلان: يُناقِشُ المُؤَلِّفُ في الفَصلِ الأوَّلِ مِنْهما إجراء النَّقل وكلّ ما يتَّصِلُ به من ناحيةِ المفهومِ والأبعاد والحدّ والضَّبطِ اللّازم بالخَصائِص والشّروط وغير ذلك، بينما خصَّصَ الفصلَ الثّاني لمُناقَشَةِ الإجراءات المُلْحَقَة بالنَّقل وهُما: الاستِقراءُ والنَّقْل، أمّا البابُ الثّاني فيُعْنى بِدِراسَةِ إجراءاتِ مرحَلَةِ الشَّواهِد، ويندرجُ تحتَهُ فُصولٌ أربَعة، اختصَّ الأوّل منها بدراسةِ الإجراءاتِ الأوَّليَّة التَّأسيسيَّة للاسْتِدْلال، أمّا الفصل الثّاني من هذا الباب فيَعرِضُ فيه الباحثُ لإجراءِ القِياس، بينما ركَّز الفصلُ الثّالث على مُناقَشَة ما يتَّصِلُ بالاستِصْحابِ العامّ والخاصّ، بَيْنَما اعْتَنى الفَصْلِ الرّابع والأخير من هذا الباب بدراسَةِ إجراءِ الاسْتِحْسان، أمّا البابُ الثّالثُ والأخير من هذا القِسم فقَد ركَّز على دراسَةِ إجراءاتِ مرحَلَةِ الأَحْكام دراسَةً تحليليَّةً في فَصْلَين اثْنَين: ركَّزَ الأوَّل مِنْهُما على دراسَةِ الإجْراءاتِ التَّأسيسيَّة وتشملُ التَّحديدَ والتَّصنيفَ والتَّوجيه، بينَما عُنِيَ الثّاني مِنْهُما بدراسَةِ الإجراءاتِ التَّكميليَّة.



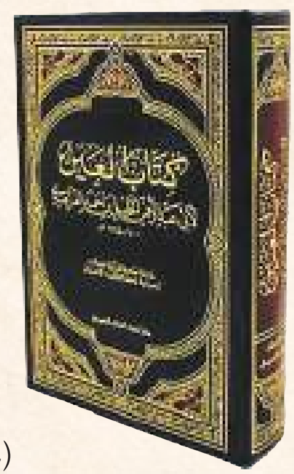
هذه الدِّراسَةُ في مُجْمَلِها مُحاوَلَةٌ جادَّةٌ لقراءَةِ صِناعَةِ التَّقعيد في الدَّرسِ اللُّغويّ قراءَةً جديدَةً تَلتَزِمُ الإطارَ العامّ للتَّصوُّر المعاصر الّذي يُعْنى بالمُنْجَزِ ذاته، والنَّظَريَّة الّتي يَتَبَنّاها هذا المُنْجَز على حَدٍّ سواء، وقد تميَّزَت بطَرْحِها رُؤيَتَها الخاصَّة والعميقَة لآليَّةِ الاسْتِدلال المُتَمَثِّلَة في معالَجَةِ بعضِ المُشْكِلاتِ الجوهَريَّةِ في أُصولِ النَّحو، وإعادَة صياغةِ مباحث أصول النَّحوِ صياغَةً جديدَة تُجيب عن التَّساؤلاتِ المُتَعلِّقَة بعلاقتها مع بعضها، وعن مجموعَة النَّظريّات الّتي يمتَلِكُها، وعن جُمْلَةِ المناهجِ الّتي يتبَنّاها، كما طرَحَت الدِّراسَةُ عددًا من الفَرَضيّاتِ المُقْتَرَحة بوَصْفِها معاييرَ مُتَكامِلَة تجعَلُ من هذه الرُّؤية نظريَّةً شامِلَةً للاسْتِدْلالِ اللُّغويّ، ومنها على سَبيلِ الذِّكْرِ لا الحَصْر: أنَّ استِدْلالَنا اللُّغويّ لم يعتمِد إلّا مصدرًا وحيدًا مُسْتَقِلًّا لِلُّغَةِ يتمثَّلُ في كلامِ العربِ غيرِ المحدود، وأنَّ ما سِواهُ من المصادِرِ ليس أكثرَ من جُمْلَةِ إجراءاتٍ عقليَّة تجري على هذا المصدرِ المُفرَد الّذي يَمْلِكُه، علاوةً على اقتِصارِ الإجماعِ على كَوْنِهِ دليلًا لآراءِ اللُّغويّين واجتهاداتهم من توجيهٍ وترجيحٍ وتأويلٍ وتفسيرٍ، دون أن يرقى إلى درجَةِ المصدرِ الّذي تثبت به أحكامُ اللُّغةِ لانحِصارِ دَورِه في اجتهاداتِ اللّغويّين.

كما أوصى الباحثُ بضرورَةِ إصْلاحِ آلَةِ الاسْتِدْلالِ اللُّغويّ وإعادَة تشغيلِها –على حدِّ تعبيرِه– لإيمانِه العميق بأنَّ ما قدَّمَه في هذه الدّراسة لم يَكُن إلّا مُمَهِّدًا لأعمالٍ ودراساتٍ طموحَةٍ جِدًّا يحتاجُها عِلْمُ أُصولِ النَّحو لِيُقَدَّمَ إلى جُمهورِ الباحِثينَ والمُهتَمّين على الوَجْهِ الّذي يَسْتَحِقُّه.

من صدور العرب إلى صفحات المعاجم:

ولادة الفـــكـــر اللغـــويّ

كانت اللغة العربيّة دائرة بين الألسن يتناقلها العرب بينهم شعرًا ونثرًا ويتبارون في الإبانة والتّبيين بها في مقولاتهم ومساجلاتهم، ويبعثون أبناءهم إلى البادية ليثقّفوا ألسنتهم ويقوّموا سليقتهم ويحفظوا عن العرب الأقحاح لغتهم، وذلك قبل أن تدوّنها الأقلام وتحفظها الكتب إلى جانب الصّدور، ولم يكن يعرف حينها العرب التّأليف المعجمي، وذلك لاتكالهم على حفظهم وتناقل الأشعار بينهم شفهيًا، ولكون حياتهم قائمة على الحِلّ والتّرحال.



فلـمّا جاء الإسلام ببيان قرآنه الكريم وفصاحة نبيّه ﷺ، استشكل بعض العرب جملة من ألفاظ الوحي، فكان النبيّ ﷺ يشرح لهم غريب الألفاظ ويفسّر لهم دلالات الوحي، وكان الصّحابة رضوان الله عليهم يحفظون ذلك عنه، وبعد أن سطعت أنوار الإسلام في الجزيرة العربيّة وما يجاورها من أقاليم، اختلط فيها العرب بغيرهم من الشعوب، وبعد قرابة قرنٍ ونصف شقّ اللّغويّ والنّحويّ البارع الخليل بن أحمَد الفراهيديّ طريق التّأليف المعجميّ العربيّ عندما وضع مصنّفه الثّمين الذي أسماه (كتاب العين)، وهو أوّل معجم عربيّ وُضع لشرح معاني الألفاظ، وقد اعتمد الخليل في ترتيبه للمعجم على معرفته الواسعة بمخارِج الحروف، فجاء ترتيب الموادّ في المعجم على الحروف حسب مخارجها، وابتدأ بحرف العين لكونه أَقْصى حروف الحلْقِ وأوضحها نغمًا، ثُمَّ الحاءِ، ثمّ الهاءِ، وهكذا حتّى وصل إلى الهمزة، وجعَلَهُ كتُبًا كلُّ حرْفٍ كِتاب، وفرّع الكتب إلى أبواب بحسب الأبنية، ورتّب الكلمات في الأبواب وقلّب الكلمة إلى مختلف الصّيَغ التي تأتي منها، فإذا أَرَدْتَ البَحْثَ عن كَلِمَةِ (جمع) مَثَلًا، فإنَّك تَبْحَثُ عنها في كِتابِ حَرْفِ العَيْنِ لأنَّ كلمة (جمع) تَحوي هذا الحرف وهو أَقصى حروفِ الحلق مُقارَنَةً بالجيم والميم، وإذا أردت البحْثَ عن كلمة (فهم) فإنَّك تَبْحث عنها في كتاب حرف الهاءِ لأنَّه يحوي هذا الحرف وهو أَقصى حُروف الحلقِ مُقارنةً بالفاءِ والميم، وهكذا، وقد سار بعض روّاد التّأليف المعجميّ من بعده على هذا المنهج فنحا نحوه الأزهريّ في (التهذيب) وابن عبّاد في (المحيط) والقالي في (البارع).

من هذا، يتبيّن أنّ الخليل بن أحمَد الفراهيديّ قد حاز قَصَبَ السَّبْقِ في التّأليف المعجميّ العربيّ، وكان عمله هذا منارة اهتدى بها علماءُ كُثُر من بَعدِه، بيدَ أنّ من المهم الإشارة إلى ما ناله معجم العين من حظوة واهتمام بالغَين جعلته يُحقَّقُ ويُطبَعُ مرّات كثيرة، كان من بينها تحقيق عبد الحميد هنداوي بعد إعادة ترتيب الحروف وتصنيفها وفق التّرتيب الهجائيّ المتعارف عليه اليوم.



مِن أعْلامِ العَربيّة

- الإمامُ العلّامةُ الشّيخُ البشير الإبراهيميّ
- الأخفش الأكْبَر...شيخُ العربيّة وشيخُ سيبويه
- هل كان عبدُ القاهرِ الجُرجانيُّ تلميذًا للقاضِي عليّ بنِ عبدِ العزيز الجُرجانيِّ؟



الإمامُ العلّامةُ الشّيخُ البشير الإبراهيميّ

علَمُ الأعلام، وإمامُ العربيّة، وجِهبذُ البيان، وقُدوةُ الأعلام في إصلاح المجتمع وبناء الإنسان

إذا كانت الأُممُ والشّعوبُ تُقاسُ بالمُنجزات الحضاريّة الكُبرى والعمران الفاره والحياة الطّيّبة الرّغيدة التي تُوَفّرُها لأبنائها؛ فإنَّ نصيبَ وَصْف الأفراد والعظماء من أبنائها يُنظَرُ إليه من زاوية بناء الإنسان، ونَشْر الفضيلة، وتشييد صروح المبادئ، والبصمات السّاطعة اللامعة التي يترُكها المرءُ بعد مغيب شمسه وأفول نجمه.

وإذا كانت على قدر العظام تأتي العظائم، وعلى قدر الفُضلاء تأتي المكارمُ، فإنَّ مُتَرجَمَنا في هذه الأسطر رجلٌ ملأ سَمْعَ الزّمان والمكان فصاحةً وعِلْمًا، وثقافة وأدبا، وبناء للأفراد، وإصلاحا للمجتمع، ودفاعًا عن الوطن.



د. امحمد المستغانمي
أمين عام مجمع اللّغة العربيّة بالشارقة

إنّه الإمامُ الكاتبُ، الشّيخُ الهُمامُ البارعُ، المناضلُ الشّجاعُ، المُجاهدُ الأبِيُّ، العالِمُ الثّقةُ المأمونُ، اللُّغويُّ الجهبذُ، الألمعيُّ الأحوَذيُّ ذو الحافظة التّصويريّة، طَوْدُ العربيّة وجبلُها الأشمّ، وبحرُ المعارف الشّرعيّة وطَمْطامُها الأعظم، لم يعرف الشّرقُ ولا الغربُ في العصر الحديث له نظيرا في البيان واللغة، ولا مُناهزًا في الإصلاح الاجتماعيّ.

أوْحَدُ دَهْرِه، وفريدُ عصرِه، حملته أمُّهُ نشاطا، ووضعته سَهْلا عامَ تسعةٍ وثمانين وألفٍ وثمانمائة لميلاد المسيح، إبّان الاحتلال الفرنسيّ لأرض الجزائر. تعلَّمَ في مسقط رأسه الدُّروسَ الأولى في العربيّة وحفظ المتون على الطّريقة التّقليديّة العتيقة المعهودة في ديار المغرب العربيّ الكبير على وجه الخصوص.

تجلّى ذكاؤُه في رَيْعان الصّبا وشرخ الطّفولة فكان مضربَ الأمثال في الحفظ، وأُعجوبَةَ الزّمان في الاستحضار، وآيةً للعالمين في الاستظهار. قال عن نفسه: "كنتُ

كـان يـبـدأ يـومه بالقراءات والتّفسير، ثـمّ العقيدة والفقه والأصول، إلى أن يصل به الوقت إلى ما بعد صلاة العشاء فيحفظ مائة بيت من الشّعر قبل أن ينام.

من أقوال الشيخ البشير الإبراهيمي

«اللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها، وأمدّتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم وبحثوا في كل فن وملأوا الدنيا مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات، وكتاب أبي عبيدة في الخيل، وكتاب الهمداني في تخطيط جزيرة العرب وكتاب الجاحظ في الحيوان وكتب الأَئِمَّة في الطب والنجوم والإبل، رأى العجب العجاب من اتّساع هذه اللغة وغزارة مادتها، وعلم مقدار أفضالها على الأمة العربية. كما ان من يقرأ شعر الشعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة وشعر الشعراء الوصافين من الأندلس يتجلى له أي إِفضال أفضلته العربية على تلك القرائح الوقّادة التي وجدت في العربية فيضًا لا ينقطع مدده، وأضافته إلى فيض الاستعداد. وما أمتن الإنتاج الأدبي إذا كان يصدر عن اتساع في اللغة واتساع في الخيال».

أشُكُّ في حافظة الشّافعيّ حتّى رزقني الله تعالى خيرا منها».

صنّف وألَّفَ، ونظم القريضَ وخطب، ودرّس وأبدع، وبرَّزَ في العلوم العقليّة والنّقليّة، وأخذ بأساليب الأوّلين في طلب العلم، ونزعَ مَنْزعَهم، وسلكَ سُبُلَهم وفجاجهم، فاجتمعت أوديةُ العلم في خلايا ذهنه، ومَجْمع أنهُر وِجْدانه وفِكره، كما تتجمّعُ مياه الأمطار والثلوج الذّائبة فتُكوِّنُ النّهرَ الفيّاض المتدفّق.

مرحلةُ الطّلب:

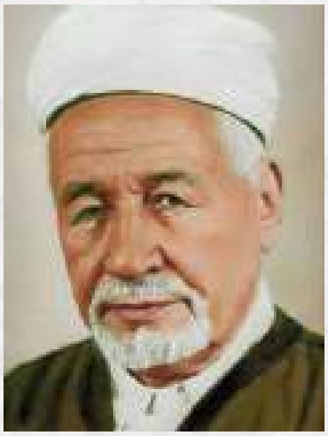
كان في مرحلة الطّلب يشهد ثلاثة عشر درسا في اليوم الواحد. يبدأ يومه بالقراءات والتّفسير، ثمّ العقيدة والفقه والأصول، إلى أن يصل به الوقت إلى ما بعد صلاة العشاء فيحفظ مائة بيت من الشّعر قبل أن ينام.

مكتبتُه في ذهنه، وخزائنُ أسفاره في رُوعه وصدره، إذا نطقَ أذهل، وإذا تكلّم جَلَّى وأعجب، وإذا نظم الشّعر غنّى وأطرب، وأخذ بألباب معاصريه وكلّ من استمع إليه.

انفجرت معارِفُهُ بحفظه لكتاب: «نَفْح الطّيب من غُصن الأندلس الرَّطيب»، هذا السِّفرُ العظيم الذي يقع في سبعة مجلّدات عظام، تزيدُ عدد صفحاته عن سبعة آلاف صفحة، فيه من بديع الشّعر وبليغ النّثر وصائب الحِكم وروائع القصص وغُرَر الأمثال، وأوابد المسائل اللغويّة ما الله به عليم.

وهذا كتابٌ – في عُرْف أهل العلم – يعجز الإنسانُ المتين عن حمله بَلْهَ أن يقوى على قراءته، ولا أكونُ مبالغا إذا قلتُ: إنّ حفظه من المستحيلات البشريّة، ولكنَّ الإبراهيميّ حفظه ووعاه كما قال عن نفسه في مقال عنوانه «أنا» عرّف فيه عن نفسه وأساليب دراسته وجانب من مسيرة حياته، ولا غرْوَ في ذلك ولا عجبَ، فنحنُ أمامَ رجُلٍ عَجَبٍ استثنائيّ لا يجودُ بمثله التّاريخ إلا بعد عصور ودهور.

رسّخه العليُّ القديرُ في ذاكرته المُتوقّدة وذهنه السّيّال، فكوّنَ لديه – إضافةً إلى حفظه للقرآن الكريم وعدد من كتب متون الحديث الشّريف وجملة وافرة من أشعار ودواوين العرب – خزينةَ الخزائن ومكنزَ الألفاظ والأساليب، ومُستودَعَ الفِكَر والحِكم، فاستبصر عقلُه، واستنارَ وجدانُه، وسال البيانُ الرّفيع البديع من قريحته، وفاض به قلمُهُ السّيّالُ فانطلق خطيبا مُبينا، ومُتكلّما مِصْقعا، وكاتبا بليغا، تُدْهِشُ العالمين فصاحتُه، وتُشرقُ في نفوس السّامعين والقارئين بلاغتُه، وأضحى رُكنَ العربيّة الرّكين، وأسَّها المتين بلا ريب ولا امتراء.



العلاّمةُ الشّيخُ البشير الإبراهيميّ

الإبراهيميّ والتّعليم:

أحبَّ التّعليم واحترفَهُ، واتّخذه سبيلا يُتاجِرُ فيه مع ربّه، وأعطاهُ كلّه، فنال كثيرا من ثمراته، فعلّم خَلْقًا كثيرا، ودرّسَ مُدَدًا طوالا، وشيّد مدارسَ لمَحْوِ الجهل، وبنى مساجد لتعليم الشّرع، ودُورًا لتنوير العقول وإصلاح المجتمع، ورفعَ منائرَ للثّقافة تأخذُ بأيدي الجزائريّين في فترة الاستدمار الظّالم إلى شواطئ العلوم وضِفاف المعارف.

ولو أنَّ إجماعًا لفظيّا وقع بين العلماء في المشارق والمغارب لأجْمَعَ المُثَقّفون ومَنْ هم على صلةٍ بتاريخ العلم والعلماء على صلاحه وإصلاحه، وسعة علمه، وتبحّره في علم العربيّة بدون منازع، وإجادة الإبانة والتّبيين بها بدون مُدافع، وأنّه إمامُها الذي به يُؤتسى، ورائدُها الذي به يُقتدى.

مُنشئُ دار الحديث ومُؤسِّسُها، وبانيها ومُشيّدُها، بالتّعاون مع صِنْوه وصديق دَرْبه، ورفيق عُمره، وقُدوته في النُّبل والفضل، وأسوته في العلم والتَّديُّن وحُبّ الجزائر، الشّيخِ العلاّمةِ عبد الحميد بن باديس، راعي النّهضة العلميّة الجزائريّة وقائدِها، وسراجِها المنير وحاملِ لواء شُعلتها.

دورُ جمعيّة العلماء في بناء صرح الأمّة:

التقيا في الرِّحاب المقدّسة: مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، فقدّس الله تعالى سِرَّهُما، وألقى المحبّة في قلوبهما، وقذفَ فيهما عزيمةَ النَّهضة والارتقاء بالأمّة الجزائريّة التي كانت تُعاني من أصفاد الاستدمار، وسلاسل الإفساد، وقيود الظُّلم الفرنسيّ، ففكَّرا وقَدَّرا، ثمّ فَكَّرا وقدّرا، ثمّ أبصرا واستبصرا، وقرّرا إنشاء «جمعية العُلماء المسلمين الجزائريّين» التي اغتدت منارةَ المنارات العلميّة، وجوهرة الهيئات التّعليميّة، ودُرَّةَ الجمعيّات الإرشاديّة، فخَرَّجت ألوفا مُؤلّفة من طلاّب العلم، بعثتهم من هُمود، وحرَّكتهم من جُمود، وأيْقَظَتْهُم من سُبات، وأحيت قلوبهم من موات، فاغتدى الشّعبُ الجزائريُّ بفضلها واعيا مُثقّفا مُدْرِكا لما يُحيطُ به، ولها يدينُ أهلُ الجزائر كلُّهم في بناء الفكر الحُرّ، والحِفاظ على ثوابت الهُويّة الوطنيّة، ونشر الفضيلة، وتشييد صُروح الأخلاق، وغرس بُذور الثّورة على الغاشم المُستبدّ، فكانت النّتيجةُ تفجيرَ الثَّورة الجزائريّة التي زحزحت عُروش فرنسا، وأذلّت كبرياءها، وقهرت عُنفوانها، وأسقطت أقاويلَها وافتراءاتها، وهزمت جيوشها، وساءت وجوه أبنائها وأذنابها.

في فترة معركة التّحرير الكبرى:

ولمّا أوقد الثّوّارُ الأحرارُ الثّورة

المباركة في الفاتح من نوفمبر عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف، كان من أوائل مَنْ باركها وثمَّنها، وسقى فسيلتها، ورعاها في الدّاخل والخارج، حيث كلّفته قياداتُها بتمثيل الثَّورة وجَلْب التَّأييد لها في المحافل الدّوليّة والمنابر الخارجيّة فاغتدى خطيبَها القوّال، ولسانَها الفصيح ببيانه المُشرق، وأسلوبه الرّائع، ولفظه الجزل، وبديع نظمه وقوله.

في رحاب مجمع الخالدين:

ونظرًا لقضائه رِدْحا من الزّمن في أرض الكنانة، مُنافحا عن ثورة التّحرير، مُبَيّنا للنّاس أهمّيَّتَها، جامعا لها التّأييد والمال، مُشجّعا أبناءَ الجزائر من طلاب العلم للانخراط في صفوفها، فإنّ صيته ذاع، وسمعته تضوّع عبيرها، وخبَرَ فصاحته انتشر، ونبأ بيانه وعلمه بالعربيّة سارت به الرُّكبانُ إلى مجمع الخالدين فلم يتردَّدْ جهابذته أن اختاروه عضوا في مجمعهم العتيق.

وفي حفل عظيم جميل، أقامه مجمعُ القاهرة ترحيبًا بالأعضاء الجُدد، اختاره رفقاؤه لإلقاء كلمة في جموع الُّلغويين، فارتجل كلمة قال فيها:

ولو أنَّ إجماعًا لفظيّا وقع بين العلماء في المشارق والمغارب لأجْمعَ المُثَقّفون ومَنْ هم على صلةٍ بتاريخ العلم والعلماء على صلاحه وإصلاحه، وسعة علمه، وتبحّره في علم العربيّة بدون منازع، وإجادة الإبانة والتّبيين بها بدون مُدافع

أيُّها الإخوةُ الكرام،

حيّاكم الله وبيّاكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعُروبة تصونون عِرْضَها، وتَسْتَرِدُّونَ قَرْضَها، ولِلُغة العرب تجمعون شتاتَها، وتُحيون مواتها، وتَرْعَوْنَ- على تجهُّم الأحداث، وسَفَهِ الوُرّاث - متاتَها، ولهذا المجمع تُعلون بُنيانه، وترفعون على العمل النافع أركانه.

أيُّها الإخوة، إنَّ هذه اللّغة العربيّة الشَّريفة التي طرَقَنا خيالُها المُؤَوِّبُ، ثم أَسْمَعَنا داعيها المُثَوِّبُ، فاجتمعنا على بِساطها اليومَ من جميع أقطار العُروبة، هي الرَّحِمُ الواصلةُ بيننا، وهي الُّلحمةُ الجامعةُ لخصائصنا وآدابنا، فمِنْ بعض حقِّها علينا أن نَبُلَّها بِبَلالها، وأن نرعى حقَّها في كلّ منسوب إليها، كما أنَّ من بعض حقِّها علينا أنْ نَخِفَّ لنَجْدَتِها، كلَّما مسَّها ضُرٌّ أو حزَبها أَمْرٌ، وإنَّ ما قُمْتُمْ به اليومَ من هذا الاستقبال المُتَهلِّل، واللّقاء المُرَحِّب المُؤَهِّل، بإخوانكم أعضاء المجمع الجُدُد، هو فنٌّ جميلٌ من البِرِّ بالعربيّة في أبنائها، يُرْضي الله الذي اصطفاها ترجُمانًا لوَحْيِه، ويُرضي محمّدًا - صلّى الله عليه وسلّم - الذي أدّى بها أمانة الله، وبلَّغ بها رسالته إلى خلقه، ويُرْضي يَعْرُبَ ونِزارًا اللَّذَيْنِ سكبا بها التَّغاريدَ العذبةَ الجميلةَ في آذان الأجيال، وتركاها كلمةً باقيةً في الأعْقاب، ويُرْضي أسلافَكم الذين ساسُوا بها العُقول، وصقلوا بها الأذهانَ والقرائح، وراضوا على بيانها الألسنة، ودوَّنُوا بها العِلْمَ والحكمة، وخطُّوا بها التّاريخ، وشادُوا بها الحضارةَ الشّمّاء التي لا تُطاوَلُ، ووسَّعوا بها آفاقَ الخيال العربيّ، ورقَّقُوا ببيانها العواطفَ الكثيفة، وحَدَوْا بها رَكْبَ الإنسانيّة حينًا فأطربوا.



هذه خطبةٌ مُرتَجلةٌ من رائق خُطَبِه، وجزيل كَلِمِه، وعِزّةِ الله لو أنَّ أيَّ مُتذوّق للبيان الحسن الجميل، استمع إلى جميع ما قال، وقرأ جميع ما كتب، فإنّه لا يزداد إلا تعجُّبًا من قريحة هذا العبقريّ الألمعيّ، ولصدَّقَ مقولة النّقّاد القديمة بأنّه يغرفُ من بحر، وينحتُ من صخر.

الإبراهيميّ والشّعر:

والإمامُ الإبراهيميّ شاعرٌ مُفلِقٌ ورجّازٌ متأنّقٌ، إذا دعا الشّعر أطاعه، وإذا استنطقه أجابه، ولم تكنْ له عنايةٌ بجمع أشعاره، وإنّما يرتجلُها عندما تقتضي المواقف، وكان كثير التّهكّم، صاحبَ نُكتة حاضرة وبديهةٍ لطيفة، مُخيّلتُهُ حافظةٌ للعجيب من نـوادر العرب ولطائف قصصهم المُضحكة المُبكية، يُمثّلُ بها في المواضع التي تقتضي الإدلاء بها. كما عُرِفَ بهجائه المُقذِع، وهُزئه القاسي بأنصار الطّرُقيّة الذين عطّلوا عقولَهم، وغمسوها في لُجج الأساطير والخُرافات.

الإبراهيميّ المُصلحُ الوطنيّ:

النَّفسُ الأبيّةُ تأبى المسكنةَ والهوان، والفِكرُ الحُرُّ يرفضُ الذّلّ والخَسف، وقد عُرِفَ عن الإبراهيميّ، منذ نشأته الأولى، شنآنُهُ لفرنسا عَدُوّة الإنسانيّة، التي أذاقت على بساط قرن وثلاثين سنة الشّعبَ الجزائريّ ألوانَ التّعذيب وأصنافَ الظّلم والعُدوان، ولكنَّ الشّعب الجزائريّ الأبيّ لَمْ يُرِها لحظةً من زمن وَجْهَ الرّضا، وإنّما

> **العلمُ يُخيفُ الأعداء أكثرَ من السّلاح، من هنا عزمَ الإبراهيميّ على سلوك هذه السّبيل النّيّرة، وفِعْلاً وفّقهُ الله تعالى إلى تشييد مدارس وإنشاء معاهد كوّنت أجيالاً من الطّلاب الأحرار**

توالت الأجيالُ في هذه الفترة الحالكة تُحاربُ الاستدمار الظالم بما تملك، والإبراهيميّ كان يملك سلاح الثقافة الفتّاك، وسيوف الفكر القواطع، فحاربها بها، يُعلّمُ هنا وهناك، مُؤسّسا المدارس، ومُشيّدا المعاهد العلميّة؛ لأنّه علِمَ وأدرك واستيقنَ هو ورفقاؤه في الجمعيّة وفي مقدّمتهم الإمام عبد الحميد بن باديس أنّه لا مجال لدَحْر فرنسا وطَرْدها من ديار الإسلام إلا بتكوين جيوشٍ من العلماء المفكّرين الحافظين للقرآن الكريم، المُحافظين على أحكام الشّريعة الغرّاء، المُلتزمين بمبادئ العدل والقيم الإنسانيّة الفاضلة.

كان الإبراهيميّ إذا زأر في ميدان الأدب، فإنّه يُخَيَّلُ إليك أنّك أمام ضرغام البيان يتكلّم، وإذا اتّخذ موقفا وطنيّا وإصلاحيّا، فكأنّك أمام هزبر السّياسة والإصلاح يتحدّث.

العلمُ يُخيفُ الأعـداء أكثَرَ من السّلاح، من هنا عزمَ الإبراهيميّ على سلوك هذه السّبيل النّيّرة، وفِعْلاً وفّقهُ الله تعالى إلى تشييد مدارس وإنشاء معاهد كوّنت أجيالا من الطّلاب الأحـــرار، وكتب اسمه في سجلّ المُصلحين الاجتماعيين والوطنيّين المخلصين.



> إنَّ الإمامَ الإبراهيميّ هو جُمْلةٌ من المزايا الإنسانيّة والخصال البشريّة العالية اجتمعت في رجل واحد.

ونظرا لمواقفه ضد الاستدمار الفرنسيّ، رأت فيه فرنسا عَدُوَّها اللّدود، وبغيضها الأشنأ، فراحت تدبّر له المكايد، وتذيقه أصناف الحرمان والتّعذيب والسّجن في معتقلاتها الجهنّميّة، فما زاده ذلك إلا استمساكا بعقيدته، وثباتا في دينه، وفناءً في وطنيّته.

ولمّا شاء الله تعالى أن تقوم الثورة التّحريريّة الكبرى، فإنّ المناخ العامّ لدى أغلب الشعب الجزائريّ كان مناسبا لنشأتها بل مُواتيا لاحتضانها واستمرارها والحفاظ على شعلتها المتّقدة إلى أن وفّق الله تعالى للحرّيّة بعدما دفع الشّعب من أفلاذ كبده الملايين.

وخلاصة القول، فإنَّ الإمامَ الإبراهيميّ هو جُمْلةٌ من المزايا الإنسانيّة والخصال البشريّة العالية اجتمعت في رجل واحد: هو في العربيّة مُحيطُها الأعظم، وقاموسُها الأعمق، وفي الخطابة فارسُها الأسبق، وكَمِيُّها الأشجع، وفي ميدان الإصلاح وتدبير شؤون الأمّة هو مُصلحُها الأنصح، وعُذَيقُها المُرَجَّبُ، وفي ميدان حرب فرنسا هو سياسيُّها المُحنّك، وجُذيلُها المُحَكّك، وقد ملأ حياته نضالا وجهادا وتعليما وإصلاحا، وقد أتعب من أتى بعده من رجالات العلم وأعلام الإصلاح، وكفى بآثاره وخُطبه ومحاضراته التي تقعُ في خمسة أسفار كبار شواهد على صنيعه في بناء أبناء الجيل، ومنافحة فرنسا، ومكافحة شرورها، وغرس فسائل العربيّة، وتوطيد أركان الإسلام في نفوس أبناء الجزائر على وجه الخصوص، وتحفيز أبناء العروبة والإسلام بشكل عام.

> ملأ الإمامَ الإبراهيميّ حياته نضالاً وجهادًا وتعليمًا وإصلاحًا، وقد أتعب من أتى بعده من رجالات العلم وأعلام الإصلاح.

وبعد أن أشرقت شمسُ الحُريّة بسماء الجزائر الأبيّة، لم يتنفّس هواء الحريّة الذي كان ينشدُه، ونسيم العدالة التي كان يبغيها، وإنّما واجهه المغرضون أصحابُ الشّهوات وطلّاب الملذّات وأصحابُ المواقف الدّنيّة من أذناب الاستدمار، واجهوه بالتّهميش والإقصاء والعَزل إلى أن وصل بهم الأمر إلى زجّه في براثن الإقامة الجَبريّة في معتقلات الحكم الجزائريّ الحرّ في ظاهره، التّابع لفرنسا في باطنه، فذاق الويلات من بني جلدته، وعانى الأمرّين ممّن كان يرجو لهم الخير من أبناء أمّته.

وظلمُ ذوي القُربى أشدّ مضاضة
على المرء مِنْ وَقْع الحُسام المُهنّد

الأَخْفَشُ الأكبَرُ... شَيْخُ العربيّةِ وشَيْخُ سِيبَويه

اهتمَّ العربُ بعلْمِ الطّبقاتِ والرِّجالِ، وخصّصُوا لذلك كُتبًا كثيرةً عُرفتْ بكُتبِ الطّبقاتِ والرّجالِ وذلك في شتّى ميادينِ العلومِ العربيّةِ: في التّفسيرِ، والحديثِ، واللّغةِ، والنّحوِ، والأدبِ، والشّعرِ، وغيرِها... وأفردتْ كتبُ التّاريخِ والوفيّاتِ التّرجماتِ العديدةَ لمن أسهمُوا في صرحِ الحضارةِ العربيّةِ والإسلاميّةِ. ومن بينِ مَن اهتمَّ العربُ بالتّرجمةِ لهم ولحياتِهم "النّحاةُ وعلماءُ اللّغةِ"، فقد وضعَ النّحاةُ النّحوَ ليكونَ الوعاءَ الحافظَ والدّرعَ الواقيَ للعربيّةِ لغةِ القرآنِ الكريمِ، يردُّ عنها كلَّ لحْنٍ ويدفعُ عنها كلَّ شُبهةٍ، ولا شكَّ في أنّ اهتمامَهم بالنّحوِ كان دافعًا لأن يهتمُّوا بالنُّحاةِ؛ فهم أصحابُ هذا البناءِ العظيمِ، ومُشيّدُو صرحِه العليِّ.

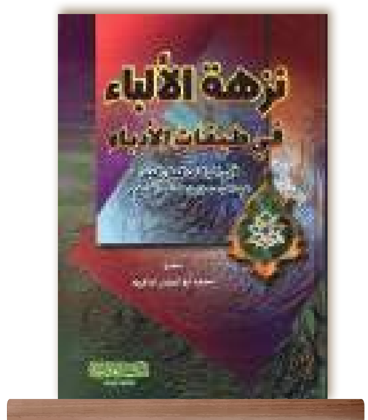


د. عمرو جمعة
باحث في اللغويات التطبيقية

ومنَ النُّحاة العربِ الذين تُرجمَ لهم؛ الأخفشُ الأكبرُ، شيخُ العربيّةِ كما لقّبته هذه الكتبُ، وأحدُ شيوخِ سِيَبويه. ويحاولُ هذا المقالُ التّعريفَ به وببعض آرائِه العلميّةِ، من خلال ما وَسعني مِنِ المصادرِ والمراجعِ التي ترجمتْ لهذه الشّخصيّةِ، على قلّةِ ما ذُكر فيها حولَ الأخفشِ الأكبرِ.

التّعريفُ به:

هو عبدُ الحميدِ بنُ عبدِ المجيد (ويقال ابنُ عبدِ الحميد)(1)، أبو الخطّابِ، البصريُّ، النّحويُّ، مولى قيسِ بنِ ثعلبةَ، من أهلِ هجر، لقّب بالأخفشِ الأكبرِ أوِ الكبيرِ؛ تفريقًا له عنِ الأخفشَين الأوسطِ والصّغيرِ(2).



حياتُه ووفاتُه:

عاش الأخفشُ الأكبرُ إبّـانَ القرنِ الثّاني الهجريِّ، واختلفَ المؤرّخون في سنة وفاتِه حيث أوردَ ابن خلّكان (ت 681 ه) ترجمتَه أثناءَ ترجمتِه للأخفشَيْن الأوسـطِ والصّغيرِ، وعلّقَ على ذلك قائلًا: "ولم أظفرْ له بوفاةٍ حتى أُفردَ له ترجمةً»(3)، ولم يقع الذهبي (ت 748 ه) على تاريخ وفاتِه كما ذكرَ في كتابهِ (سير أعلام النبلاء)(4)، ولكنَّ ابنَ تغري بردي (ت 874 ه) ذكرَه في وفيات سنة سبعٍ وسبعين ومائةٍ، ثم قال: "وقيلَ في غيرِها"(5)، وردّدَ ابنُ العمادِ الحنبليِّ (ت 1089 ه) ما قاله القدماءُ عنه فقال: "هو مجهولُ الوفاةِ"(6)، وذكرَ الزّركلي من المُحدثين أنَّ تاريخ وفاتِه عام سبعةٍ وسبعين ومائةٍ منَ الهجرة الموافق لعام ثلاثةٍ وتسعين وسبعمائة منَ الميلاد(7).

شيوخُه وطبقتُه:

كان الأخفشُ الأكبرُ إمامًا في العربيّةِ قديمًا، لقيَ الأعرابَ وأخذَ عنهم، وعن أبي

عمرٍو وطبقتِه(8)، وسجّلَه الزّبيدي (ت 379 هـ) في الطّبقة الرّابعةِ منَ البصريّين لتلمذتِه على أبي عمرٍو وطبقتِه(9)، وفي ذلك نقلَ السّيوطيُّ (ت 911 هـ) عنِ الخليل قولَه: "وأخذَ العلمَ عن أبي عمرٍو جماعةٌ؛ منهم عيسى بنُ عمر الثّقفيّ... ويونسُ بنُ حبيبٍ الضّبّي... وأبو الخطّاب الأخفشُ، فكان هؤلاء الثّلاثةُ أعلمَ النّاسِ وأفصحَهم"(10).

وممّا ذكرَه السّيوطيُّ أنَّ الأخفشَ قال: أنشدتُ أبا عمرو بنِ العلاء:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَا لَهُ
قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهْ

فقال أبو عمرو: كبرت عليكَ رأسُ الرّاء فظننتَها واوًا (يقصد أنها سَرَاتُهُ)، قلت: وما سَرَاتُهُ؟ قال: سراةُ البيتِ ظهرُه، قال الأخفشُ: ما هو إلّا شواتُه؛ ولكنّه لم يسمعْها(11).

وذكرَ صاحبُ خزانةِ الأدبِ أنَّ من شيوخِه عبدَ الله بنَ أبي إسحاقَ، ويظهرُ ذلك في قوله: "وكان أبو عمرو بنُ العلاء قد أخذ النّحوَ عن عبدِ الله بنِ أبي إسحاق ومن أصحاب عبدِ الله الذين أخذوا عنه النّحوَ عيسى بنُ عمرَ ويونسُ بنُ حبيبٍ وأبو الخطّابِ الأخفشُ"(12)، وذكر طلالُ علامة أنَّ عبدَ الله بن أبي إسحاقَ هو أستاذُ أبي عمرو بنِ العلاء وعيسى بنِ عُمرَ والأخفشِ(13). وكذلك ذكرَ القفطيُّ أنّه في طبقة عيسى بنِ عُمر ويونسَ(14).

تلامذتُه:

لا يكادُ يُذكرُ الأخفشُ الأكبرُ في كتبِ التّراجمِ إلّا ويُذكرُ معه تلميذُه سِيبَويه، حتى تكادُ كتبُ التّراجم أن تُبالغَ في ذلك فتتذكرَ أنّه لولا سِيبَويه لَما اشتهرَ الأخفشُ الأكبرُ، وذكرَ ابنُ النّديم أنّ سِيبَويه أخذَ اللُّغاتِ عن أبي الخطّابِ(15)، فقد روى سِيبَويه عنه سبعًا وأربعين مرّةً في كتابه، وكلُّ ما يَروي عنه نصوصٌ ومفرداتٌ(16).

> **لا يكادُ يُذكرُ الأخفشُ الأكبرُ في كتبِ التّراجم إلّا ويُذكرُ معه تلميذُه سِيبَويه، حتى تكادُ كتبُ التّراجم أن تُبالغَ في ذلك فتتذكرَ أنّه لولا سِيبَويه لَما اشتهرَ الأخفشُ الأكبرُ**

وقدِ اختلفتْ صِيغُ نقلِ سِيبَويه عن أستاذِه الأخفشِ الأكبرِ ما بين قولِه: (حدّثنا، وحدّثني، وزعمَ، وسألتُه، وقال، وتصديقُ ذلك، والحجّةُ على كذا). وممّا يرويه عنه سِيبَويه في كتابه: "حدّثنا أبو الخطّابِ أنّه سمع منَ العرب من يقال له: إليكَ. فيقول: إليّ"(17). وذكرَ سِيبَويه أنّه سألَه غيرَ مرّةٍ أنَّ ناسًا منَ العرب يوثقُ بعربيّتِهم وهم بنو سُلَيم يجعلون بابَ (قلت) أجمعَ مثلَ (ظننت)(18).

وممّن تلمذَ له أيضًا الكسائيُّ وأبو عبيدةَ(19)، وثمّةَ روايةٌ تتناقلُها كتبُ النّحوِ يقولُ فيها أبو عبيدةَ: "سألتُ أبا الخطّابِ الأخفشَ: هل تُجمعُ اليدُ الجارحةُ على (أيادي)؟ فقال: نعم. ثمّ سألتُ أبا عمرو بنَ العلاء فأنكرَ ذلك، فقلت لأبي الخطّابِ: إنَّ أبا عمرو قد أنكرَ ما أثْبتَّه. فقال: أوَ ما سمعَ قولَ عدي:

سَاءَهَا مَا تَأَمَّلَتْ فِي أَيَادِينَا
وَإِشْنَاقَهَا إِلَى الأَعْنَاقِ







ثمَّ قال: هي في علْمِ الشّيخِ، لكنّه أُنْسيه(20).

كما أخذَ عنه يونسُ، وأخذَ عنه عيسى بنُ عمرَ النّحويُّ(21). وذكرَ السّيوطيُّ أنَّ محمّدًا أبا عبد الله بنَ محمّدٍ التّوجي (ويقال التّوزي) وأبا عليّ الجرمازيَّ، وأبا عمرَ صالحَ بنَ إسحاق الجرميَّ؛ كانوا يأخذون عن أبي عبيدةَ وأبي زيدٍ والأصمعيِّ والأخفشِ(22).

أقوالُ العلماءِ فيه:

أشارت كتبُ التّراجمِ إلى تقدّمِ الأخفشِ الأكبرِ وأسبقيّتِه في تشْييدِ بناءِ النّحوِ العربيِّ، حيث لقّبه المؤرخون بشيخِ العربيّةِ(23)، وقال عنه ابنُ الأنباري (ت 577 هـ): "كان من أكابرِ علماءِ العربيّةِ ومُتقدّمِيها"(24)، أمّا السّيوطيُّ فنقلَ أنّه كان إمامًا في العربيّةِ قديمًا وأنّه كان ديِّنًا ورعًا ثقةً(25).

وقد ركّزت كتبُ التّراجمِ على الجانبِ النّحويِّ واللُّغويِّ في شخصيّةِ الأخفشِ الأكبرِ، حيث قال عنه القفطيّ (ت 646 هـ): "هو من أئمّةِ اللُّغةِ والنّحو"(26)، وأشار صاحبُ وفياتِ الأعيان (ت 681 هـ) إلى أنّه كان نحويًّا لُغويًّا(27)، ووصفَه صاحبُ إشارةِ التّعيين (ت 743 هـ) بأنّه أحدُ الأئمّةِ الكبارِ في النّحوِ واللّغةِ(28). وحين تحدّثَ صاحبُ البُلغةِ (ت 718 هـ) عنه قال: "الإمامُ الحجّةُ في النّحوِ واللّغةِ"(29).

ويُلحظُ من هذه النّصوصِ جميعِها ظهورُ الجانبِ اللّغويِّ عندَ الأخفشِ ومدَى ارتباطِه الوثيقِ بالجانبِ النّحويِّ لديْه، ويكادُ يتّضحُ ذلك من خلال نقولِ سِيبَويه عنه التي كانت في معظمِها نصوصًا ومفرداتٍ(30).

> **أشارت كتبُ التّراجم إلى تقدّمِ الأخفشِ الأكبرِ وأسبقيّتِه في تشْييدِ بناءِ النّحوِ العربيِّ، حيث لقّبه المؤرخون بشيخِ العربيّةِ**

الدّرسُ اللّغويُّ عندَ الأخْفَش:

يمكنُنا أن نمثّلَ للدّرسِ اللُّغويِّ عندَ الأخفشِ الأكبرِ بقضايَا ثلاثٍ؛ القضيّةُ الأُولى: ثراءُ الجانبِ اللّغويِّ عنِ الجانبِ النّحويِّ عنده؛ فقد لوحظَ من استقراءِ كتبِ التّاريخِ والتّراجمِ مدى ارتباطِه بالجانبِ اللُّغويِّ من خلال وصْفِه بالنّحويِّ اللُّغويِّ ومن خلال أخذَ سِيبَويه اللّغةَ عنه(31)، ولقد لاحظَ الزّركليُّ ذلك فقال: "وهذا أيضًا ما تُزوّدُنا به المطالعةُ في مدَى استفادةِ سِيبَويه اللّغويّةِ في الكتابِ منَ الأخفشِ الأكبرِ"(32).

القضيّةُ الثّانيةُ: تفسيرُ أبي الخطّابِ للشّعرِ، فقد كان أوّلَ من فسّرَ الشّعرَ تحت كلِّ بيتٍ منه وما كان النّاسُ يَعرفون ذلك قبْلَه وإنّما كانوا إذا فرغُوا منَ القصيدة فسّرُوها(33). وذكرَ طلالُ علامة أنَّ هذا يُعدُّ تطوّرًا في دراسةِ النّحوِ على يد الأخفشِ من خلال شرحِ الأبياتِ للاستشهادِ بها(34).

القضيّةُ الثّالثةُ: انفرادُ الأخفشِ الأكبرِ بنقلِ بعضِ الألفاظِ عنِ العرب(35). ومن أمثلة ما انفردَ بنقلِه ما ذكرَه السّيوطيُّ في المُزهر - بابُ معرفةِ الأفرادِ - (ناقلًا عن صاحبِ الجَمهرةِ): "الجُثُّ: ما ارتفعَ منَ الأرض حتى يكونَ له شخصٌ، مثلُ الأُكيمةِ الصّغيرةِ



ونحوها، قال الشّاعرُ: وأَوْفَى عَلَى جُثٍّ، ولِلَّيْلِ طُرَّةٌ ... عَلَى الأُفْقِ، لَمْ يَهْتِكْ جَوانِبَها الفَجْرُ

قال (أي صاحبُ الجمهرة): وأحسبُ أنَّ جثّةَ الإنسانِ من هذا اشتقاقُها، وقال قومٌ من أهلِ اللّغة: لا تُسمّى جثّةً إلّا أن يكونَ قاعدًا أو نائمًا، فأمّا القائمُ فلا يقالُ: جثّتُه، إنّما يقال: قمّتُه، وزعمُوا أنَّ أبا الخطابِ الأخفشَ كان يقول: لا أقولُ جثّةَ الرّجلِ إلّا لشخصِه على سَرْجٍ أو رَحْلٍ ويكونُ معتمًّا(36)».

وحكى ابنُ دُريدٍ عن أبي الخطابِ الأخفشِ أنّه قال: "الخَفْخُوف: طائرٌ". قال ابنُ دُريد: "وما أدري صحّتَه، ولم يذكرْه أحدٌ من أصحابنا غيرُه"(37).

والمتأمّلُ في هذه القضايا اللّغويّةِ التي نقلتْها بعضُ المصادرِ عن أبي الخطّابِ الأخفشِ يجدُ أنّها تدورُ في فلك اللّغةِ وشُروحِ الغريبِ، وهو ما يرجّحُ أنَّ اللّغةَ كانتِ الجانبَ الذي أخذَه سِيبَويه عنه.

الهوامش:

(1) تاريخ العلماء النحويين: القاضي أبو المحاسن المفضل بن محمد المعري – تحقيق عبد الفتاح الحلو، ص 138، 139، د.ط، المملكة العربية السعودية – 1981.

(2) ذكر السيوطي في {البغية} ما نصه أنه أحد الأخافشة الثلاثة المشهورين. وذكر في { المزهر } أن الأخفش أحد عشر نحويا أحدهم الأخفش الأكبر.
راجع: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مجلد 2، ص 74، دار الفكر، ط 2، 1979. المزهر: السيوطي – تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك، علي محمد البجاوي، محمد أبي الفضل إبراهيم 2 / 453 – 454، دار التراث، ط. 3، د. ت.
انظر ترجمته في:
1 – إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين – عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني – تحقيق د / عبد المجيد دياب، ص 178
د. ط، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
2 – إنباه الرواة في أنباه النحاة – جمال الدين القفطي – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، 2 / 157، 158، دار الفكر العربي، ط. 1، 1986.
3 – البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة – الفيروزبادي – تحقيق محمد المصري، ص 130، جمعية إحياء التراث
الإسلامي، مركز المخطوطات والتراث، ط. 1، 1987 الكويت.
4 – سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، علي أبي زيد، 7 / 323،الرسالة، ط.4، 1986
5 – شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، 2 / 36، المجلد الأول، دار الفكر، ط. 1، 1979.
6 – طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ص 35، الخانجي ط. 1، 1954.

(3) راجع وفيات الأعيان 2 / 380، 3 / 301.

(4) سير أعلام النبلاء 7 / 323.

(5) النجوم الزاهرة 2 / 111.

(6) شذرات الذهب 2 / 36.

(7) الأعلام: الزركلي – دار العلم للملايين، 3 / 288، ط.10، 1992.

(8) بغية الوعاة 2 / 74.

(9) تطور النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة – طلال علامة – 138، دار الفكر اللبناني بيروت ط. 1، 1993، راجع طبقات النحويين اللغويين ص 35.

(10) المزهر 2 / 399.

(11) المزهر 2 / 360، 361، 363.

(12) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، 1 / 237، الخانجي ط. 2.

(13) تطور النحو العربي، ص 134.

(14) إنباه الرواة، ص 157، 158.

(15) الفهرست ابن النديم، تحقيق إبراهيم رمضان، ص 74، دار المعرفة بيروت، ط. 1، 1994.

(16) راجع سيبويه إمام النحاة: علي النجدي ناصف، ص 90، 91، نهضة مصر، د. ط، د. ت.

(17) الكتاب: سيبويه – تحقيق عبد السلام هارون، 1 / 249، 250. الخانجي، د. ط، 1982.

(18) راجع الكتاب – 1 / 124.

(19) راجع تاريخ العلماء النحويين ص 138، 139، شذرات الذهب 2 / 36، إشارة التعيين ص 178.

(20) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات بن الأنباري – تحقيق إبراهيم السامرائي، ص 44، دار المنار.الأردن، ط. 3، 1985، وإشارة التعيين ص 178، وخزانة الأدب 480، 481، والبلغة 130، ومجالس العلماء: الزجاجي – تحقيق عبد السلام هارون، ص 124، الخانجي، ط. 2، 1983.

(21) راجع وفيات الأعيان 2 / 380، 3 / 301، 3 / 463. والفهرست: ابن النديم – تحقيق إبراهيم رمضان، ص 74، دار المعرفة – بيروت، ط. 1، 1994.

(22) المزهر 2 / 407، 408.

(23) راجع النجوم الزاهرة 2 / 111، سير أعلام النبلاء 7 / 323.

(24) نزهة الألباء، ص 44.

(25) بغية الوعاة – 2 / 74 بتصرف.

(26) راجع إنباه الرواة – 2 / 157، 158.

(27) وفيات الأعيان – 3 / 301.

(28) إشارة التعيين – 178.

(29) البلغة – 130.

(30) راجع سيبويه إمام النحاة، 90، 91.

(31) راجع " تلامذته، وأقوال العلماء فيه ".

(32) الأعلام 3 / 288.

(33) بغية الوعاة – 2 / 74، مسالك الأبصار (مخطوط مصور) السفر السابع ص 56، 57.

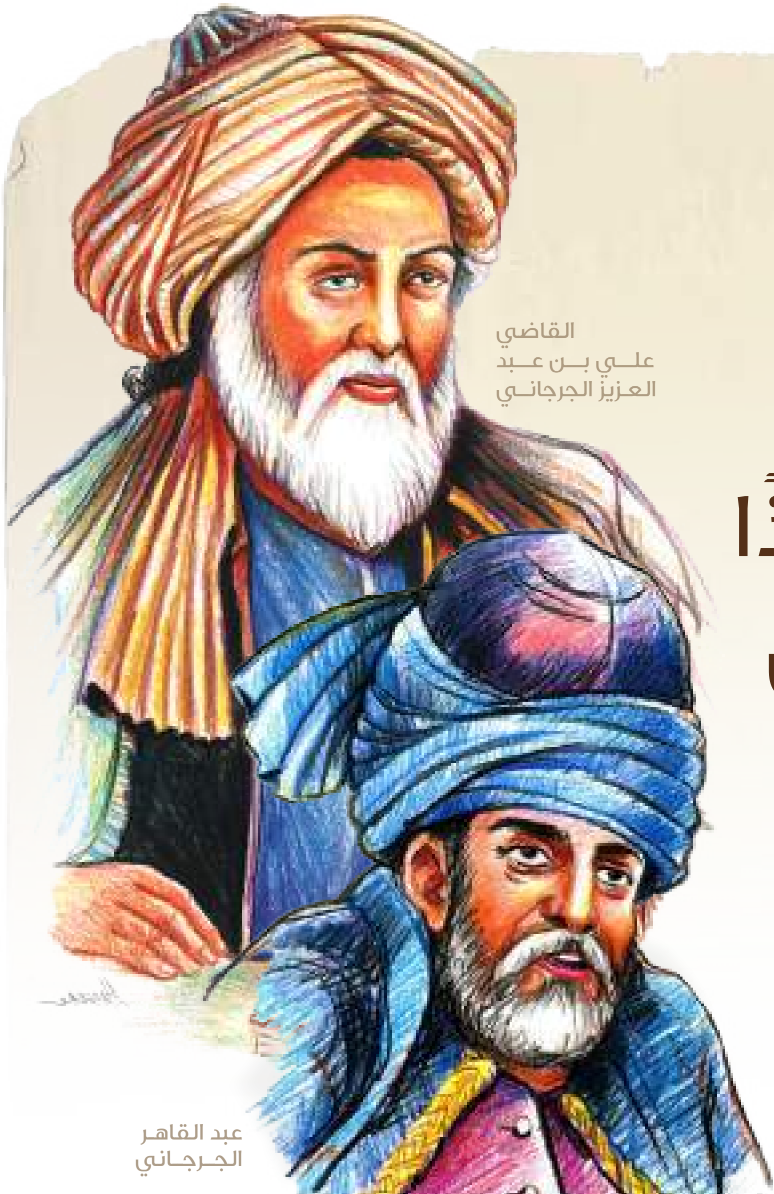
(34) راجع تطور النحو العربي، 139.

(35) راجع إنباه الرواة – 2 / 157، 158، سير أعلام النبلاء 7 / 323، النجوم الزاهرة – 2 / 111، وفيات الأعيان 3 /301.

(36) المزهر، 1 / 131، راجع جمهرة اللغة، ابن دريد، 1 / 44، باب حرف الثاء – ث ث ج، دار صادر بيروت.

(37) راجع البلغة 130، طبقات النحويين واللغويين ص 35، المزهر – 1 / 131.

هل كان عبدُ القاهرِ الجُرجانيُّ تلميذًا للقاضِي عليّ بنِ عبدِ العزيز الجُرجانيِّ؟



القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني

عبد القاهر الجرجاني



د. سيد أحمد إيخو
جامعة سيدي بلعباس/الجزائر

في بعضِ مُطالعاتي الأدبيّةِ، وقعَ نظرِي على خبرٍ أوردَه بعضُ المحقّقِين الكبارِ في القرنِ العشرين؛ مُفادُه أنَّ الشّيخَ عبدَ القاهر الجُرجانيَّ صاحبَ (دلائلُ الإعجاز) و(أسرارُ البلاغةِ) كان تلميذًا للقاضي أبي الحسنِ عليّ بنِ عبد العزيز الجُرجانيِّ، صاحبِ (الوساطةُ بين المتنبّي وخصومِه)، وقدِ انقدحَ في ذهني مباشرةً أنَّ هذه التّلمذةَ تكادُ تكونُ مستحيلةً بسببِ سنَتَي الوفاةِ لكلا الرّجلَيْن.

ومن عادتي أنّني أهتمُّ بسنواتِ وفياتِ الأعلامِ دونَ أن أتقصَّد إلى ذلك، بل لمجرّدِ قراءتِها وتَكرارِ مرورِها على الذّهنِ، ويضافُ إلى ذلك أنَّ بحثي لشهادةِ اللّيسانس كان عن (نظريةِ النّظمِ عند عبدِ القاهر الجُرجانيِّ) وهو يكادُ يكونُ أديبًا عصاميًا لا يَذكرُ له المؤرّخون إلاّ شيخًا واحدًا هو ابنُ أختِ الفارسيّ.


ياقوت الحموي

إنَّ بـابَ الخطأ والغلطِ واردٌ على جميع البشرِ، لا يسلمُ منه أحدٌ، وإنّما أردتُ التّنبيهَ، لكي لا يستريحَ الباحثون إلى مجرّدِ النّقلِ عنِ السّابقين دون تثبّتٍ وتمحيصٍ، مهما بلغتِ الثّقةُ بهم وبنقولِهم

ولكنّي لم أُردْ أن أسارعَ في تخطئةِ العلماءِ، خاصّةً أنَّ هذا الخبرَ أعني تلمذةَ عبدِ القاهر على القاضي الجُرجانيّ، تواردَ عليه ثلاثةٌ من فحول العلماءِ ومن كبارِ الأدباءِ والمحقّقين في هذا العصر؛ وهم:

* الأستاذُ عبدُ الرحمن البرقوقي شارحُ (ديوان المتنبّي) وصاحبُ (مجلة البيانِ).
- الأستاذُ عبدُ العزيز الميمني، المحقّقُ الهنديّ الجوّالُ
* الأستاذُ محمود شاكر محقّقُ كُتُبِ عبدِ القاهر الجُرجانيّ.

أولاً: أوردَ البرقوقيّ في مقدّمتِه على شرح ديوانِ المتنبّي ترجمةً للقاضي الجُرجانيّ جاء فيها: «وكان الشّيخُ عبدُ القاهر الجرجانيُّ قد قرأَ عليه واغترفَ من بحرِه، وكان إذا ذكرَه في كُتبِه تبخبخَ به وشمخَ بأنفِه بالانتماءِ إليه»(1).

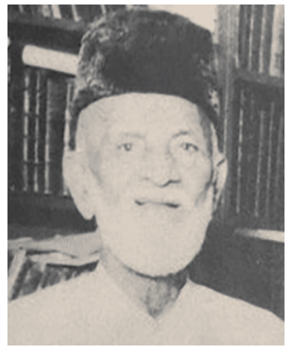
ثانيًا: جاء في كتابِ (الطّرائف الأدبيّةُ) الذي جمعَه وحقّقَه الأستاذُ الميمني، في الجزءِ الخاصِّ باختيار عبدِ القاهر الجُرجانيّ من دواوين المتنبّي والبُحتري وأبي تمّام، قولُه في مقدّمتِه: «وكان الشّيخُ عبدُ القاهر تلميذُ القاضي أبي الحسن عليّ بن عبد العزيز الجُرجانيّ صاحبَ الوساطةِ وبلدِيّه وخِصِّيصَه. قال ياقوتٌ في ترجمة القاضي إنَّ الشّيخ قد قرأَ عليه واغترفَ من بحرِه، وكان إذا ذكرَه في كُتبه تبخبخَ به وشمخَ بأنفِه بالانتماءِ إليه، وترى مثلَه بطُرّة بيتٍ لأبي تمام (جدير... وهو صادي) في اختيارنا هذا»(2).


الإمام الذهبي

وبالعودةِ إلى البيتِ المشارِ إليه، نجدُه يعيدُ الكرّةَ بعد أن ذكرَ بيتًا للقاضي، حيث قال: «والقاضي أبو الحسن كان شيخَ عبدِ القاهر وبه كان يتبجّحُ»(3).

ثالثًا: حين ذكره عبدُ القاهر في كتابه (أسرارُ البلاغة) بكُنيتِه، فقال: قال الشّيخُ أبو الحسن: وهذا من قول


العلّامة محمود شاكر


عبد العزيز الميمني


عبد الرحمن البرقوقي


أبو الطّيب المتنبي

النّسّابةِ البكريِّ لرُؤبةَ بنِ العجّاج لما أتاه فقال لرؤبةَ: قَصُرْتَ وعُرِفت.

فعلّق الشّيخُ محمودُ شاكر في الهامش: هو القاضي الجُرجانيُّ عليّ بنُ عبد العزيز صاحبُ (الوساطة) وهو شيخُ عبدِ القاهر يتبجّحُ بذكرِه والأخذِ عنه (4).

وحين قال عبدُ القاهر: وأنشدَ شيخُنا رحمه الله مع هذا البيتِ قولَ الآخر:

صُلْبُ العَصا بالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاها

علّقَ الشّيخُ محمودُ شاكر بقوله: «لا أدري أيَّ شَيْخَيه يريدُ، القاضيَ الجُرجانيَّ أمِ ابنَ أختِ أبي عليٍّ الفارسيّ»(5).

هذا ما توارد عليه هؤلاء العلماءُ في تحقيقاتِهم، ولم يلتفت أحدٌ منهم إلى التّأكّدِ من هذه التّلمذةِ، التي لو صحّت لذكرَها المؤرّخون في تصانيفِهم، ولتداولُوها بينهم؛ يأخذُها المتأخّرُ عنِ المتقدّم. ولم ينتبه أحدٌ منهم أيضًا إلى سنواتِ الوفاةِ التي يهتمُّ بها كُتّابُ التّراجمِ اهتمامًا شديدًا في القديمِ والحديثِ.

فالقاضي أبو الحسن الجُرجانيُّ عليُّ بنُ عبد العزيز بنِ الحسن توفي سنة 392 هجرية على الرّاجحِ، وذكرَ الذهبيُّ في (السّير) أنَّ وفاتَه كانت سنة 396 للهجرة، ووهِمَ ابنُ خلّكان فجعل وفاتَه سنة 366هـ. وممّا يرجّحُ أنَّ سنةَ وفاته هي سنة 392هـ، ما ذكرَه ياقوتُ الحمويُّ في ترجمتِه حيث يقول: «مات بالرّي يومَ الثّلاثاء لستٍّ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وهو قاضي القُضاة بالرّي حينئذٍ... وحُمل تابوتُه إلى جُرجانَ فدُفن بها، وصلّى عليه القاضي أبو الحسن عبدُ الجبّار بنُ أحمد، وحضر جنازتَه الوزيرُ الخطيرُ أبو عليّ القاسمُ بن عليّ بنِ القاسمِ وزيرُ مجدِ الدولة، وأبو الفضل العارضُ راجلَين» (6) .

فهذا يدلُّ على أنَّ يومَ جنازتِه كان يومًا مشهودًا معلومًا، حيث قُيِّدَ بالسَّنةِ والشَّهرِ واليوم؛ وهو توثيقٌ كان يحظَى به عليةُ القوم ورجالاتُ الدّولة وغيرُهم من ذوي الشّأنِ، الذين كان الجُرجانيُّ واحدًا منهم؛ فهو قاضي القُضاةِ بالرّي ومن خاصّةِ





مُنمنمة فارسيَّة لِلوزير الصَّاحب بن عباد



أورَدَ ياقوتُ الحمويُّ في كتابه (معجمُ الأدباء) في ترجمة القاضي: «وكان الشّيخُ عبدُ القاهر الجُرجانيُّ قد قرأَ عليه واغترفَ من بحرِه، وكان إذا ذكرَه في كُتبه تبخبخَ به وشمخَ بأنفِه بالانتماءِ إليه»

الوزيرِ الشّهيرِ الصّاحبِ بنِ عبّادٍ.

أمّا عبدُ القاهرِ الجُرجانيّ (7) فوفاتُه على الرّاجحِ سنة 471 للهجرة، وقيل سنة 474 هجرية، وعلى كلا القولين فإنّه يُستبعدُ جدًّا أن يكونَ تتلمذَ على القاضي الجُرجانيِّ وبين وفاةِ هذا ووفاةِ ذاك ما ينيفُ على ثمانين سنةً، إلّا أن يكونَ عبدُ القاهر معمّرًا وهو ليس كذلك.

أنّه أخذَ النّحو عنِ ابن أختِ الفارسيّ، أبي الحسن محمّد بنِ الحسن الفارسيّ، ولم يأخذ عن غيره؛ لأنّه لم يخرج مِن بلده. وكان الفارسيّ عالِمًا جوّالًا فزارَ جُرجان ومكث بها مدّةً يبثُّ علمَه فيها.

وعلى شُهرةِ هذا الخبرِ في كتبِ التّراجم؛ فقد ذهل عنه المحقّقون الثّلاثةُ، كما ذهلُوا عن بُعدِ ما بين سنتيْ وفاةِ القاضي ووفاةِ عبدِ القاهر، ولكنْ من أين أخذوا خبرَ تتلمذِ عبدِ القاهر على القاضي الجُرجانيّ؟ ومن أين جاءَهم هذا البلاءُ؟

أصلُ الخبرِ ساقَه ياقوتُ الحمويُّ في كتابه (معجمُ الأدباء)، حيث قال في ترجمة القاضي «وكان الشّيخُ عبدُ القاهر الجُرجانيُّ قد قرأَ عليه واغترفَ من بحرِه، وكان إذا ذكرَه في كُتبه تبخبخَ به وشمخَ بأنفِه بالانتماءِ إليه». (8)

والذي يظهرُ لي أنَّ البرقوقيّ أخذَها منه مباشرةً حين ترجمَ للقاضي الجُرجانيّ؛ باعتبارِه واحدًا ممّنِ اعتنَوا بديوانِ المتنبّي في كتابه (الوساطة)؛ فساق عبارةَ ياقوت كما هي دون أن يخرمَ منها حرفًا، وكذلك فعل الميمنيّ في (الطّرائف الأدبيّة) حيث نسبَ العبارةَ إلى صاحبِها ياقوت الحمويِّ، لكنّه زاد عليها من كيسِه إمعانًا في كيدِ العدَى، أنّه كان تلميذَه وبلديَّه وخِصِّيصَه، فلم يكتفِ بالتّلمذةِ حتّى زادَ عليها الخصوصيّةَ واللّزومَ.

أمّا الشّيخُ محمودُ شاكر، فيغلبُ على ظنّي أنّه استقَى هذه المعلومةَ منَ الميمني ولم يرجعْ إلى أصلِه اتّكالًا



عليه، خاصّةً وأنّه أكثرَ من ذكرِ كلمةِ التّبجحِ التي لم ترد عندَ ياقوت وأوردَها الميمنيّ حيث قال: «والقاضي أبو الحسن كان شيخَ عبدِ القاهر وبه كان يتبجّحُ» ولعلَّ هذه الكلمةَ تصحّفت عند الطّابعِ من كلمةِ تبخبخَ التي ذكرها ياقوتُ؛ فأخذَها محمودُ شاكر واستعملَها أكثرَ من مرّةٍ، وإن كانتِ الكلمتان تحملان المعنَى نفسَه وهو التّفاخرُ والتّباهِي.

وقبلَ أن أتركَ القلمَ، أقفُ وقفةً عند قولِ ياقوت : «كان إذا ذكرَه في كُتبه تبخبخَ به وشمخ بأنفِه بالانتماء إليه». وهو إذا فعلَ ذلك لم يلُمْه أحدٌ لمكانة القاضي الجُرجانيّ وتفرُّدِه في علوم البلاغةِ والمعاني؛ فقد كان الصّاحبُ بنُ عباد وهو من هو، مُعجبًا به أشدَّ الإعجابِ، فحُقَّ لعبد القاهرِ أن يفتخرَ به؛ لأنّه ابنُ بلدتِه ومن خيرِ مَن أنجبت جُرجانُ. ولكنْ هل حقًّا أنَّ عبدَ القاهر كان يفتخرُ به ويتبجّحُ بالانتماءِ إليه؟ وفي أيِّ كتبِه وقعَ ذلك؟

المتبادرُ إلى الذّهن هو أن يذكرَه عبدُ القاهر في كتبِه البلاغيّةِ، دون كتبِه النّحويّةِ، وبالرّجوع إلى كتابَيْ عبدِ القاهر في البلاغة (دلائل الإعجاز) و(أسرارُ البلاغة) نجدُ أنّه ذكرَه في تسعةِ مواضعَ فقط، سبعةٍ منها في (أسرار البلاغة) واثنين في (دلائل الإعجاز) وليس في موضعٍ واحدٍ التّصريحُ بأنّه شيخُه، أو أنّه قرأَ عليه، أو ما أشبهَ ذلك، فهو إمّا أن يقول: قال القاضي أبو الحسن، وهو الأغلب،، أو: قال الشّيخ أبو الحسن، ثم ينقلُ عنه ما جاء في كتاب (الوساطة) أو بيتًا من شعره لا يزيدُ على ذلك، فأين التّبجّحُ والتّباهِي؟؟.

ومهما يكن فإنَّ بابَ الخطأ والغلطِ واردٌ على جميع البشرِ، لا يسلمُ منه أحدٌ، وإنّما أردتُ التّنبيهَ، لكي لا يستريحَ الباحثون إلى مجرّدِ النّقلِ عنِ السّابقين دون تثبّتٍ وتمحيصٍ، مهما بلغتِ الثّقةُ بهم وبنقولِهم، وقديمًا ألّفَ العلماءُ في أغلاطِ الرّواةِ وتصحيفِ العلماءِ ونبّهوا على ذلك، في تضاعيفِ مؤلّفاتِهم، وفي كُتبٍ مفردةٍ.

الهوامش:

1. شرح ديوان المتنبي، لعبد الرحمن البرقوقي، ج 1 ص117.
2. الطرائف الأدبية، لعبد العزيز الميمني، ص198.
3. نفسه، ص285.
4. أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، ص52 وكرر هذا المعنى في ص129 وص133.
5. أسرار البلاغة، ص353.
6. معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، ج4ص1797.
7. انظر ترجمة عبد القاهر الجرجاني في: بغية الوعاة للسيوطي ج2 ص106 ترجمة رقم 1557. شذرات الذهب لابن العماد الأصبهاني ج3 ص340. سير أعلام النبلاء للذهبي ج16 ص432.
8. معجم الأدباء لياقوت،ج4 ص1797.



أَدَبٌ ونَقدٌ

- الهَنْدَسةُ الشّعريّة وبناء الدّلالة المُنْفَتِحة في شعر عبد الحَقّ وسام العاني
- القالَب الشّعْريّ للموشّح- محددات الشّكل والمَوضوع
- قراءة تحليليّة نصّيّة في قصيدة (أرق على أرق) لأبي الطّيّب المُتنبي
- مقاربة إيقاعيّة لضاديّة أبي الشّيص

الهَنْدَسَةُ الشِّعْرِيَّةُ وبِنَاءُ الدَّلَالَةِ المُنْفَتِحَةِ

فِي شِعْرِ وسام عبد الحق العاني



د.نصر الدين شردال
باحث/ المغرب

رَغمَ هَيمنةِ السّردِ الرِّوائيِّ والقَصَصيّ والقصيرِ جدًّا وبروزِ أنواعٍ جديدةٍ في الفنونِ السّمعيّةِ والبصريّةِ... لكنّ هذا لا يعني أنّ الشّعرَ أفلَ نجمُه نهائيًّا، أو تراجع لصالحِ أنواعٍ فنيّةٍ وأدبيةٍ أخرى، إنّهُ فينيقُ الأجناسِ الأدبيّةِ والفنونِ كلِّها، وقلبُها النّابضُ، والإبداعُ العربيُّ في كلّ العصورِ كانَ وسيبقَى مرهونًا بالشّعرِ؛ لأنّهُ الأقربُ إلى الذّائقةِ والذّاكرةِ العربيّتَين؛ ذلك أنّ "الإنسانَ العربيَّ يولدُ شاعرًا إلى أن يثبتَ العكسُ". في هذا السّياقِ، وَاهِمٌ من يظنُّ أنّ الشّعرَ العربيَّ تراجعَ عنِ الرّكبِ، وتوارَى خلفَ سُحبِ الحياةِ المعتمةِ، وإن كانت وتيرةُ الحياة تطوّرت بسرعةٍ ممّا حتّمَ على المتلقّي عدمَ الاستمتاعِ بنبْضِ القصيدةِ والتّأنّي في إيقاعاتِها ودلالاتِها البهيّةِ.

فِي حَدَاثَةِ شِعْرِيّتِنا العربيّةِ المعاصرةِ، وعلى مُجمل الرّقعةِ العربيّةِ، تتعدّدُ الأصواتُ والحساسيّاتُ، فتبرزُ لنا أصواتٌ شعريّةٌ مميّزةٌ ومتميّزةٌ، من بين هذه الأصوات نجدُ كلًّا من محمّد البريكي، وعبد الرّزاق الرّبيعي، وأسيل سقلاوي، وحسن المطروشي، وعارف السّاعدي، وعماد جبار، وأحمد الزّرعوني، وعليّ المطيري، وسيف بن كميدس، وريانة العود، وعبد العزيز الهمامي، وعبد الله أبو بكر، وهاجر عمر، وناصر أبو ناصر، وشيخةَ المطيري، وطلال الجنيبي، وبشرى عبد الله، وسميا صالح، وحمو حسن الأحمدي، وخالد الطنطاني، وأحمد الحريشي، وعمر الراجي... دون أن نغلقَ اللّائحةَ.

فبالإضافةِ إلى هذهِ الكَوكبةِ المُضيئةِ الّتي تتعايشُ فَيِّنًا جماليًّا، وليس جيليًّا مرحليًّا، يحضرُنا اسمُ الشّاعرِ والمهندسِ العراقيِّ وسام عبد الحق العاني خريجِ كليّةِ الهندسةِ منَ الجامعةِ المستنصريّةِ، والمقيمِ في الإمارات العربيّة المتحدة، وهو شاعرٌ مُقِلٌّ، يكتبُ من دَاخلِ تَجربةٍ مَريرةٍ عانت ويلاتِ الغربةِ والحنينِ والموت، شاعرٌ يغيبُ عنِ السّاحة طويلًا، ثمَّ يلمعُ نَجمهُ بقصيدةٍ مُنقّحةٍ ومُضيئةٍ.

يَعملُ الشّاعرُ وسام عبد الحقّ العاني مُهَنْدِسًا مِعْمارِيًّا في بناءِ وهندسةِ المباني السّكنيّةِ الشّاهقةِ بدولة الإمارات العربيّة المتحدة، ويكتبُ الشّعرَ ويناضلُ ثقافيًّا عبرَ العديدِ منَ الهيئات الثّقافيّةِ واقعيًّا وافتراضيًّا.. ولمّا كان الشّاعرُ وسام



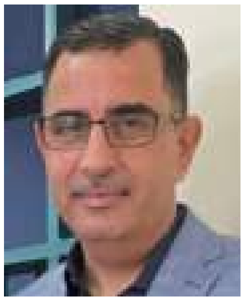
الشاعر محمد البريكي



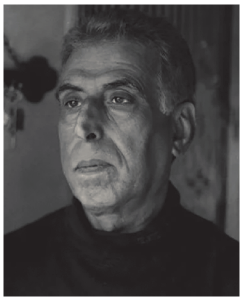
الشاعر عبد الرزاق الربيعي



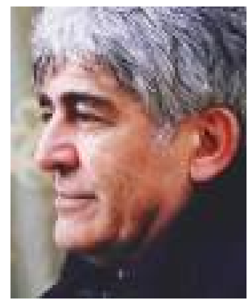
الشاعرة أسيل سقلاوي



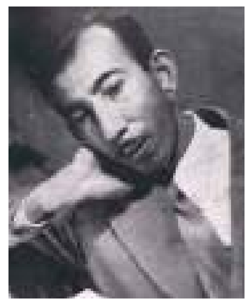
الشاعر وسام العاني



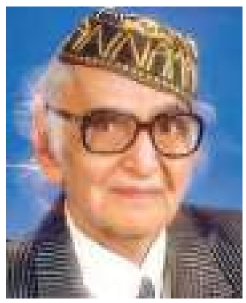
سعدي يوسف



سركون بولص



بدر شاكر السياب



محمد مهدي الجواهري



صلاح فائق



فاضل العزاوي

عبد الحق مهندسًا، نتساءلُ عن إمكانيةِ استفادتهِ منْ علْمِ الهندسةِ في إبداعِ فنِّ الشّعرِ؟

فِي كشْفهِ للعلاقةِ بينَ الشّعرِ والهَندسةِ يرى المَسرحيُّ والشّاعرُ عبدُ الـرّزاق الرّبيعيّ أنّ «الشّعرَ صِناعةٌ تَحتاجُ إلى أدواتٍ لبناءِ مِعمارِ النّصِ، والمعمارُ يحتاجُ إلى عقلٍ يعي العمليّةَ إلى جانب الموهبةِ، وهنا لابدّ من هندسةِ الصّوت، فيتداخلُ عملُ المهندس بعملِ الشّاعر»(1).

إنّ مقاربةَ الهندسةِ الشّعريةِ والدّلالةِ المنفتحةِ في شعر وسام العاني جاءت من نداءِ القصيدةِ نفسِها؛ ذلك أنّ قصائدَه تطفحُ بالجماليّاتِ الحيويّةِ والتّعبيريّةِ الكامنةِ فِي كلِّ مكوّناتِ قصيدتِه الشّعريةِ، بحيثُ تتميّزُ بنوعٍ منَ الصّرامةِ الفنّيةِ مبنًى ومعنًى؛ لذا تسعَى هذه الدّراسةُ إلى الكشْفِ الجماليِّ عن بناءِ المكوّنِ الهندسيِّ/ الإيقاعيِّ وتَمازُجِهِ معَ المكوّنِ الدّلاليِّ وتعاضدِهمَا في بناءِ العمليّةِ الشّعريّةِ المتكاملةِ، ذلك أنّ «دلالةَ أيِّ نصٍّ شعريٍّ ليستْ في معنًى افتراضيٍّ مسبقٍ له وإنّما هي محصّلةٌ مجمّعةٌ لكلّ وسائلهِ الإشاريّةِ والمجازيّةِ وتكنيكهِ في التّعبيرِ والرّمزِ والإيقاعِ والصّورةِ الشّعريةِ»(2).

في عملَيْه الشّعريَّيْن: «كالبحرِ يمشي حافيًا»(2019م) و«ما لم تقلْه الأرضُ"(2021م) وقصائدِه المنشورةِ في الوسائطِ الورقيّةِ والرّقميّةِ العربيّةِ ظلالٌ ثقيلةٌ منَ الموروثِ الإنسانيِّ العربيِّ من شعراءِ الجاهليّةِ إلى صدرِ الإسلام ثمّ العصرِ الأمويّ فالعباسيِّ مرورًا بشعراءِ العراقِ ومصرَ وسوريا... في عصر

«الشّعرُ صِناعةٌ تَحتاجُ إلى أدواتٍ لبناءِ مِعمارِ النّصِ، والمعمارُ يحتاجُ إلى عقلٍ يعي العمليّةَ إلى جانب الموهبةِ، وهنا لابدّ من هندسة الصّوت، فيتداخلُ عملُ المهندس بعملِ الشّاعر»

النّهضةِ والعصرِ الحديث أمثال محمّد مهدي الجواهري، بدر شاكر السّياب، عبد الرّزاق عبد الواحد... يأتي صوتُ وسام عبد الحق العاني ليواصلَ صوتَ القصيدةِ العربيّةِ العراقيّةِ المتفرّدة، مُذَكِّرًا برموزها وأمجادها:

عَلَى قَدَرٍ، فَبَعْضُ الشِّعْرِ مَوْتٌ
يُواصِلُ صَيْحَةَ (السَّيَّابِ) صَوْتٌ
هنالكَ حيثُ تَصْطَخِبُ المَنَافِي
يُذَكِّرُنِي وَأَقْسِمُ مَا نَسيْتُ

في معظم ما كتبه الشّاعرُ حُضورٌ طاغٍ للشّجنِ العراقيّ، واحتفاءٌ قويٌّ بالإنسان العربيِّ في غربتِه وعذاباته وهو يكابدُ تحقيقَ كرامتِه وبناءَ هويتِه وحضارتِه، عبرَ لغةٍ شفّافةٍ تجمعُ بينَ تقنياتِ التّصوير الشّعريِّ القديمِ والحديثِ، واتكاءٍ على إيقاعٍ عروضيٍّ مُحكمٍ من أجلِ بناءِ نصٍ شعريٍّ بمعمارٍ هَندسيٍّ شَامخٍ:

«دَمٌ فِي سِلَالِ القَمْحِ وَالأَرْضُ جَائِعَهْ
وَلَيْلٌ بِعَيْنِ الصُّبْحِ مَدَّ أَصَابِعَهْ
وَفِي وَطَنٍ كَالنَّهْرِ يَحْمِلُ زَجْرَهُ
وَيُلْقِي عَلَى ظَهْرِ السَّمَاءِ مَوَاجِعَهْ
تَشِيبُ الرُّؤَى صَبْرًا وَيُوسُفُ لَمْ يَزَلْ
غُلَامًا مُضَاعًا وَالقَوَافِلُ ضَائِعَهْ
قَصَائِدُنَا الحَمْرَاءُ تَهْمِي حُرُوفُهَا
كَعَيْنٍ عَلَى مَرْأَى الفَجِيعَةِ دَامِعَهْ»

رغم جوِّ الحزنِ الّذي يغيّمُ على بعض قصائده فإنّها قصائدُ فروسيّةٍ عربيّةٍ تُناشدُ الفرحَ وتُذكِّرُ بالأمجادِ وتستشرفُ المستقبلَ الجميلَ وتستنهضُ الهممَ، فيتحوّلُ الإيقاعُ

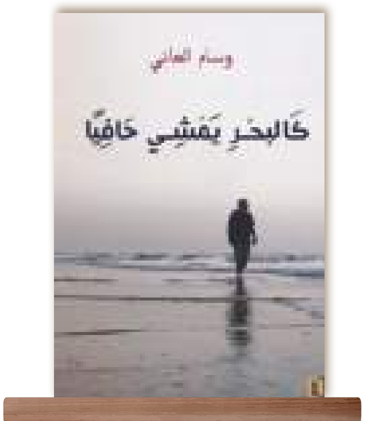
إنّ مقاربةَ الهندسةِ الشّعريةِ والدّلالةِ المنفتحةِ في شعرِ وسام العاني جاءت من نداءِ القصيدةِ نفسِها؛ ذلك أنّ قصائدَه تطفحُ بالجماليّاتِ الحيويّةِ والتّعبيريّةِ الكامنةِ في كلِّ مكوّناتِ قصيدتِه الشّعرية

فيها من سُكُونٍ إلى حركةٍ ومن هَمْسٍ إلى نَشِيدٍ حَمَاسيٍّ، نافِخًا فيها من روحِه روحَ العُروبَةِ المُتوهِّجَةِ بِالحبِّ والفَرَحِ والجَمالِ:

«قُمْ رُدَّ لِلْعَرَبِيِّ سَمْتَ عِقَالِهِ
وَلِسَيْفِ عَنْتَرَةَ القَدِيمِ تَأَلُّقَهْ
لِتَعُودَ عَبْلَةُ فِي القَبِيلَةِ حُرَّةً
بِجَدَائِلٍ بَيْنَ السَّحَابِ مُحَلِّقَهْ
وَتَعُودَ بَغْدَادُ الجَمَالِ مَجَرَّةً
تَزْدَانُ فِي يَدِهَا الكَوَاكِبُ مُشْرِقَهْ».

انْطِلاقًا من قصيدةِ «العودة» سَيدخلُ الشّاعرُ تَجربَةَ قَصيدةِ التّفْعيلةِ بنَفسٍ سَرديٍّ وحِكائيٍّ جَديدٍ، أشبهُ بقصيدةِ النّثرِ، لكنْ بإيقاعٍ عَروضيٍّ أسَاسُه البُحورُ الصّافيةُ ذاتُ التّفعيلةِ الوَاحدةِ، هَكذَا





يَكْتُبُ نَصّه الشّعريَّ باقتصادٍ لُغويٍّ شديدٍ مستفيدًا من نُصوصِ شعراءِ الشّتاتِ العراقيِّ؛ مثل: سركون بولص وسعدي يوسف وفاضل العزاوي وصلاح فائق:

«أَحمِلُ جَسَدَ النَّهرِ عَلَى نَقَّالَةِ المَوْتَى
أَغْسِلُ رِجزَ الحَربِ مِنَ الطُّرُقَاتِ
كَالمجنونِ أُهَروِلُ مَا بَيْنَ الأَلْغَامِ
لأَسْحَبَ جُثَّةَ وَطَنِي الأَسْمَرِ».

أمّا في قصيدته «فوبيا البياض» فالقافِيَةِ أثرٌ واضِحٌ في تَماسُكِ النَّصِّ



ورَسْمِ حُدودِهِ الشَّكليَّةِ، ومع نهايَةِ كلّ مقطع وبدايةِ مقطعٍ آخرَ يَعلُو التَّوقيعُ الصَّوتيُّ كنقرٍ إيقاعيٍّ لذيذٍ: (كهلا، رملا، مهلا، قتلا، قفلا، حلاّ، محلاّ، حبلا، طفلا) فالمقطعُ الأوّلُ منَ القصيدة جاء على الشَّكْل الآتي:

«وعلى خصرِ القصيدةْ
ترقُصُ الكلماتُ خَجْلَى
كَما غجريةٍ شاختْ
وما شاختْ غوايتُها
ولكنْ صارَ نايُ البوحِ كهْلا"

أما المقطعُ الأخيرُ منَ القصيدةِ، فينتهي على الشّكل التّاليّ:

«ولَيْسَ أمامَ طِفْلِ الشِّعْرِ
إلاَّ أنْ يظلَّ كغُرْبَةِ الشُّعَراءِ طِفْلاَ»

ما بين «كهلا» و«طفلا» مفتاحُ وبابٌ ونوافذُ وطوابقُ تشكّلُ بناءً متناسقًا مُشَيَّدًا باللّغةِ لا بالطّوب والحجارة، تُجَمِّلُهُ الصّورةُ والتّداخلُ الصّوتيّ، وتناسلُ المعاني، وَجِدَّةُ المَواضعِ وطَرائِقُ التّعبيرِ عنْها، فَنَجِدُ الشّاعرَ مفتونًا «بالتّوليدِ والتّدويرِ الإيقاعيِّ إلى حدودٍ قويّةٍ، فيبتكرُ القوافي في القوافي، والإيقاعاتِ في الإيقاعات، ويكتبُ القصيدةَ كعُلبةٍ لُغويّةٍ وشكليّةٍ بارعةٍ.. ويصهرُ جميعَ المعاني الظّاهرةِ والخفيّةِ، الواضحةِ والغامضةِ والمتواترةِ أوالمتضادّةِ، في بنيةٍ إيقاعيّةٍ متميّزةٍ يتحوّلُ فيها الشّعرُ إلى نقرٍ إيقاعيٍّ في اللّغةِ»(3).

«أَيْنَ أَحْضَانُ الدُّرُوبْ؟
زَحْمَةُ الحَارَاتِ في وَقْتِ الغُرُوبْ
يَاسَمِينٌ يَتَدَلَّى فَوْقَ أَسْوَارِ البُيُوتْ
وَأَقَاصِيصُ غَرَامٍ لاَ تَمُوتْ»

يبدو المقطعُ الشّعريُّ أعلاه، مُكْتَنِزًا بالأسَى والتَّحَسُّر على ما فات وما اندثرَ من عاداتٍ وتقاليدَ وأُلفةٍ في أحضان الدّروب العربيّةِ الأصيلةِ: اجتماعِ النّاس في مساءات الودّ والأعيادِ، والصّداقةِ والحبّ والذّكرياتِ.. وترتبطُ الدّلالةُ هنا باستفهامٍ/ تساؤلٍ عن أحضان الدّروب.. ولا ينتهي المقطعُ الشّعريُّ/ القصيدةُ بجوابٍ قاطعٍ، بل بنفيِ «لا تموت» وفي هذا ذكاءٌ شعريٌّ يجعلُ المعنى غيرَ مُنْتَهٍ، بل مفتوحًا ومُتَناسِلاً مُتَجدّدًا مع القراءة والتّأويل.

ص؛ فإذا كان التّكرارُ عند جوليا كريستيفا يعني الشّيءَ وزيادةً، فهو في الهندسةِ الشّعريّةِ الجديدةِ يعني

المعنَى وزيادةَ المعنى، وقد يتناسلُ التَّكرارُ فيصبحُ ظاهرةً إيقاعيّةً غنائيّةً موسيقيّةً أشبهَ بالصّدى، أو بترديدِ الفِرْقَةِ الموسيقيَّةِ المصاحبةِ للمُغنّي/المُنْشِدِ، كما يَتَحوَّل إلى رَمْزٍ مُتَعَدِّدِ الدّلالات، هذا ما نَجِدُه في النَّماذج الشِّعريَّة الآتية:

النّموذج الأول:

«مُمْسِكاً كَفِّي عَلَى مَرِّ الخُطُوبْ
حِينَمَا نَجْتَازُ يَا أَبَتِي الدُّرُوبْ
آهِ مِنْ تِلْكَ الخُطُوبْ
آهِ مِنْ تِلْكَ الحُرُوبْ
ضَيَّعَتْنَا فِي مَفَازَاتِ اغْتِرَابْ
نَشْرَبُ الأَوْهَامَ مِنْ كَفِّ العَذَابْ»

النّموذج الثّاني:

«حينما تطْفو عَلى جُرْفِ الشِّفاهْ
حَسْرَةٌ مِنْ جَمْرِهَا يَأْتِي الجَوَابْ
مِثْلَ وَجْهِي يَا صِغَارْ
مِثْلَ وَجْهِي يَا صِغَارْ»

ومنَ التَّكرارِ والتَّوقيعِ الصّوتيّ إلى التَّوقيعِ على الصّفحةِ الشّعريةِ في الدّيوان، فيرسمُ الشّعرَ بالكلمات، بالهندسةِ المعماريّةِ المحكمةِ، دون زيادةٍ أو نُقصان، دون علّةٍ أو أسبابٍ أو أوتادٍ زائدةٍ، كما يَعمدُ الشّاعرُ في كثيرٍ من قصائدِهِ إلى التَّشكيلِ الإيقاعيِّ عبرَ التَّشبيكاتِ الصّوتيّةِ القائمةِ على الثُّنائياتِ الضّديةِ الموزَّعةِ رقعةَ السَّوادِ والبياضِ والملءِ والفراغِ والإضاءةِ والتّعتيمِ، الكلمةِ والأيقونةِ، مثلما نَجِدُ في النَّموذجِ الشِّعريِّ الآتي:

«وَأَنَا البَقَاءُ... أَنَا الرَّحِيلُ
وَأَنَا المَتَاهَةُ... أَنَا الدَّلِيلُ
وَأَنَا الجَمِيعُ... أَنَا الوَحِيدُ»

> **ولعلَّ ما يُميِّزُ تجربةَ شاعرِنا هي قدرتُها على احتواءِ نفسِها، بوحدتِها العُضويّةِ، وإيقاعِها المحكَم، فتبدو مشذّبةً، غيرَ ناقصةٍ أو مكسورةٍ، هادئةً كبركةِ مَاءٍ، لكنّها في العمقِ**

هكذا يقيمُ الشّاعرُ مُوازَنَةً وتوازُنًا بينَ الإيقاعِ والدّلالةِ دونَ معزلٍ عن بقيَّةِ المكوِّناتِ الفنيَّةِ الأُخْرى للقَصيدَةِ، ضامنًا لها لذّتَها الفنيَّةَ الآسِرَةَ.

ولعلَّ ما يُميِّزُ تجربةَ شاعرِنا هي قدرتُها على احتواء نفسِها، بوحدتِها العُضويّةِ، وإيقاعِها المحكَم، فتبدو مشذّبةً، غيرَ ناقصةٍ أو مكسورةٍ، هادئةً كبركةِ مَاءٍ، لكنّها في العمقِ؛ صاخبةٌ، عميقةٌ، ونابضةٌ بالحياة.

ورغم متانتِها اللّغويّةِ ومرونتِها التّصويريّةِ وبنائها الهندسيِّ الصّلبِ، يصيبُها اهتزازٌ عاطفيٌّ حادٌّ، وحنينٌ إلى مراتعِ الصّبا والطّفولةِ، وأسًى شفيفٌ وعميقٌ على العروبةِ وحاضرِها. ولا ضيْرَ في ذلك؛ فحتّى أقوى المباني المشيّدةِ تهتزُّ بفعلِ الأعاصيرِ والزّلزالِ وأهوالِ الطّبيعةِ.

لقد اكتوى الشّاعرُ بنارِ التّجربةِ ومرارتِها ممّا جعلَه يتأنّى في بناء نصِّه الشّعريِّ، ويضاعفُ من عملِه على الإيقاع بأنواعِه المتعدّدةِ، كي يصبحَ طيّعًا في خدمة القصيدةِ.

وقد نَجَحَ الشّاعرُ باقْتِدارٍ في جَعْلِ القَصيدَةِ العَموديَّةِ وقَصيدَةِ التَّفعيلَةِ جَسَدًا بالإيقاعِ، وروحًا بالمَعْنى.

هوامش الدّراسة:

1) مراجع المتن الشّعريّ:

ـ وسام عبد الحق العاني، كالبحر يمشي حافيا (شعر) منشورات مؤسسة بيت الغشام للصحافة والنشر والإعلان، ط1، س 2019م.

ـ وسام عبد الحق العاني، ما لم تقله الأرض (شعر) منشورات الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، ط1، س 2020م.

2) مصادر المتن النقدي:

1ـ عبد الرزاق الربعي، الشّاعر مهندسا، مقدمة ديوان "كالبحر يمشي حافيا"، ص: 6.

2ـ صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، منشورات مختار للنشر والتوزيع، ط1، د.ت، ص: 24.

3ـ محمد علي شمس الدين، الأصوات الشّعرية الجديدة، من كتاب مجلة العربي، تجارب في الإبداع العربي، عدد88، يوليو 2009، ص: 309.

الحكمة في الشِّعر العربيّ

فَلا يَنطِقَن مِنكَ اللِسانُ بِسَوأَةٍ　　فَكُلُّكَ سَوءاتٌ وَلِلناسِ أَلسُنُ
وَعَيناكَ إِن أَبدَت إِلَيكَ مَعائِباً　　فَدَعها وَقُل يا عَينُ لِلناسِ أَعيُنُ

الإمام الشّافعيّ

قَد هَوَّنَ الصَبرُ عِندي كُلَّ نازِلَةٍ　　وَلَيَّنَ العَزمُ حَدَّ المَركَبِ الخَشِنِ
كَم مَخلَصٍ وَعُلاً في خَوضِ مَهلَكَةٍ　　وَقَتلَةٍ قُرِنَت بِالذَمِّ في الجُبُنِ

المتنبي

وَما المَرءُ إِلّا حَيثُ يَجعَلُ نَفسَهُ　　فَفي صالِحِ الأَعمالِ نَفسَكَ فَاجعَلِ

المقنّع الكنديّ

فَصَبراً فَفي الصَبرِ الجَلالَةُ وَالتُقى　　وَلا إِثمَ إِن خُبِّرتُ أَنَّكَ جازِعُ
فَقَد يَأجُرُ اللَهُ الفَتى وَهوَ كارِهٌ　　وَما الأَجرُ إِلّا أَجرُهُ وَهوَ طائِعُ

أبو تمّام

القالَبُ الشّعْريُّ للمُوشَّحِ
مُحَدِّداتُ الشّكلِ والموضوعِ

لقد بقيَ الغناءُ العربيُّ عفويّاً بسيطاً حتى العصرِ الجاهليِّ، وكان الحُداءُ أوّلَ الغناءِ عندَ العربِ، والحداءُ تَرَنُّمٌ محدودٌ ببعضِ الكلماتِ الشّعريّةِ البسيطةِ، إذ استُخدم في البوادي بهدفِ تنظيمِ حركةِ سيرِ الإبلِ وتوحيدِ خُطاها وضبْطِها في أثناءِ سيرِ القافلةِ في الصّحراءِ الواسعةِ، إذ يُنظمُ الحُداءُ على بحرِ الرَّجزِ (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) الذي تُلائمُ تفعيلاتُه إيقاعَ سَيرِ خطواتِ الإبلِ والإنسانِ أيضًا، ومنه بدأ تطوّرُ الأنماطِ الأولى للغناءِ العربيِّ كالنَّصبِ والسِّنَادِ والهَزجِ والنّشيدِ وغيرِها، وجميعُها أنماطٌ بدائيّةٌ عفويّةٌ لا تختلفُ كثيرًا عن الحُداءِ إلّا أنّها أصبحت تُغَنَّى في المناسباتِ وليس في التّرحالِ، وهكذا تباعًا إلى أن ظهرَ التّطوّرُ الواضحُ للغناءِ العربيِّ خلالَ العصرِ الأندلسيِّ فقد أبدعتِ القريحةُ العربيّةُ الموشّحاتِ سعيًا للتّجديدِ.



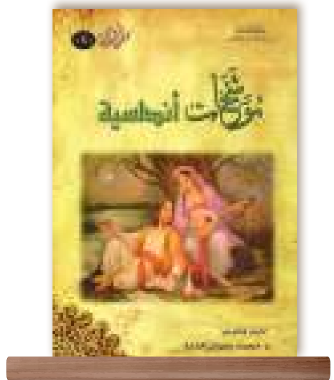
د. رامي درويش
أستاذ جامعي - باحث وناقد فنّي

وهذا ما أكّده ابنُ خلدون في مقدّمته التي قال فيها: "وأمّا أهلُ الأندلس لمّا كَثُـر الشّعرُ في قُطرهم، وتهذّبت مناحِيه وفنونُه، وبلغ التّنميقُ منه الغايةَ، استحدث المتأخّرون منهم فنًّا سمّوه الموشّحَ، ينظمونَه أسماطًا أسماطًا وأغصانًا أغصانًا يُكثرون منها ومن أعاريضِها"(1)، أمّا الأبشيهيُّ فقد عَدَّ هذا اللّونَ الشّعريَّ الجديدَ لونًا مستقلًّا منَ الشّعر العربيِّ إذ قال: "والفنونُ السّبعةُ المذكورةُ عندَ النّاس هي الشّعرُ القريضُ، والموشّحُ، والدّوبيتُ، والزّجلُ، والمواليا، والكانَ وكانَ، والقوما»(2)، وهو ما يؤَكّدُ أنَّ الموشَّحَ قد جاء مختلفًا عمّا قبلَه من أنواع الشّعرِ العربيّ التّقليديِّ من نواحٍ عدّةٍ كالوزنِ والتّقفية، واستعمالِه مفرداتٍ منَ اللّهجة الدّارجةِ والأعجميّةِ في بعض أجزائِه فضلًا عن اتّصاله الوثيقِ بالغناء، فهو كما يصفُه ابنُ سناء



الملك: «كلامٌ منظومٌ على وزنٍ مخصوص»(3)، أمّا تسميةُ الموشَّح فتعودُ إلى كلمة الوِشاح، والوشاحُ هو نوعٌ منَ الألبسةِ كانت ترتديهِ المرأةُ في الأندلسِ فوقَ ملابسِها لتتزيّن به، حيث جاء في القاموس المحيط أنّ الوِشَاحَ هو "كِرسان من لؤلؤٍ وجوهرٍ منظومان يخالفُ بينهما معطوف أحدُهما على الآخر، وهو أديمٌ عريضٌ يُرَصَّع بالجوهر تشدُّه المرأةُ بين عاتقِها وكشحَيْها»(4)، ولعلّ ما يوجدُ في الموشَّح من مقطعٍ شعريٍّ يُدعى القُفلُ، يأتي كالوشاحِ في نهايةِ أدوارِ الموشَّح (فقراته)، فيختمُها ويزيّنُها (يوشّحُها)(5)، أمّا منَ النّاحيةِ البلاغيّةِ فيُلخّصُها أبو هلال العسكريُّ بقوله "أن يكون أوّلُ الكلام دالًّا







على آخره، وصدرُه يشهدُ بعجُزِه"(6)، إذ إنّ أغلبَ الموشّحاتِ الأندلسيّةِ تبدأُ بالغزَلِ وتنتهي بالغزَلِ، وتُنبئُ قوافي مطالعِها بقوافي أقفالِها، فيما يُنبئُ عددُ أشطُرِ البيتِ الأوّلِ بعددِ أشطُرِ باقي أبياتِها، أمّا أهمُّ موضوعاتِها فهي الغزلُ، والشّوقُ، ووصفُ الطبيعةِ، والمديحُ والرّثاءُ.

1. الفرقُ بين الموشّحِ والقصيدةِ العربيّةِ الفُصحَى

إنّ أهمَّ ما يختلفُ به المَوشَّحُ عنِ القصيدةِ العربيّةِ التّقليديّةِ هو الآتي:

أ- تُنظمُ القصيدةُ باللّغة العربيّةِ الفُصحى في حين تتضمّنُ مفرداتُ الموشّحِ بعضَ الكلماتِ الأعجميّةِ أو العاميّةِ الدّارجةِ وما شابه ذلك.

ب- إنّ للقصيدة قافيةً واحدةً، أمّا المَوشَّحُ فالقوافي فيه مُتعدِّدةٌ.

ت- تُنظم القصيدةُ العربيّةُ على أحد البحورِ الخليليةِ، أمّا الموشّحُ فيُنظمُ على أوزانٍ شعريّةٍ خاصّةٍ يبتكرُها الوَشّاحُ.

ث- يتمُّ نظمُ القصيدةِ على شكلِ أبياتٍ من شطرين (صدرٍ وعجُزٍ)، أمّا في الموشّحِ فيعودُ تحديدُ عددِ أشطُرِ البيتِ إلى الوَشّاحِ(7).

2. أجزاءُ الموشّحِ الأندلسيِّ.

تختلفُ بعضُ المصادرِ والمراجعِ والدّراساتِ قديمًا وحديثًا اختلافًا بسيطًا في تسميةِ أجزاءِ قالبِ الموشّحِ الأندلسيِّ، ومن هذه التّسمياتِ الكثيرةِ: (القفلُ، والبيتُ، والـدّورُ، والمطلعُ، والمذهبُ، واللّازمـةُ، والرّأسُ، والسّمطُ، والغصنُ، والجزءُ، والفقرةُ، والخرجةُ، والمركزُ، والمقطوعةُ، والسّلسلةُ ... إلخ)، لذلك فقد اخترنا في مقالتِنا هذه خلاصةَ ما تمَّ الاتّفاقُ عليه من تسمياتٍ ودلالاتٍ أدبيّةٍ وفنّيةٍ بهدف تقديمِ أقربِ صورةٍ ممكنةٍ لأجزاءِ قالبِ الموشّحِ الأندلسيّ، وذلك فيما يأتي:

أ- المطلعُ (المذهب): سُمّي هذا الجزءُ المطلعَ؛ لأنَّ الموشّحةَ تبدأ به، ويتكوَّن المطلعُ من مجموعةِ أشطُرٍ تُدعى بالأغصان(8)، تأتي جميعُها على وزنِ أغصانِ الأقفالِ والخرجةِ في الموشّحِ وعلى عددِها وقافيتِها، وأقلُّ ما يكون في المطلع غُصنان وأكثرُها سبعةٌ(9)، إذ يُعَدُّ تجاوزُ هذا العدد من بعض الشّعراء ضربًا منَ التّكلُّف(01)، لكنْ مع ذلك فقد جاء بعضُ الوشّاحين بمطالعَ تجاوزت هذه القاعدةَ مثلَ موشّحةِ (على عيونِ العين) (11) لابن اللّبانة، التي جاء مطلعُها بثمانيةِ أغصان، كما جاءت بعضُ المطالع بعشرةِ أغصان أو أحد عشر غُصنًا، لكنّها قليلةٌ جدًّا، وعلى الرغم من أهمّيةِ المطلع في تركيب قالبِ الموشّح الأندلسيِّ، فإنّه منَ الممكن الاستغناءُ عنه ضمنَ القالَبِ، فالمطلعُ هو الجزءُ الوحيدُ في الموشّح الأندلسيِّ الذي يُمكن للوَشّاح حذفُه، وفي هذه الحالة يُسمّى الموشّحُ أقرعَ، لكونه دونَ مطلعٍ.

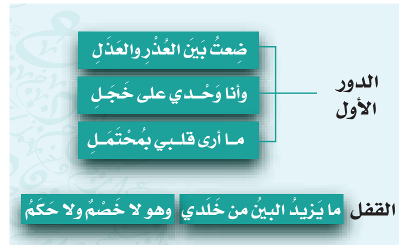
ب- الدّورُ:

جزءٌ منَ الموشّحِ يأتي بعد المطلع (وقبلَ القفل)، وليس لأدوارِ الموشّحةِ عددٌ محدّدٌ، لكنَّ أقلَّها خمسةٌ، إذ عادةً ما يتكوّنُ الدّور الواحدُ من ثلاثة أشطُرٍ تُدعى الأسماطَ، وتأتي بذات العددِ والـوزن في الأدوارِ جميعِها، ويُمكن أن تكون أكثرَ من ثلاثة، لكنْ عادةً ما يأتي عددُها فرديًّا، حيث تكونُ قافيتُها موحّدةً في الدّورِ الواحدِ، ومُتجدّدةً من دورٍ إلى آخرَ، ويجبُ أنْ تختلفَ قوافي الأدوارِ عن قافيةِ الأقفالِ(12).

ت- القُفْلُ:

القفلُ هو الجزءُ الذي يَلي الدّورَ، وليس لأقفالِ الموشّحةِ عددٌ محدّدٌ، لكنّ أقلّها خمسةٌ في حالة الموشّح الأقرعِ وستّةٌ في حالة الموشّح التّامِّ، لكنَّ بعضَ الموشّحات جاءت بأقفالٍ تجاوزت هذا العددَ كحالاتٍ خاصّةٍ، ويُشترطُ في الأقفال أن تأتيَ أغصانُها متناسبةً فيما بينَها ومع أغصان المطلعِ والخرجةِ في الوزن والقافيةِ وعددِ الأجزاء، وبذلك تصبحُ الموشّحةُ متشابهةَ القوافي في الأقفالِ ومتغيّرةَ القوافي في الأدوار، وعلى سبيل المثال الدّورُ الأوّل وقُفلُه من موشّحِ (يا

شقيقَ الرّوحِ) لابنِ سناء الملك (13)



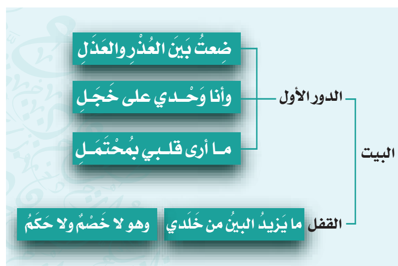
الشّكل1: تبدُّل القافيةِ بين الدّورِ والقُفلِ في الموشّحِ الأندلسيِّ.

وأقلُّ ما يتركّبُ منه القفلُ غصنان وأكثرُها سبعةُ أغصانٍ، لكنَّ الاستثناءاتِ في ذلك موجودةٌ أيضًا مثل أقفالِ موشّحةِ (دانت لي الدّنيا) (14) لابنِ سناء الملك التي جاءت أقفالُها في عشرة أغصانٍ، ومنها القفلُ الآتي:

فيه قبس تحت الغلس وقد
حرس ورد الخجل نبل رشق
حتى أبق قلبي فرق
فللحدق نشاب بها نُصاب

ث- البيتُ:

اتّفقتِ المصادرُ والمراجعُ أغلبُها على أنّ البيتَ في الموشّحةِ هو مجموعُ الدّورِ مع القفلِ الذي يليه، فإذا رجعنا إلى الموشّحةِ السّابقةِ نجدُ أنّ البيتَ الأوّلَ هو:



الشكل2: مفهومُ البيتِ في الموشّحِ الأندلسيِّ.

وليس لأبياتِ الموشّحةِ عددٌ محدّدٌ، لكنَّ أقلّها خمسةٌ(15)، ومع ذلك نرى كثيرًا منَ الموشّحات جاءت بعدد أبياتٍ تجاوزُ الخمسةَ(16)، ومن أشهرها موشّحُ (جادك الغيثُ)(17) للسان الدّين بنِ الخطيب، الذي يتكوّنُ من عشرةِ أبياتٍ (أحدَ عشر قفلًا).



ج- الخرجةُ:

وهي آخرُ قفلٍ في الموشّحِ، لكنّها تتميّزُ من سائرِ الأقفال بأنّها أكثرُها لحنٌ وغنائيّةٌ.

3. علاقةُ الموشّحِ الأندلسيِّ بالغناءِ العربيِّ.

منَ البدهيِّ أنّ الشّعرَ – منذ بداياته الأُولى – جاء وثيقَ الصّلةِ بالغناء، فقد

تَغَنَّ في كُلِّ شِعرٍ أنتَ قائِلُهُ
إنَّ الغِناءَ لِهَذا الشِّعرِ مِضمارُ

أوصى حسّانُ بنُ ثابت الشّعراءَ أنْ يتغنّوا بشعرِهم قائلًا(18):

---

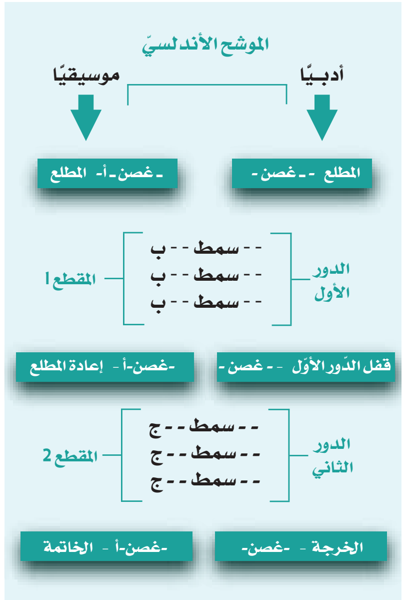
1. ابن خلدون، عبد الرّحمن: مقدّمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ص583.
2. الأبشيهي، شهاب الدّين: المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، 1952م، ص236.
3. الملك، ابن سناء: دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودت الركابي، ط2، دار الفكر، دمشق، 1977م، ص32.
4. آبادي، الفيروز: القاموس المحيط، مطبعة السعادة، القاهرة، 1332هـ، ص255.
5. ابن منظور، جمال الدّين: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص632.
6. العسكري، أبو هلال: الصناعتين الكتابة والشعر، القاهرة، (د.ت)، ص190.
7. يتألف البيت في الموشح من (أجزاء الدور وأجزاء القفل الذي يليه) كما سنرى لاحقاً.
8. لا يُشترط أن تكون قافية أغصان المطلع واحدة.
9. آل طعمة، عدنان: موشحات ابن بقي الطليلي، بغداد، 1979م، ص191.
10. الملك، ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودت الركابي، ط2، دار الفكر، دمشق، 1977م، ص 128-129.

وقال المتنبّي(19):

وَمَـا الـدَّهْـرُ إلّا مِـنْ رُواة قصائدي
إذا قُلتُ شِعراً أَصْبَحَ الـدَّهرُ مُنشِداً
فَـسَارَبِـهِ مَـنْ لا يَـسِـيـرُ مُـشَـمِّـراً
وَغَـنّـى بِـهِ مَـنْ لا يُـغَـنّـي مُـغـرِّدًا

والموشّحاتُ جاءت بوصفِها شعرًا غنائيًّا عربيًّا وُضعت كي يُتَغَنّى بها، وهذا هو السَّببُ الذي جعلَ قالبَها الأدبـيَّ متناسبًا مع القالبِ الفنّيِ للأغنيةِ الشّعبيّةِ، بحيث يكون مطاوعًا للتّلحين والغناءِ، إذ إنَّ نموذجَ الأغنيّةِ الشّعبيّةِ عند الشّعوبِ كافّةً هو: (مطلع، مقطع1، إعـادة المطلع، مقطع2، خاتمة)، أي على القالب: (أ- ب- أ- ج- أ)، وكي يتطابقَ القالبُ الأدبيُّ للموشّحِ الأندلسيِّ مع القالَبِ الفنّيِ للأغنية تطابقًا تامًّا، يجبُ أنْ يختارَ الملحّنُ اثنين من أجمل أدوارِ الموشّح ليُشكلا المقطعَ الأوّلَ والثّاني من قالبِ الأغنيّةِ، فيما يُشكّلُ مطلعُ الموشّح مطلعًا للأغنية، أمّا خرجتُه فتشكّلُ خاتمةَ الأغنيّةِ كما يُبيّن الشّكلُ الآتي:

الشكل3: الأجزاءُ الأدبيّةُ للموشّحِ الأندلسيِّ مقارنةً بالأجزاءِ الفنّيةِ للأغنيّةِ.



كثيرًا ما يقوم الملحِّنُ بإجراءِ بعضِ التّغييرات على نصِّ الموشّحِ كي يستقيمَ وزنُ الكلام مع إيقاعِ الغناءِ والموسيقَى، شريطةَ ألّا يؤثّرَ هذا الإجراءُ في أصل الموشّحةِ، من خلال ما يُسمَّى التّعويضَ في علمِ العَروض الشّعريِّ الموسيقيّ، كإضافة لفظةٍ إيقاعيةٍ لا معنًى لها، مثل (يا عينُ، يا ليلُ، آهٍ، لالا، يا لالالي ...)، كي تُشكّلَ دعامةً وزنيةً إيقاعيّةً يستقيمُ بها الوزنُ الموسيقيُّ، والعكسُ صحيحٌ، كأن يتمَّ إسقاطُ حرفٍ أو كلمةٍ أو أكثرَ للغرض ذاته.

ختاماً لهذا الإطار نوردُ نموذجًا فيما يأتي من أجملِ الموشّحاتِ الأندلسيّةِ التّامّةِ (ستّةُ أقفالٍ وخمسةُ أدوارٍ) للوزير أبي بكر بن زُهر الحفيدِ الأندلسيِّ(20):



---

11. المرجع السّابق، ص 68- 69.
12 الكريم، مصطفى عوض: فن التوشيح، دار الثقافة، بيروت، 1959م، بيروت، ص32-33.
13. المرجع السّابق، ص20.
14. الملك، ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودت الركابي، ط2، دار الفكر، دمشق، 1977م، ص130-131.
15. الكريم، مصطفى عوض: فن التوشيح، دار الثقافة، بيروت، 1959م، بيروت، ص26.
16. عناني، محمد زكريا: الموشحات الأندلسية/ سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1980م، ص45.
17. ابن الخطيب، لسان الدين: جيش التوشيح، تح: هلال ناجي ومحمد ماضور، مطبعة المنار، تونس، 1967م، ص45.
18. ابن ثابت، حسّان: ديوان حسّان بن ثابت، تح: سيد حنفي حسنين، دار المعارف، القاهرة، 1983م، ص280.
19. المتنبي، أبو الطيّب: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ص373.
20. عباسة، محمد: الموشّحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، أم الكتاب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص62.



قراءةٌ تحليليّةٌ نصّيّةٌ في قصيدةِ «أرقٌ على أرقٍ»

لأبي الطّيّبِ المتنبّي

مهادٌ أوليٌّ: تميّزَ الشّعرُ العبّاسيُّ بالنُّضج الحضاريِّ والوعي بقيمةِ الإبداعِ والخَلْق؛ وبجماليّاتٍ في الرّؤيةِ والفنِّ، نظرًا لما عرفَه العصرُ العبّاسيُّ من تحوّلاتٍ حضاريّةٍ واجتماعيّةٍ، وانفتاحٍ على الثّقافاتِ الأُخرى، ممّا كان له الأثرُ الواضحُ في اختيارِ طرقٍ جديدةٍ في بناءِ القصيدةِ العربيّةِ التّقليديّةِ التي تخلّصت من عوائقِ المقدّمةِ الطّلليّةِ، لتبتدعَ شعرًا محدثًا يختلفُ عمّا كان سائدًا، ولعلّ قصائدَ الشّعراءِ أبي نوّاسٍ وبشّارِ بنِ بردٍ وأبي تمّامٍ والمتنبّي، وما خلّفتْه من صراعٍ بين أنصارِ القديمِ وأنصارِ الحداثةِ، بسببِ تجاوُزِهم البلاغةَ البيانيّةَ التي كانت قائمةَ الذّاتِ، وبنيةَ القصيدةِ التّقليديّةِ المتمثّلةِ في الوقوفِ على الأطلالِ، مُحتفين بمظاهرِ الحياةِ الجديدةِ التي تتطلّبُ التّحوّلَ في الأساليبِ الشّعريّةِ.



صالح لبريني
طالبٌ باحث من المغرب

وهذا ما تحقّقَ مع هؤلاءِ الشُّعراءِ الذين يُعدّون رُوّادَ الحداثةِ الشّعريّةِ الأُولى.

من هذا المُعطَى سنرومُ دراسةَ قصيدةِ "أرقٌ على أرقٍ" للشّاعرِ أبي الطّيّبِ المتنبّي وَفقَ منهجيّةٍ مفتوحةٍ على آلياتٍ أسلوبيّةٍ وشعريّةٍ وجماليّةٍ، بُغيةَ الكشْفِ عن شعريّةِ هذه القصيدةِ.

(1) على هامشِ النّصّ:

(أ) المتنبّي هُويّةٌ شعريّةٌ:

هو أبو الطّيّب (1) أحمدُ بنُ الحسين الجُعفيُّ المولودُ بالكوفة وتحديدًا بِكِندةَ سنة 303هـ، شاعرٌ مُفلقٌ، شديدُ المعارضةِ راجحُ العقلِ عظيمُ الذّكاء، جاء إلى الشّام في صِباه واشتغلَ في فنونِ الأدبِ، تتلمذَ على يد أهلِ العلمِ والمعرفة. سُمِّيَ بالمتنبّي لادّعائه النُّبوَّةَ، شاعرُ سيفِ الدّولةِ الحمدانيّ بامتيازٍ، ثمّ بعد ذلك غادرَ إلى مصرَ فمدح كافورًا الإخشيديَّ وفي نفسِه مطامعُ، لكنّه لم يحقّق رغائبَه، فغادرَ مصرَ وهجاه بعدّةِ قصائدَ مشهورةٍ. توفي سنة 354هـ، وقد نال شهرةً وأثارَ خصوماتٍ نقديّةً بين النّقّادِ.

(ب) المتنبّي وحداثةُ الشّعرِ الأُولى:

لاشكَّ أنَّ أبا الطيّب المتنبّي منَ الشُّعراء الذين بصمُوا تاريخَ الشّعر العربيِّ القديم بسِماتٍ تجديديّةٍ، إلى جانبِ بشّار بنِ بردٍ وأبي نوّاسٍ وأبي تمّام، ميزتُها التّحوّلُ والاختلافُ عمّا كان سائدًا في عصره، بل يمكنُ القولُ إنّ الجدالَ الذي أثارَه نابعٌ من قيمة شعْرِه وجدارته نظرًا لما يحملُه من جمالياتٍ فاقت جمالَ القصيدةِ العربيّةِ، ورُؤًى نابعةٍ من تصوّرِه للإبــداعِ الشّعريِّ الفريدِ والمتفرّدِ، ويُعَدُّ من رُوّادِ الشِّعْرِ المحدَثِ الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ):" لقد كثرَ هذا المحدثُ وحسُنَ، حتى لقد هممتُ بروايته"(2)، ممّا يُبرزُ أنَّ هذا الشّعرَ خلقَ تأثيرًا واضحًا في الذّائقةِ الشِّعريَّةِ الّتي لم تألفْ هذا المحدثَ الحاملَ لإرهاصاتٍ تجديديّةٍ سيكون لها أثرُها في الشّعريّةِ العربيّةِ. وشعرُه زاخرٌ بخطابٍ شعريٍّ مختلفٍ عمّا كان سائدًا، من حيث المُعجمُ الشّعريُّ والبنيةُ الجماليّةُ والفنّيةُ للقصيدةِ عنده، ممّا حقّق له الحضورَ والخلودَ في الذّاكرةِ الشّعريّةِ العربيّةِ والإنسانيّةِ، لقد كانَ المتنبّي شاعرًا مجدّدًا، خارقًا العادةَ الشّعريّةَ القديمةَ، ناحتًا أُفقًا شعريًّا مختلفًا، يثيرُ الكثيرَ منَ الاستغراب والرّفضِ من لدُنِ كهنةِ البيتِ الشّعريِّ القديمِ، ولعلَّ ما أثارتْه تجربتُه من مناكفاتٍ نقديَّةٍ واخْتِلافاتٍ بَلَغَتْ مَبْلَغًا عظيمًا وكانَتْ دليلاً على قيمتِه الشّعريّةِ وفرادتِه.

أَرَقٌ عَلــى أَرَقٍ وَمِثـلِـيَ يَــأرَقُ
وَجَوىً يَزيدُ وَعَبرَةٌ تَتَـرَقرَقُ
جُهدُ الصَبابَةِ أَن تَكونَ كَما أَرى
عَينٌ مُسَـهَّدَةٌ وَقَـلبٌ يَخفِقُ

- المتنبي -

(2) مهادٌ نظريٌّ:

أصبح منَ المعتاد لدى المشتغلينَ بالدَّرسِ اللُّغويّ، أنَّ اللّغةَ ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ تعبّرُ عن نسقٍ معرفيٍّ يمثّلُ العقلَ الجمعيَّ، وعبْرها يستطيعُ المتكلّمُ تشكيلَ تصوّرٍ حول اللّغةِ التي يستعملُها سواء تعلّقَ الأمرُ بالتّواصلِ أو بالإبداعِ. ولقد قسّمَ فردينان دوسوسير اللُّغةَ إلى اللّسانِ والكلام، فاللّسانُ جماعيٌّ في حين أنَّ الكلامَ فرديٌّ، ويُسمّي سابير الكلامَ بالواقعِ الكلاميّ(3)، من هنا يكونُ استعمالُ اللُّغةِ منَ النّاحيةِ العمليّةِ ذاتيًّا، وبالتّالي فالسِّمةُ الذّاتيةُ التي تسمُ اللّغةَ لكنّها تختلفُ من متكلّمٍ إلى آخرَ عكسَ اللّغةِ ذاتِ البعدِ الموضوعيّ تكونُ رهينةَ النّسقِ الاجتماعيّ. وهذا ما يؤكّدُ على البُعدَين الذّاتي والموضوعيّ للّغة، ممّا يجعلُ هذه الأخيرةَ تتّصفُ بالحالة التّأثّريّةِ والتّأثيريّةِ في بنيةِ الخطابِ اللّغويّ. وفي هذا السّياقِ يرى رومان ياكبسون» أنّ البنيةَ اللّفظيّةَ لرسالةٍ ما تتعلّقُ قبلَ كلِّ شيء بالوظيفيّةِ المهيمنة، لكن أيًّا كانتِ الوظيفةُ المهيمنةُ فإنَّ مساهمةَ العناصرِ الأخرَى ينبغي أن يأخذَها اللّسانيُّ في الحسبانِ»(4)، وهذا يعني أنَّ الخطابَ اللّغويَّ يكونُ خاضعًا للوظائفِ الأخرَى ولوعْيِ المتكلّمِ بلُغتِه وَفقَ رؤيةٍ منطلقُها الذّاتُ في ارتباطِها بأنساقِ الجماعةِ التي



بشار بن برد

ينتمِي إليها، لكنّه يكونُ مشمولاً بخطاباتٍ تسودُ فيها الهيمنةُ الشّعريّةُ، أي خروجُ اللّغةِ من درجةِ الصّفرِ في الكتابةِ إلى درجةِ الانزياحِ، ممّا يؤدّي إلى التّأثّرِ والتّأثيرِ في سياقِ الوضعيّةِ التّواصليّةِ. بعبارة أخرى يتغيّا الوظيفةَ الجماليّةَ، وذلك مردُّه إلى حضورِ الجانبِ الفرديِّ في استعمال اللّغةِ؛ لأنَّ "مجالاتِ استخدامِ اللّغةِ الشّعريّةِ متنوّعةٌ بتنوّعِ وظائفِها، فنحن من هذه اللّغةِ لسنا بإزاءِ نمطٍ قوليٍّ واحدٍ، بل نحن أمامَ عددٍ منَ الأساليبِ الوظيفيّةِ كما يختلفُ فيها الشّعرُ الملحميُّ عنِ الشّعر الغنائيِّ عنِ الشّعر الخطابيّ"(5)، ممّا ميّزَ اللّغةَ الشّعريّةَ بخصوصيّاتٍ جماليّةٍ أساسُها الانزياحُ أوِ العُدولُ بلُغةِ القدامى، ممّا دفعَ البعضَ إلى التّأكيدِ على أنَّ لها" أعرافًا خاصّةً لا يمكنُ أن تهاجمَ أو تنتقدَ بسبب تجاوزِها للمستوى اللّغويّ العامِّ، بل قد تبدو اللّغةُ الشّعريّةُ أحيانًا وكأنّها إخلالٌ منهجيٌّ منظّمٌ بالأعرافِ اللّغويّةِ، ولا يتمثّلُ هذا الإخلالُ فيما يُسمّى بالضّرائرِ الشّعريّةِ وتجاوُزاتها النّحويّةِ والصّرفيّةِ فحسبُ، بل يتعدّاه إلى الطّابعِ المجازيِّ الذي تتّسمُ به هذه اللّغةُ، إذ هو طابعٌ يلتوي بالدّلالات الوضعيّةِ الأُولى للكلمات، ويلدُ منها بالمزجِ والتّركيبِ والحذفِ والإضمارِ دلالاتٍ فنّيّةً ثانويّةً، هي في منطقِ الشّعرِ أهمُّ وأولى من تلك الدّلالاتِ اللّغويّةِ الوضعيّة"(6)، ممّا يثبتُ أنَّ اللّغةَ الشّعريّةَ ذاتُ سماتٍ تختلفُ عنِ اللّغةِ في درجة الصّفرِ أوِ اللّغةِ البيضاء، تؤسّسُ لعلاقة تفاعُليّةٍ تذوّقيةٍ وجماليّةٍ بين النّصّ والمتلقّي، هذا الأخيرُ يستثمرُ صلتَه بالحاملِ اللّغويِّ عبْرَ التّوظيفِ الأمثلِ للذّخيرةِ المعرفيّةِ حتى يتمكّنَ من فتحِ حوارٍ عميقٍ مع النّصّ ودراستِه دراسةً تكشفُ عمّا هو ذاتيٌّ وموضوعيٌّ في هذه اللّغة الشّعريّةِ؛ لأنّ



إنَّ الخطابَ اللّغويَّ يكونُ خاضعًا للوظائفِ الأخرَى ولوعْيِ المتكلّمِ بلُغتِه وَفقَ رؤيةِ منطلقُها الذّاتُ في ارتباطِها بأنساقِ الجماعةِ التي ينتمِي إليها، لكنّه يكونُ مشمولاً بخطاباتٍ تسودُ فيها الهيمنةُ الشّعريّةُ

في صميمِ اللّغةِ -كما يقول لوتمان- رصيدًا منَ المعاني(7).

(3) التّحليلُ النّصّي:

من هذا المنطلقِ سنسعَى إلى مقاربةِ قصيدةِ "أرقٌ على أرقٍ" للشّاعرِ أبي الطيّبِ المتنبّي مُعتمدِين على ما تتوخّاه النّظريةُ النّقديةُ من غاياتٍ وأهدافٍ لتجريبِ منهجٍ نقديٍّ بإمكانه إضاءةُ النّصّ المحلّلِ. في هذه القصيدةِ يصوغُ المتنبّي تجربتَه الشّعريةَ انطلاقًا منَ العلاقةِ الوطيدةِ التي يربطُها مع ذاته في علاقتِها بالعالَم، وبالزّمن كمقوّمٍ من مقوّمات خطابِه الشّعريّ، علاقةٌ موسومةٌ بالصّراعِ الدّاخليّ الذي تخوضُه الذّاتُ في مواجهة زمنَين: زمنِ الذّات ودواخلِها الباطنيّةِ وزمنِ الواقعِ في تململُه واضطرابِه، لاسيما إذا استحضرْنا سيرةَ الشّاعر المتّصفةَ بالرّغبةِ الجموحةِ لتحقيقِ المجدِ عن طريق امتلاكِ السّلطةِ السّياسيّةِ، رغمَ امتلاكِه السّلطةَ المعنويّةَ المتجلّيةَ في الرأسمالِ الرّمزيّ.

أوّلاً: البنيةُ الصّوتيّةُ:

قبْلَ الشّروعِ في تحليل هذا الخطابِ الشّعريّ، لابدَّ أن نشيرَ إلى أنّه خطابٌ يتّصفُ بما يميّزُه من خصائصَ أسلوبيّةٍ وبُنًى فكريّةٍ ودلاليّةٍ، وبُنًى صوتيّةٍ وصرفيّةٍ ونحويّةٍ تزيدُ من إضفاءِ طابعٍ إيقاعيٍّ وجماليٍّ عليه، دون أن ننسَى الجوانبَ المثيرةَ للانفعالِ من خلالِ التّماهي الذي يحصلُ بين المتلقّي والنّصّ، على أساسِ أنّ النّصَّ الشّعريَّ خزّانٌ للبنيةِ العاطفيّةِ الوجدانيّةِ، وعليه فالمتأمّلُ للقصيدةِ سيلمسُ هذه السّماتِ الإيقاعيّةَ المتخلّقةَ منَ البنيةِ الصّوتيةِ الصّرفيةِ، والبنيةِ العروضيّةِ، كما تعبّرُ عنِ الحالةِ الانفعاليّةِ التي تُبنى عليها التّجربةُ الشّعريةُ،«وهي تجربةٌ تقومُ بنيتُها العامّةُ في الأعمّ الأغلبِ على ما

يُشبه التّمفصلاتِ المقطعيّةَ التي يستقلُّ كلُّ مقطعٍ فيها بما يميّزُه من جُزئياتٍ دلاليةٍ متكاملةٍ وتراكيبَ نحويةٍ متوازيةٍ وموقّعةٍ»(8)، هذا التّمازجُ بين هذه المكوّناتِ المقطعيّةِ منحَ للقصيدةَ روحًا موسيقيةً تتّسمُ بالحركيّةِ والدّينامية، وإيقاعيةً متواترةً منسجمةً مع وحدةِ الرّويّ والقافية. هذه النّبرةُ الموسيقيةُ تشكيلٌ لُغويّ بديعُ زاد من هذا الوهجِ الفنّي الذي يشعُّ منَ القصيدة، كاشفًا بذلك عنِ المشاعرِ المتوتّرةِ التي تكشفُ عن حقيقةِ الانفعالِ الدّاخليِّ الذي توجدُ فيه الذّاتُ وهي تواجهُ العالَم الخارجيَّ. ونعتقدُ أنَّ هذا الرّويّ مفضّلٌ عندَ الشّاعر، ويقدّمُ الشّاعرُ هذا الانسيابَ الصّوتيَّ والصّرفيَّ في قولٍ شعريٍّ يزخرُ بالصّورِ الشّعريةِ ذاتِ البُعدِ الفنّي، إضافةً إلى قافيةٍ متداركةٍ (رقرق/يخفق/ يعشق/ ينعق...) ممّا أضفى على القصيدة أبعادًا غنائيّةً تُسهمُ في تثوير الخطابِ الشّعريّ، بل إنَّ المعجمَ الشّعريَّ يهيمنُ عليه حقلٌ دلاليٌّ يتمثّلُ في المعاناةِ والمكابدة، ممّا يعطِي صورةً حقيقيّةً

> **إنَّ اللّغةَ الشّعريّةَ ذاتُ سماتٍ تختلفُ عنِ اللّغةِ في درجةِ الصّفرِ أوِ اللّغةِ البيضاءِ، تؤسّسُ لعلاقةٍ تفاعُليّةٍ تذوّقيةٍ وجماليّةٍ بين النّصّ والمتلقّي**

على الجانبِ الانفعاليّ/ التّوتّريِّ، ولعلّ البنيةَ الصّوتيّةَ والصّرفيّةَ تثبتُ ذلك في مطلع القصيدةِ التي يقولُ فيها المتنبّي:

أرقٌ عَلَى أرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ
وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

فاللّغةُ الشّعريةُ تنمازُ بالبساطةِ والوضوحِ وذاتُ نبرةٍ يغلبُ عليها الطّابعُ الوجدانيُّ، لكوْنِ الشّاعرِ يقدّمُ بصريحِ العبارةِ صورةً واضحةً لا لَبْسَ فيها للمتلقّي وهي تعجُّ بالتّوتّرِ والقلقِ، وما حرفُ (القاف) وهو حرفٌ جَهوريٌّ إلّا دليلٌ على هذه الإيقاعيةِ النّابضةِ بالمعاناةِ النّفسيّةِ للذّاتِ الشّاعرةِ، ويجسّدُ الأرقُ تجسيدًا يطردُ النّومَ عنِ العيون شرَّ طردةٍ، وعمومًا وظّفَ الشّاعرُ التّكرارَ لإثارة انفعالاتِ المتلقّي. فالعلاقةُ التي تنسجُها مفرداتُ القصيدة، من خلال المعجمِ الشّعريِّ، تبرزُ تراكيبُه البسيطةُ والعلاقاتُ الدّلاليّةُ القائمةُ بين ألفاظِه. ولابدَّ منَ الإشارة إلى الصِّيغِ الصّرفيّةِ المُهيمنة داخلَ النّصّ نجدُ (فعْلة =عبْرة/ مُفعّلة= مسهّدة/ فؤاد= فُعال/ مفاعل= منازل) حيث تركت أثرًا واضحًا في تخصيب الجانبِ الإيقاعيّ.

وبعد هذه الوقفةِ حول الجانبِ النّفعيّ للّغة، لابدَّ منَ الكشفِ عنِ الجوانبِ الفنّيةِ على اعتبارِ الشّعرِ «صناعةٌ وضربٌ منَ النّسج، وجنسٌ منَ التّصوير، وإنّما الشأنُ في إقامة الوزنِ، وتخيّرِ اللّفظ وسهولةِ المخرجِ، وكثرةِ الماء، وفي صحّةِ الطّبعِ وجودةِ السّبكِ»(9)، وهذا المعطَى حاضرٌ في القصيدة حيث نجدُ المتنبّي يقيمُ



الوزنَ ويختارُ اللّفظ المناسبَ وسهولةَ المخارج وجودةَ النّسج، وقد تحقّقَ ذلك عن طريقِ مُعجمٍ شعريٍّ يُفصحُ عمّا يتكبّدُه الشّاعرُ من توتُّرٍ وقلقٍ بسببِ الأرق، ممّا حوّلَ القضيةَ إلى فضاءٍ جماليٍّ ينبضُ بإيقاعيّةٍ فريدةٍ نتجت عنِ اختيارِ البحرِ الشّعريِّ الذي يُسايرُ دفقاتِ الشّاعر الشّعوريةِ والعاطفيّةِ المتمثّلِ في بحرِ الكامل، إيقاعيّةٌ منسابةٌ كانسيابِ عواطفِ التّوتّر من أعماقه، مُستثمرًا كلَّ الإمكاناتِ البلاغيّةِ الممكنةِ كالتّصريعِ والتّكرار، بل يمكنُ الوقوفُ على القافيةِ وهذا ما أسهمَ في وسْم النّصّ الشّعريِّ بديناميةٍ إيقاعيةٍ تنيرُ عتماتِ النّفسِ الإنسانيّةِ، وتعكسُ التّوتّرَ النّفسيَّ لدى الشّاعر، يقول ياكبسون" إنّ الشّعرَ ليس المجالَ الوحيدَ الذي تُخلّف فيه رمزيةُ الصّوت آثارَها، وإنّما هو المنطقةُ التي تتحوّلُ فيها العلاقةُ بين الصّوت والمعنَى من علاقةٍ خفيّةٍ إلى علاقةٍ جليّةٍ بطريقةٍ ملموسةٍ، وأكثرَ قوّةً"(10)

ثانيًا: في البنيةِ المُعجميّة:

ما يمكنُ الخلوصُ إليه على مستوَى المُعجمِ الشّعريِّ الذي وظّفه الشّاعرُ نجدُه معجمًا شعريًّا بسيطًا، بعيدًا عنِ المفرداتِ الغريبةِ والموغلةِ في التّعقيدِ، وتحتاجُ منَ القارئِ العودةُ إلى المعاجمِ لفهمِ مقصودِها اللّغويّ، ممّا جعلَ المعاني واضحةً لا التباسَ فيها، والعلاقاتُ التّركيبيّةُ الدّلاليّةُ ذاتُ بناءٍ تقليديٍّ، وهو معجمٌ يتوزّعُه حقلُ العاطفةِ المهيمنُ على الخطابِ الشّعريِّ للقصيدةِ، ويخدمُ الغرضَ العامَّ لها، وهو توتّرُ الشّاعر وقلقُه أمامَ سطوةِ السُّهاد، وهو حالةٌ نفسيّةٌ تُبرزُ معاناةَ الشّاعرِ من جرّاء ذلك، لإبرازِ ذلك وظّف الشّاعرُ الكثيرَ منَ المفردات التي تحيلُ على التّوتّرِ والقلقِ والمكابدةِ (أرق/ يأرق/ عبرة/ مسهّدة/ نار الهوى/ نار الغضا/ يحرق / ضيق...) والتي أدّت المعنى نفسَه، معنَى الإحساسِ بسُهاد العشقِ ومخلّفاته القاسيةِ على روح الشّاعر، مع ضرورةِ الإشارةِ إلى الأوصافِ (جهد الصبابة/ مسهدة/ قلب يخفق/ أهل العشق...) فتحقّق التّكاملُ فيما بينهما لخدمةِ المغزَى النّصّي، وللضّمائرِ أثرٌ واضحٌ في بناء النّصّ الشّعريِّ من حيث الدّلالةُ إذ زاوجَ الشّاعرُ بين ضميرَي المتكلّم (أرى/ جربتُ/ عذلتُ/ عجبتُ/انثنيتُ/ ذنبي/ أنني/ لي/ ...) وضميرِ المتكلّم الدّالِّ على الجماعةِ (نحن/ نبكي/ ...) وضميرِ الغائبِ (عذرتهم/ عيّرتهم/ منهم/ لقوا/ جمعتهم...) ومع ذلك نلاحظُ أنَّ صوتَ الذّات الشّاعرةِ يسري في الضّمائر الأخرى؛ لأنّه هو السّاردُ العليمُ بالأصواتِ الأخرى الحاضرةِ في بنيةِ النّصّ، ومن تجلّياتِ ما تطرّقْنا إليه على مستوى الضّمائرِ الموظّفةِ قولُ الشّاعر مصوِّرًا حالةَ السّهد التي يعاني منها:

> **إنّ المتأمّلَ للقصيدةِ سيلمسُ هذه السّماتِ الإيقاعيّةَ المتخلّقةَ منَ البنيةِ الصّوتيةِ الصّرفيةِ، والبنيةِ العروضيّةِ، كما تعبّرُ عن الحالةِ الانفعاليّةِ التي تُبنى عليها التّجربةُ الشّعريةُ**



أرقٌ على أَرَقٍ ومِثْلِي يَأرَقُ
وأسىً يَزِيدُ وعَبْرةٌ تَتَرَقْرَقُ
جُهدُ الصَّبابةِ أن تَكونَ كَما أُرَى
عَينٌ مُسَهَّدَةٌ وَقلبٌ يَخفقُ

يقدّمُ المتنبّي صورةَ المعاناةِ في أوضحِ تعبيرٍ، ثم ينتقلُ إلى الحديثِ عن هذه التّجربةِ المؤلمةِ إذ يقولُ:

جَرّبْتُ من نارِ الهَوى ما تَنْطفي
نارُ الغضى وَتكلُّ عما تُحرِقُ

والرّؤيةُ هنا رؤيةٌ تكشفُ عنِ الاحتراقِ الذي تكبّدتْه الذّاتُ الشّاعرةُ جرّاءَ هذا الواقعِ الأليمِ، وهذا يَسري على القصيدةِ برمّتِها رغمَ توظيفِ ضميرِ المتكلّمِ للجماعةِ وضميرِ الغائبِ.

ثالثًا: في البنيةِ الصّرفيّةِ:

يبدُو أنَّ البنيةَ الصّرفيّةَ تنسجمُ مع الخطابِ الشّعريِّ، الذي يتمحورُ حولَ ما تواجهُه الذّاتُ من غليانٍ داخليٍّ عاطفيٍّ يُفصحُ عن حجمِ المعاناةِ، ومن تجلّياتِ ذلك اختيارُ الشّاعرِ الأفعالَ الماضيةَ **(جربت/انثنيت/ لاح/ عذلت/ ذقت/ لقيت/ عذرتهم/ عرفت/ عجبت/ لقوا / بقوا...) والمضارعة (يأرق/يزيد/ تترقرق/أرى/ تكون/ يموت/ يحرق/ يعشق/ ينعق...)** فالذّاتُ وقعتْ بين زمنَين زمنِ الماضي الذي كان سببًا للزّمنِ الحاضرِ، واستخدامُ المصادرِ **(أرق/ عبرة/ الصّبابة...)** كلُّ هذا أسهم في إبرازِ الجانبِ الانفعاليِّ للذّاتِ الشّاعرةِ، ودلَّ على أنَّ هذه المعاناةَ تتجدّدُ وتستمرُّ، بينما تدلُّ الأفعالُ الماضيةُ على ما تحقّقَ وقوعُه.

> **نجدُ المتنبّي يقيمُ الوزنَ ويختارُ اللّفظَ المناسبَ وسهولةَ المخارجِ وجودةَ النّسجِ، وقد تحقّقَ ذلك عن طريقِ مُعجمٍ شعريٍّ يُفصحُ عمّا يتكبّدُه الشّاعرُ من توتّرٍ وقلقٍ بسببِ الأرقِ.**

رابعًا: في البنيةِ النّحويّةِ:

تقعُ هذه القصيدةُ في خمسةٍ وعشرين بيتًا، لكنّنا اكتفيْنا بالأبياتِ العشرةِ للتّحليلِ والمدارسةِ والتي تتوزّعُ إلى ثلاثةِ مقاطعَ، المقطعُ الأوّلُ استقلَّ بتصويرِ معاناةِ الشّاعرِ وحزنِه الذي منعَه منَ النّومِ، بينما المقطعُ الثّاني يدورُ حول بلوغِ الشّاعرِ أقصى درجاتِ المكابدةِ منَ الحبِّ، في حين يؤكّدُ الشّاعرُ حتميّةَ الموتِ التي هي مصيرُ كلِّ إنسانٍ. وقد تمّ ذلك وَفقَ رؤيةٍ شعريّةٍ حاولَ من خلالها الشّاعرُ أن يستثمرَ ما أمكنَ منَ البُنى الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والمُعجميّةِ والنّحويّةِ للتّعبيرِ عمّا تعيشُه الذّاتُ الشّاعرةُ بلُغةٍ شعريّةٍ سِمتُها السّلاسةُ والعذوبةُ.

خاتمةٌ:

خلاصةُ الأمرِ إنَّ قصيدةَ المتنبّي خطابٌ شعريٌّ يعبّرُ عنِ التّحوّلاتِ الاجتماعيّةِ والحضاريّةِ التي شهدَها العصرُ العبّاسيُّ، وعنِ التّغيُّراتِ الثّقافيّةِ والفنّيّةِ التي طالت بنيةَ القصيدةِ، ولعلَّ هذا ما بصَمَ شعْرَه بالعديدِ منَ السّماتِ الجماليّةِ والفنّيّةِ.

المراجع والمصادر:

1 – استقينا هذه المعطيات المختصرة جدا من ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، ط2، 2008.

2 – تحقيق إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، بيروت، 1996، ص10–11.

3 – فرديناند دو سوسير: فصول في علم اللغة العام، ترجمة أحمد نعيم، الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، د.ت، ص32/ 42.

4 – انظر حسن البنا عزّ الدين: الشعرية والثقافة، ط1، المركز الثقافي العربي، 2003، ص33.

5 – يوري لوتمان: تحليل النص الشعري، ترجمة محمد أحمد فتوح، ط1، جدة، 1999ص10.

6 – الشعر، الغموض، الحداثة، دراسة في المفهوم، مجلة فصول، ع3–4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص83.

7 – يوري لوتمان: تحليل النص الشعري، ص 251.

8 – محمد عبدو فلفل: في التحليل النحوي للنص الشعري، مجلة الدراسات اللغوية، مج12، ع2، ربيع الآخر–جمادى الآخرة 1431، مارس–مايو 2010، ص 265.

9 –الجاحظ: الحيوان، ج3، ص131 / 132.

10 –انظر حسن البنا عز الدين: الشعرية والثقافة، ط1، المركز الثقافي العربي، 2003، ص 36.



مُقَارَبَةٌ إيقاعيةٌ لضَادِيّةِ أبِي الشّيصِ



د. سعيد بكّور
أستاذ الأدب العربي القديم،
جامعة ابن طفيل- المغرب

تعدُّ ضاديّةُ الشّاعرِ العباسيّ أبي الشّيصِ محمّد بنِ عبد الله بنِ رزين الخُزاعيّ، منَ القصائدِ التي استثمرت تفاعلَ الإيقاعِ الشّعري للتّعبيرِ عنِ الواقعِ النّفسيِّ، وتصويرِ المعاناةِ مع الشّيبِ والنّساءِ والفقرِ. ولا شكّ أنّ الإيقاعَ الذي يشكّلُ جوهرَ الشّعرِ لا يرتبطُ بالوزنِ فحسبُ، بل تُسهمُ في تشكيله كلّ العناصرِ الفاعلةِ في حركيّةِ المعنى والتّركيبِ والصّورةِ، إذ تنصهرُ فيما بينَها في أتونِ النّظمِ، لتعبّرَ في النّهايةِ عن تجربةِ الشّاعرِ، وتُصوّرَها إيقاعيًا، كما تحرّكت في نفسِه وفكرِه.

يبلغُ عددُ أبياتِ القصيدةِ سبعةَ وعشرين بيتًا، وهي من جيّدِ شعرِ أبي الشّيصِ، مدحَ بها عقبةَ بنَ جعفر، بُنيت نواتُها الدّلاليّةُ والإيقاعيّةُ على حرفِ الضّادِ الذي يُصوّرُ صوتيًا الضّررَ النّفسيَّ والحياتيَّ الذي ألمّ بالشّاعرِ، فالضّادُ هي البؤرةُ الصّوتيّةُ التي تتفرّعُ عنها وتدورُ حولَها معاني القصيدةِ وتتناسلُ.

• إيقاعُ المعنَى:

تُحرّكُ معاني القصيدةِ أحاسيسَ تتراوحُ بين الانفعالِ والاندفاعِ، فواقعُ الشّيبِ والفقرِ وقرارِ الرّحلةِ إلى الممدوحِ جعل النّفسَ تعيشُ حالةً منَ القلقِ الثّورةِ على الثّباتِ، الأمرُ الذي أثّرَ في المعاني فجعلَها منطلقةً متموّجةً.

تقومُ القصيدةُ على مبدأ التّحوّلِ؛ فالزّمنُ أحدثَ تغيّراتٍ أثّرت في الواقعِ النّفسيِّ للشّاعرِ الذي هيمنَ عليه الأسَى والرّغبةُ في تغييرِ الحالِ:

أبقَى الزمانُ بهِ ندوبَ عِضاضِ
ورمى سوادَ قُرونِه ببياضِ

وبعد أن كانت الكواعب تُقبل على الشاعر، صارت تغمض أعينَها عنه، والسبب المشيب الذي حل ضيفا ثقيلا:

حسرَ المشيبُ قناعَه عن رأسه
فرَمَيْنَه بالصدّ والإعراضِ
إثنانِ لا تصبُو النِّساءُ إليهما
ذو شيبةٍ ومُحالفُ الإنْفاضِ
فوعودُهنّ إذا وعَدْنَك باطلٌ
وبُرُوقُهنّ كواذبُ الإيماضِ

ولأن القصيدة تقوم على مبدأ التحول، اختار الشاعر الثورة على واقعي الفقر والشيب وقرر خوض غمار رحلة أملٍ تعيد له الحياة، وتملأ جيبه:

حُلّي عِقالَ مطيّتي لا عن قِلًى
وامْضي فإني يا أميمةُ ماضِ

وهكذا ركب الشاعر النوق القوية التي خاضت الفيافي وكأنها المعنية بالأمر، وعلى الرغم مما أصابها من ضمور فإنها تجاهد من أجل الوصول إلى الممدوح في رحلة وجودية درامية:

وركائبٍ صرفتْ إليك وجوهَها
نكباتُ دهْرٍ للفتى عَضّاضِ

وبعد الرحلة التي يسابق فيها الأملُ النوقَ والمسافة الطويلة، يصل الشاعر فتهدأ نفسه لتؤثّر في هدوء المعاني، فكأني به يرتاح من رحلته الشاقة وتتخلص نفسه من الخوف:

إن الأمانَ من الزمانِ وريبه
يا عُقبَ شطّا بحرِكَ الفيّاضِ

وتتصاعد المعاني في سياق الرفع من الممدوح لتبرز نفسا تواقة إلى

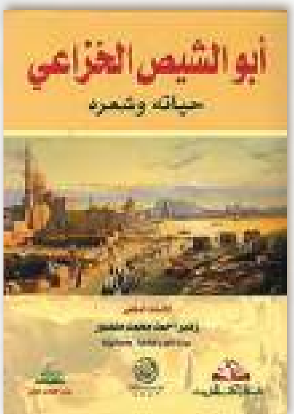


الدكتور عبدالله الطيب

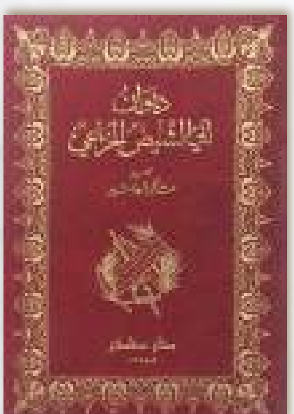
العطاء، ولا يُنال العطاء إلا إذا كان المدح قائما على المبالغة التي ترفع من ذكر الممدوح:

لأبي محمدٍ المُرجّى راحَتا
ملكٍ إلى أعلى العُلى نهّاضِ
فيَدٌ تدفّق بالنّدى لِوليّه
ويدٌ على الأعداءِ سُمٌّ قاضِ

وتنفتح القصيدة على مشهد العودة المحذوف، ويمكن أن نتخيل الركائب عائدة وقد امتلأت بالعطاء الذي سيطرد الفقر ويملأ الجيب ويؤسي النفس. وعليه فمعاني القصيدة لم تسر على نسق واحد سيماه الثبات، إذ بدأت بانكسار نفسي أعقبه تحوّل يصوّر رغبة في الثورة على الواقع، لتنطلق المعاني متدفقة تصوّرها الرحلة إلى الممدوح وما فيها من مشقة بسبب طول المسافة وتعب النوق والخوف من الغد، وعند الوصول تركن المعاني إلى الثبات لتسير في خطّ مستقيم يبرز هدوء الشاعر الذي يستغله لكيل المدح الغزير للممدوح كي يظفر بما جاء من أجله.







• إيقاع الوزن والقافية والتكرار:

ليس عبثا أن يختار الشاعر بحر الكامل الذي يعدّ «أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات. وفيه لون خاص من الموسيقا –إن أريد به الجدّ– فخما جليلا مع عنصر ترنّمي ظاهر، ويجعله إن أريد به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة، حلوا مع صلصلة كصلصلة الأجــراس، ونوع من الأبهة يمنعه من أن يكون نزقا أو خفيفا شهوانيا» (المرشد لعبد الله الطيّب، ج1\302).

وهو إلى جانب ذلك "بحر كأنما خلق للتغني المحض سواء أريد به جد أم هزل، ودندنة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال» (نفسه، ص 303).

ولعل ما ذكره الدكتور عبد الله الطيب من استنتاج، يصدق على



القصيدة المدروسة، وإن كان الشاعر يضيف طابعا مأساويا يتماشى مع الحالة الشعورية العامة، لكن خاصية الترنم والتغني تبقى حاضرة مميزة له رغم ظلال الأســى. ولا شك أن الزحافات والعلل أسهمت في جعل الإيقاع متموّجا ومعبّرا عن تحولات الذات.

لم يكن اختيار الشاعر لبحر الكامل اعتباطياً، فهو يتماشى مع الواقع النفسي الذي يحكمه مبدأ الرغبة الملحة في تجاوز الفقر والشيب. ولهذا نفهم سرعة التحول من الشطر الأول إلى الشطر الثاني من خلال إدخال التغيير على العَروض.

يتزين مطلع القصيدة بظاهرة التصريع (بَعِضاضِ-بِبياضِ) حيث تَتبع العَرُوض الضّرب في النقصان، وهو ما أفــرز منذ البداية رنينا لافتا يُؤْذِن بارتفاع منسوب الترنم والإطراب الذي يحاكي صوتيا واقعا نفسيا يتقاذفه الأسى والألم، ويُصرّع الشاعر في البيت السابع (إعراضي-نِبراضي) مبرزا قدرته على الصناعة وحرصه على مبدأ التوقيع النغمي الــذي يبرز انفعالاته الداخلية المرتبطة بالأسى على الحياة والواقع والنفس.

والأمر نفسه ينطبق على القافية التي بُنيت بناء يتماشى مع حالتي التحول والرغبة في تجاوز الواقع، فقد جعلها قائمة على ألف الرّدف الذي يدل في سياق القصيدة على الرغبة في تجاوز الواقع الذي يقبع فيه. والحركة بين ساكنين تبرز هذه الرغبة في الإسراع



لم يكن اختيار الشاعر لبحر الكامل اعتباطياً، فهو يتماشى مع الواقع النفسي الذي يحكمه مبدأ الرغبة الملحة في تجاوز الفقر والشيب، ولهذا نفهم سرعة التحول من الشطر الأول إلى الشطر الثاني من خلال إدخال التغيير على العَروض

أَبقى الزمانُ بِهِ ندوبَ عِضاض
وَرمى سوادَ قُرونِهِ بِبياضِ
نَفَرت بِهِ كأسُ النَّديمِ وأَغمَضت
عَنهُ الكواعِبُ أَيّما إِغماض
وَلَرُبما جُعِلَت محاسنُ وَجهه
لِجفونِها غَرضًا مِنَ الأَغراض
حسَرَ المشيبُ قِناعه عَن رأسِه
فَرَمَينه بِالصَدِّ والإِعراض
إِثنانِ لا تَصبوا النِّساءُ إِليهِما
ذو شيبَةٍ وَمُحالِفُ الإِنفاض
فَوَعودهنَّ إِذا وَعدنَكَ باطلٌ
وَبُروقُهُنَّ كَواذِبُ الإِيماض

والقفز (0--0)، والكسر يعكس الهوة النفسية التي يسقط فيها الشاعر دون أن يجد مخرجا.

جاء الروي ضادا مكسورة تبرز فداحة ما أصاب الشاعر من همّ نفسي إثر تكالب الشيب والفقر، وقوةُ وقْعِ الضّاد تُحاكي قوةَ وَقْعِ ما أصابه من جرح نفسي. كما أن كسرها حاكى صوتيا انكسار الذات الشاعرة.

تكرر صامت الضاد 45 مرة، ما يعني أن انتشاره غير متعلق بالروي، بل نجده في ثنايا الأبيات، وهو ما يقوي الافتراض السابق الذي يؤكد أن الضاد شكّل البؤرة الصوتية والمعنوية للقصيدة؛ فهو فاعل في تصوير ما لحق بالنفس من أذى، ومؤثر في تناسل المعاني.

من ناحية أخرى يمكن أن نتحدث عن تكرار صيغة المبالغة (فعّال) بما تحمله من قوة صوتية تكشف عن وقع الألم وحجم الضرر الذي لحق الشاعر (عضّاض\رضّاض)، ذلك أنّ قوة التضعيف هنا تحمل في علاقتها بالصيغة والسياق دلالة العنف النفسي المؤذي، وفي سياق المدح تتحول الصيغة الصرفية إلى إضفاء بعد حماسي مرتبط برفع الممدوح إلى العلياء وتصوير قوته (فيّاض\ خوّاض\ نهّاض).

يتكرر التضعيف بشكل لافت، لكن ما يهمنا منه الذي يسهم في حركية الإيقاع وتصوير الواقع النفسي، والتّضعيف الذي يؤدي هذه الوظيفة يتكرر 17 مرة، ويرد أغلبه في حالة وصف واقع الفقر والمعاناة النفسية مع مـرات قليلة في سياق وصف الممدوح وإبراز قيمته، ويسهم بقوته الصوتية الضاغطة في تحريك الإيقاع.

• النبر والتنغيم :

يتحقق النبر بالضغط على جزء من كلمة يشكل البؤرة الصوتية الفاعلة في أداء المعنى، حيث يرتفع الصوت مشيرا إلى مقطع معين تمييزا له عن غيره لأهميته، ويكمن أثره في خلق الفاعلية الدلالية، ويمكن تلمّس ذلك في مجموعة من الألفاظ التي تبرز من خلال طبيعتها الصوتية أثرا نفسيا يشبه إلى حد بعيد الأثر الصوتي، كما في هذه الأمثلة:

عضّاضِ \ رضّاض

يبرز النبر في التضعيف ويزيد من قوته ألف المدّ، ولعل الوقع الصوتي للشدة يحاكي معاناة الذات والضغط الممارس عليها وقوة الصدمة، حيث أثر فيها الزمان والفقر والشيب، وهكذا يتناسب المعطى الإيقاعي مع البعد النفسي، ويسهمان في خدمة البعد الدلالي.

يدل الأمر (حُلِّي) على انفعال الذات، حيث يظهر الشاعر حانقا ممتلئ النفس، ولعله يمثل نقطة التحول في القصيدة على مستوى المعنى والواقع. ولقد عكس نبره الصوتي هذا المعنى.

ومن ناحيةٍ ثانية تتراوح درجات ارتفاع الأصوات وانخفاضها مما يفرز (تنغيما) يعكس طبيعة المعنى والواقع النفسي، ويمكن تبيّن ذلك من خلال البيت التالي:

أيامَ أفراسُ الشّباب جوامحٌ
تأبى أعنّتها على الرّوّاض

يرتفع النغم الصوتي معبرا عن واقع الشاعر النفسي، حيث تتقاذفه أحاسيس متباينة تتأرجح صعودا وهبوطا، ويقوي تكرار ألف المد هذا النغم إضافة إلى نبر التضعيف، ليشكل البيت صورة صوتية عن واقع الشاعر الداخلي.

• **الإيقاع البلاغي:**

يختار الشاعر الصور الشعرية التي تعبر عن حاله وواقعه، وتصور التحول الذي طرأ على حياته، حيث تتجاوز الوظيفةَ الجمالية التعبيرية



"يبرز النبر في التضعيف ويزيد من قوته ألف المدّ، ولعل الوقع الصوتي للشدة يحاكي معاناة الذات والضغط الممارس عليها وقوة الصدمة، حيث أثر فيها الزمان والفقر والشيب، وهكذا يتناسب المعطى الإيقاعي مع البعد النفسي، ويسهمان في خدمة البعد الدلالي.

إلى خلق إيقاع يخدم حركة المعاني واضطرام النفس، وأول صورة تلفت الانتباه قوله:

حسَرَ المشيبُ قناعَه عن رأسِهِ

تصوّر هذه الاستعارة الصدمة التي أصابت الشاعر، حيث وجد نفسه أمام الحقيقة العارية غير قادر على استيعاب الموقف، ولا شك أن خاصية الحركة التي ميزت الصورة عكست حركة الانسلاخ والتحول من حال إلى حال.

ويصور الشاعر الزمان حيوانا مفترسا ينسب له فعل العض، وهي صورة تقليدية، لكن الشاعر منحها بعدا ذاتيا ينطق من تجربته:

أبقى الزمان به ندوب عضاض

إن فعل العض، هنا، ما هو إلا ذاك الأثر النفسي المتمثل في وقوع الأذى الذي سببه التحول من الشباب إلى الشيب، ومن الغنى إلى الحاجة، وقد جعل الشاعر الأثر ندوبا كثيرة لا ندبة واحدة مبالغةً، وتبرز الصورة الشاعرَ في حالة ضعف وعدم قدرة على المواجهة ودفع الأذى؛ لذا فسمة الحركة ملتصقة بالصورة.

يختار الشاعر الصور التي تبرز التحول، ولذلك فهي تزيد من حركية الإيقاع وتسرع وتيرته، مما يجعله محتفظا بنبضه مصورا الذات وانفعالها وتموجها.

يُحمِّل الشاعر همه وفقره لركائبه،

فيخوض بها المخاطر وكأنها المعنية بأمر الرحلة، ويصور إقبالها وخوضها غمار المغامرة في عزم نادر:

يَحْذِفْنَ وجْهَ الأرضِ بالرّضْرَاضِ

في هذه الصورة المشهدية حركة وعزم ومقاومة وإصرار وإقدام، فإما نيل وعطاء وإما موت وفناء، وتتصوّر النّوق تعلم وجهة الشاعر، وتمضي في عزم وقوة يظهران في حذف وجه الأرض بالرضراض الناتج عن قوة وقع الحوافر، وتبرز الصورة في عمقها رغبة الشاعر في طيّ المسافات للوصول إلى الأمل المنشود.

وتُظهرُ استعارةٌ أخرى طُولَ مسافة الرحلة ووعورة الطريق وأثرهما في النوق:

أكل الوجيفُ لحومَها ولحومهم

تبرز الصورة طول المسير ونفاد الزاد وخوض المغامرة، ولا يخفى ما فيها من تصوير للتحول الطارئ الذي مس الرّكب والنوق الذي يعدّ طريقا إلى التحول الثاني المرغوب الذي سيعيد التوازن إلى حياة الشاعر، ومن أجل ذلك يبالغ لدفع الممدوح إلى العطاء والبذل.

يظهر الإيقاع البلاغي بشكل بارز في التركيب، حيث يعبر عبر التقديم والتأخير عن حركية النفس وأمل الشاعر، مما يحقق حركية في المعنى تترتب عنها تموجات تنقُل المعنى بطريقة مغايرة.

يكشف مطلع القصيدة عن سبب المعاناة النفسية، ويعمد الشاعر إلى تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

> **يـرتـبـط إيـقـاع القصيدة العام بحركية النفس التي لا تعرف الاستقرار بفعل عـوامـل زمـنـيـة أحـدثـت تـحـولا تـرك نـدوبـه الواضحة، واضطر الشاعر إلى حركة يأسو بها الندوب واضطر الشاعر إلى حركة يأسو بها الندوب، ويمحو التحول السلبي بتحول إيجابي يملأ جيبه**

أبقى الزمانُ به ندوبَ عِضاض

نلاحظ كيف عبّر عن نفسه بضمير الغائب (به) بدل المتكلم (بي) وكأنه غير موجود، وكيف يكون موجودا والفقر قد حطّ بداره، وزاد الشيب من تعميق معاناته، ولا شك أن هذا التقديم أسهم في تبطيء المعنى، وعكس نفسا سُلب منها إيقاع الحياة المنطلق النابض.

يتكرر هذا الملمح في البيت الثالث ليؤكد الواقع الذي يعيشه الشاعر داخليا، ويظهر في الصور التعبيرية:

نَفرَتْ بِهِ كأسُ النَّديمُ وأَغْمَضَتْ
عنْه الكَواعِبُ أيَّمَا إغماضِ

إن تقديم الجار والمجرور في الشطرين (به\ عنه) فتح أفق انتظار القارئ لتخيّل المشهد، مما جعل الإيقاع يتخلص من بطئه ليمهد لانتقال الشاعر إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الاستعداد للرحلة، وملاحقة الأمل.

وفي سياق المدح تطمئن نفس الشاعر بعد رحلة محفوفة بالمخاطر والظنون، فيلجأ إلى التقديم الذي يصور ما تعيشه النفس من هدوء:

إنَّ الأمانَ مِنَ الزَّمانِ ورَيْبِهِ
يا عُقْبَ شَطّا بَحْرِكَ الفَيّاضِ

الأصل أن يُقَدَّمَ النداء فيكون تركيب الجملة كما يلي: (يا عقب إن الأمان من الزمان وريبه شطا بحرك الفياض)، لكن الشاعر آثر أن يقدم جملة التوكيد ويدرج لفظ الأمان الذي يصور حالته النفسية التي تحولت من القلق والخوف إلى الاطمئنان، ولا شك أن جملة التوكيد جعلت الإيقاع مستقرا هادئا.

يرتبط إيقاع القصيدة العام بحركية النفس التي لا تعرف الاستقرار بفعل عوامل زمنية أحدثت تحولا ترك ندوبه الواضحة، واضطر الشاعر إلى حركة يأسو بها الندوب، ويمحو التحول السلبي بتحول إيجابي يملأ جيبه، وهكذا جاءت المعاني متساوقة مع الخيار الوزني والبلاغي والواقع النفسي، مما جعل القصيدة في عمقها صورة إيقاعية متحركة.



الإصْــدار الثّـــالــث

لمجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

كتابُ الأمالي الكبرى

تأليفُ أبي القاسم الزّجّاجيّ

تحقيق الدكتور مصطفى علي قرمد

لقد أحدث هذا السفر النفيس أثرًا عظيمًا في كثير من المؤلفات اللاحقة به بالنقل عنه والاستشهاد به في المعاجم اللغوية وكثير من المصنّفات اللغويّة والأدبيّة، وورد اسمه فيها بالعناوين الثلاثة الموضحة بالخلاف، والتي أثبتت الدراسة أنها عناوين مختلفة لذات كتاب واحد أملاه أبو القاسم الزجّاجي (ت: ٣٣٧ هـ) -طيّب الله ثراه- وهو كتابٌ موسوعيٌ يحوي كثيرًا من الروايات اللغوية والأدبية عن المتقدمين في مناهج مختلفة كتناولٍ لآيات من الذكر الحكيم وتوضيح لألفاظه وتراكيبه، وتوجيه لقراءاته المتواترة والشاذة، وشرح لبعض الألفاظ الحديث النبوي الشريف، وأخبار مختلفة ماتعة وأشعار متنوعة، ومفارد -لم ترد في كتاب غيره- لفتوح الشعر في العصور المتتابعة حتى عصر أبي القاسم، وخطب نادرة، ونكات لغوية متفرقة، مذيلة بفوائد لغوية في عقب جل الأخبار والأشعار.

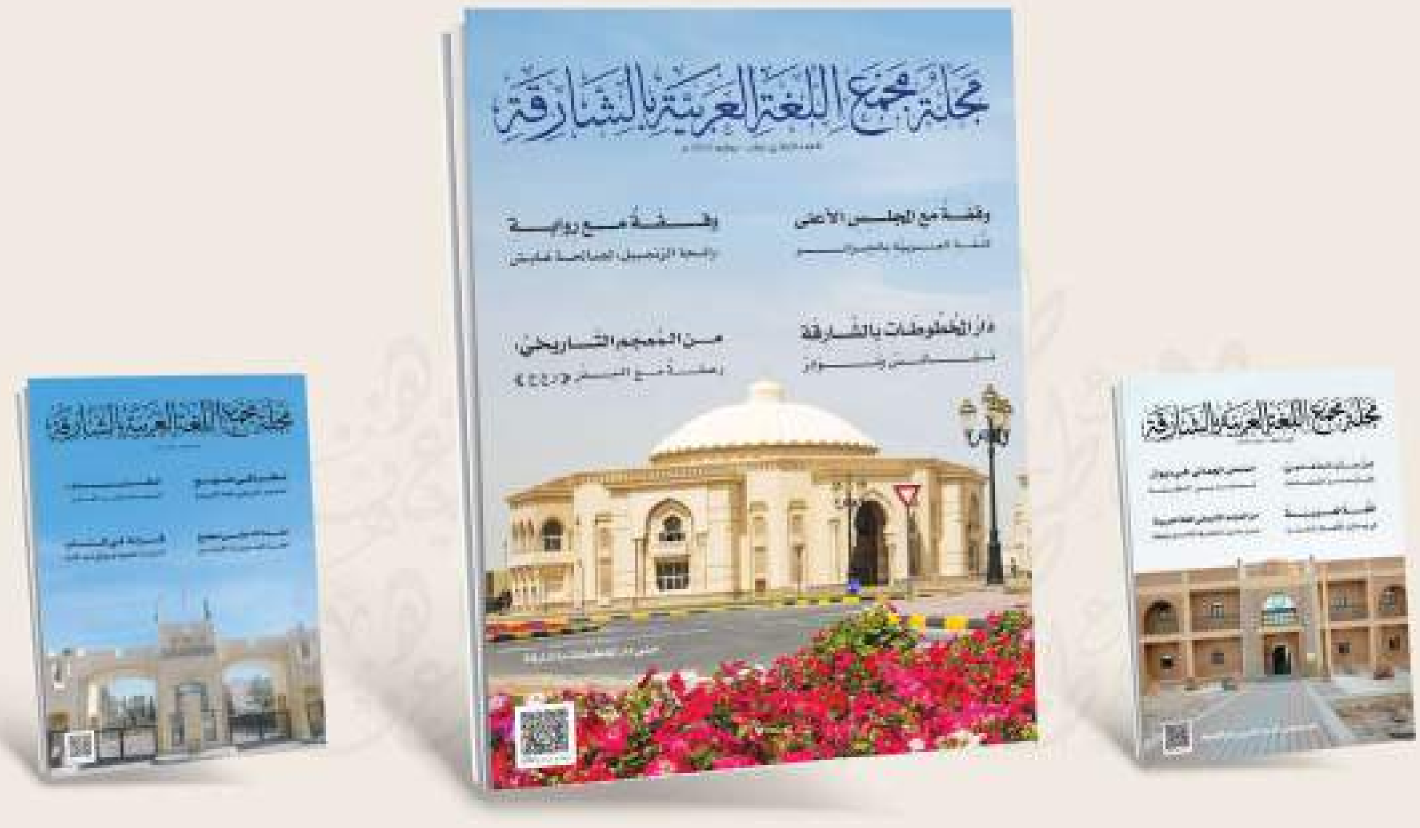
ووضحت الدراسة العلاقة بين كتابنا والمطبوعات الثلاثة (أمالي الزجاجي، وأخبار أبي القاسم، ومجالس العلماء للزجاجي) وإحصاء بالأخبار الواردة في كتابنا مقارنة بها، وجملة ما انفرد به كتابنا عن غيره، وما امتاز به الكتاب من استدراكات لغوية من فائت المعاجم اللغوية، وحواشٍ لغوية قيمة. ولذا يقدم مجمع اللغة العربية بالشارقة هذا الأثر الراسخ من تراث الأمة المجيد بين يدي القراء الكرام مشاركة منه في إحياء التراث، وسعياً لإغناء المكتبة العربية بهذا السفر التراثي المتميز.

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

إصدارات مجلّة مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة





المدينة الجامعية – الشارقة –الإمارات العربية المتحدة | مبنى مجمع اللغة العربية | الدور الأول

هاتف: 400 60 51 6 971+ | فاكس: 410 60 51 6 971+ | ص.ب: الشارقة: 1973

البريد الإلكتروني: info@alashj.ae | الموقع الإلكتروني: www.alashj.ae